عبد الحفيظ فرغلي القرني

هدى السيرة

في رحاب السيرة العطرة
رحلة مع السيرة المطهرة
محمد المثل الكامل
عظات وعبر في سيرة خير البشر
الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا

١٩٨٣

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة

لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

قرآن كريم ...

سورة الأحزاب : الآية ٢١

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .
وبعد ...

فانه يستعصي على القلم أن يتناول هذه السيرة العطرة ، انها تحتاج الى قلم نورى يفيض الله عليه من قدسه ما يجعله أهلا لأن يعرضها فى ثوبها اللائق بها ، كما تحتاج الى مدد روحى يتفهم به جوانب هذه الشخصية المريدة وعطاءها الزاخر الفياض .

وكيف يتسنى لقلمى العاجز أن يكتب عن خير البشر بعد أن قرظه الحق جل وعلا بقول يفوق كل بيان ويتحدى كل تبيان حين خاطبه قائلا : **« وانك لعلى خلق عظيم »** ؟.

وحسب هذا القلم المتواضع أن يستقى من تلك المنابع الثرة والمراجع المشرقة المتقدمة بعض وقفات يجد المسلم فيها قبسات تعينه على دربه وتهديه الى ربه وتعرفه فضل نبيه وتذكره بواجبه .

وما أحوجنا فى هذه الآونة من حياتنا وقد اعتصرتنا الدنيا ، واحتوتنا المادة ، وتجاذبتنا النوب ، وأحاطت بنا المخاوف ، وتطارحتنا المشكلات ، ما أحوجنا الى أن نراجع سيرة القائد الملهم وجنوده المخلصين الذين باعوا نفوسهم لله ، وآثروا رضوان الله ، واستخلصوا من هدى رسولهم الكريم طريقا سلكوها فبنوا أعظم دولة وشيدوا أروع بنيان !.

ما أحوجنا الآن الى أن نجدد ايماننا وأن نعود الى صفاء ديننا وأن نصحح خطواتنا وأن ننطلق معا فى ركب زاده التقى وعقيدته التفانى فى الله وحب رسوله الكريم — صلى الله عليه وسلم — حبا يفوق حبنا لأنفسنا وأولادنا وأموالنا ، تصديقا للأثر الكريم : **« لا يؤمن أحدكم حتى يكون**

الله ورسوله أحب اليه مما سواهما)) وكيف لا والقــرآن الكريم يقول : ((**قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشــيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين**)) ؟. (التوبة : ٢٤) .

ان حياة الرســول — صلى الله عليه وسلم — سجل حافل بالأعمال الجليلة التى يجد فيها كل انسان ما يحتاج اليه من هداية فى دينه ودنياه ، فى مسعاه للاخره والاولى معا ، فلم يكن المصطفى — صلى الله عليه وسلم — الا مثلا أعلى وقمة شماء بعثه الله ليأخذ بايدى الناس فى هذه الحياه الوعره المسالك الى طريق ممهدة يكفل لزوم السعاده والاطمئنان ، هذه هى رسالته : ((**قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وسبحان الله وما انا من المشركين**)) (يوسف : ١٠٨) . ولذلك سعد من سار على سنن هذه الرساله وشقى من تنكبها .

ولم يكن اختيار الله جل وعلا لهذا الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — لان يكون خاتما للانبيــاء والرســل عبثــا مجردا من الحكمة ، بل هو اختيار مرده فى علم الله الى غايه الحكمه البالغه البصيره بما سينبىء عنه المستقبل ، ويموج به العالم وستجىء عنه العقول وتسفر عنه الأحداث ، وما سيحتاج اليه ذلك من دليل يقود الركب بمنهج صالح لكل زمان ومكان ، فتستقيم الدنيا باتباعه وتسعد الانسانيه لو استنارت به ، فكان هذا الدليل هو النبى صلى الله عليه وسلم الذى لا نبى بعده ، وكان هذا المنهج هو كتاب الله وسنته اللذين ما تمسك بهما الا مهتد وما ابتعد عنهما الا ضال .

وقد اصطنع الله رســوله لنفسه ورباه على عينه ، فجعله نموذجا أعلى للكمال الدينى والدنيوى معا ، فلا ينبغى أن يصدر عنه صلى الله عليه وسلم الا كل ما يكون له هدف فى تحقيق معنى هذه الحكمة التى أرادها الله من بعثه ؛ وأنه خاتم الرسل الذى اتم الله به النعمة وأكمل الدين ، وجعــل التشريع الذى جاء به متضمنا من أسرار الحياة والمرونة ما يسير مع الزمن ويحيا مع التطور ، وبذلك يفسر جلال الاسلام وجماله ويفهم معنى نضارته واستمراره .

وهكذا ينبغى أن يفسر ما كان يصدر عن النبى صلى الله عليه وسلم من تصرفات غاب سر بعضها عن البعض فظنوها سهوا أو خطأ .. وليس معنى ذلك أنه من طينة أخرى غير طينة البشر ، كلا ، بل هو مصداق ما أخبر به عن نفسه فى قول الحق : ((**انما أنا بشر مثلكم يوحى الى**)) (الكهف : ١١٠) والبشر الذى يوحى اليه يجب أن تتحقق له دواعى العصمة التى تعصمه من التورط فيما يتورط فيه غيره من سائر الناس ، وتحوطه العناية والتوفيق اللذان يكفلان له أن يؤدى رسالته بنجاح ، فتكف عنه بطش الفاتك وأذى القاتل الذى يعوق الرسالة عن المضى الى غايتها التى أراد الله ، وان كان ذلك لا يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتعرض لأذى ، أجل ، فقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذى عات شديد وتحمله فى صبر وأناة ولم يجعله هذا الأذى — على الرغم من ضراوته — أن يفقد حلمه الذى فطره الله فيه ، فكان دعاؤه المأثور الذى يشهد بفيض رحمته : ((**اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون**)) .

وهو من أجل أنه بشر كان أهلا للقدوة الطيبة التى يدعو الله عباده اليها حيث يقول لهم ((**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**)) فلولا امكانية التأسى به فى أخلاقه وأفعاله لما دعانا الله الى ذلك ورسم لنا المنهج الذى يوصلنا اليه ، والمنهج نراه فى بقية هذه الآية المتقدمة ((**لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**)) — الأحزاب ٢١ — ورجاء الله يعنى الايمان به ايمانا زاخرا قويا وحبه حبا شديدا غالبا ، ورجاء اليوم الآخر يعنى العمل له والاستعداد للقائه ، وذكر الله هو عدة المرء فى سرائه وضرائه ، وذكر الله يستدعى ذكر رسوله الذى أرسله بأن يصلى عليه ويسلم تسليما ، فهو الذى أوصله الى هذه السعادة الأبدية الخالدة ، ولولاه ما كان يدرى ما الكتاب ولا الايمان .

ومن جملة التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة سيرته العطرة ليتخذ منها ذخره الذى لا ينفد ، ويستمد منها تعاليمه التى لا تبلى ، ويأخذ منها نبراسه المشرق الذى يضىء له ظلمات الحياة وينقذه من عثرات الطريق الى الله .. وبذلك يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، مصداقا لقوله

تعالى « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » — النحل ٩٧ — .

ان القلم ليشعر بالعجز حين يتناول هذا الموضوع الكبير ، ولكنه يستلهم من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم شعاعا يعينه على بلوغ غايته التى يريدها . راجيا من الله سبحانه وتعالى التسديد والتوفيق ، وأن يرزقه الاخلاص فى طريقه ، حتى يكون ما يكتبه من وحى النية الصادقة الصالحة والقصد النبيل الهادف . والنية الصادقة أساس كل عمل ناجح « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » .

اللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم ، واجعله فى ميزاننا يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وارزقنى حب نبيك الكريم حبا يملأ شغاف قلبى ويملك على جوانحى ، فلا طريق اليك الا عن طريق حبه ولا سبيل الى معرفتك الا بسلوك دربه « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** » — آل عمران ٣١ — .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

الحديدة فى ١٥ من صفر ١٤٠٢ هـ

١١ من ديسمبر ١٩٨١ م

النبى المنتظر

تتابعت القرون بعد ميلاد المسيح — عليه السلام — ورسالته ، وكلما امتدت القرون ابتعد الناس عن الهدى ونأوا عن الصواب ، بل انه لم يطل الوقت بعد ارتفاع المسيح الى السماء حتى غير أتباعه وبدلوا ، ولم يبق على الجادة سوى عدد قليل ضنوا بأنفسهم عن الاختلاط بالناس فألزموا أنفسهم محاريب الأديرة والصوامع يتأملون فى صمت ويعبدون فى خفاء ، أو تفرقوا فى الأرض ليس لهم صوت أو تأثير .

وكثر الشقاق بين أتباع الدين الواحد ، وبينهم وبين اليهود الذين جاءت رسالة عيسى لتصحح خطواتهم ولتهدى خراف بنى اسرائيل الضالة ، كما جاء على لسان المسيح عليه السلام .

واتسعت الهوة بين أتباع الديانتين حتى ذهب ضحية هذا الشقاق الآلاف المؤلفة ، فحين يحفر ذو نواس اليهودى الأخدود للمسيحيين ليحرقهم فيه أحياء يقوم قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية باجبار اليهود على اعتناقها بالحديد والنار ، وكيف يثمر دين — كانت القوة الغاشمة وراءه — ثماره المرجوة ؟ أو كيف يستقر وجدان انسان يعلم أن ما يؤديه من شعائر لا يوافق عقيدته ولا يوائم ما يؤمن به ؟

وسارت الأيام بالكتابيين وهم يغيرون ويبدلون ، حتى أصبحت الديانتان — اليهودية والمسيحية — مسخا مشوها لا يمت الى ما أنزل الله بصلة ، بل ان الرومان الذين اعتنقوا المسيحية لم يعتنقوها ايمانا بها ، بل اتخذوها ذريعة للسلطة ووسيلة للسيطرة ، ومن أجل ذلك خلطوها بوثنيتهم وأضافوا الى حقها باطلهم ، فأصبحت خليطا من هذا وذاك .

وما ظنك بدين — وقد أصبح مسيطرا على الشام وفلسطين ومصر بعد غلبته على اليهودية — ما ظنك به وقد جاء مواسيا للفقراء مشيعا للرحمة آخذا بيد الضعفاء فاذا به يتحول على يد معتنقيه من الرومان الى وسيلة للابتزاز والتسلط والجبروت ويتحول على يد المنحرفين عن تعاليمه

والزاعمين حراسته والقائمين عليه الى رغبة فى جمع المال والاثراء غـــير المشروع والتحكم فى مصائر الدائنين به من الناس ؟؟

ولم يجيء القرن السادس الميلادى حتى اصبحت الحالة العقـدية فى منتهى السوء . بين الناس من الدين وتبعاته المادية التى أقحمت عليه والتى قاسوا منها الامرين . ولقد كان المفروض أن الدين جاء لينقذهم من براثن المادة ويأخذ بهم فى طريق الجادة ويهديهم الى سواء السبيل ..

ولم تكن اليهودية خيرا من ذلك بعد أن اصبحت اقلية متوارية منطوية على نفســـــها . متفرقة فى أنحاء كثيرة من العالم تأكلها الخلافات وبتفانى أتباعها فى جمع المال ويعيشون على زرع الفتن والأحقاد .

أما بلاد فارس — وديانتها المجوسيه — فقد اصطلت بنارها وشـــاع الفســاد فى أوصالها بعد أن استعبد الناس بعضهم بعضا . وغلب الأقوياء على الضعفاء يســـــومونهم العذاب والنكال ، وضاعت المروءة وانتهكت الأعراض . حتى لقد أحل الملوك لانفسهم زواج المحرمات .

ولم تكن جزيرة العرب بخير من الروم أو فارس أو بأفضل من مصر والشام والحبشة ، ولكنها استشرى فيها الفساد وتضاعف الشر والعدوان، وتغيرت المفهومات الخلقية بين العرب حتى أصبح الاسراف كرما والاغارة على الآمنين شجاعة ونجده والاعتداء على القبائل اباء وكرامة ، واستساغ العرب الظلم وتفاخروا به ، حتى قال شاعرهم مسوغا الاعتداء على أقرب الناس اليه :

واحيانا على بكر اخينا   اذا ما لم نجد الا اخانا

ويبرر غيره الظلم بأنه ضروره اجتماعيه فيقول : ومن لا يظلم النـــاس يظلم ، ويرى أن المراءاة والمصانعة لابد منهما فى الحياة فيقول :

ومن لم يصانع فى أمور كثيره   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أما خفر الذمة ونقض العهد فأمر مستساغ للقوى ، ولا يجرؤ عليـــه الا من كرمت أصوله ونمت مروءته ، ومن أجل ذلك هجا شاعر قبيلة بقوله :

قبيلتــه لا يخفرون بذمــة   ولا يظلمون الناس حبة خردل

ولا يردون الماء الا عشـــية   اذا صدر الوراد عن كل منهل

وحين افتخر عمرو بن كلثوم افتخر بعصبيته الغاشمة وقدرته على البطش والظلم فقال :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

لقد أصبحت القوة الغاشمة تتحدث عن نفسها وأخذت تستعلن لتكون اللغة الوحيدة السائدة ، فاستعبد الأغنياء الفقراء وأذل الأقوياء الضعفاء ، وبيع الناس فى الأسواق بيع الرقيق ، وساد الظلم حتى طم ومس أقرب الأقرباء ، وتناول الابنة الوليدة فى مهدها فدفنت حية بحجة واهية هى خشية العار أو خشية الفقر ، وماذا ينتظر من قوم ماتت فى قلوبهم عاطفة الأبوة ، وغاصت الرحمة الفطرية التى أودعها الله القلوب حتى قلوب العجماوات من الطير والحيوان !. وقد صور القرآن الكريم ذلك أروع تصوير حيث قال « **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب، ألا ساء ما يحكمون** » — النحل ٥٨ ، ٥٩ — .

حلف الفضول : وربما كان هناك بعض الاستعداد الطيب فى بعض النفوس يظهر أحيانا فيقف من هذا الظلم موقف الاحتجاج ، من ذلك موقف بعض أشراف مكة من العاصى بن وائل السهمى ، الذى ظلم تاجرا من بنى زبيد وفد على مكة البلد الحرام بتجارة ، فأكل حقه ورفض أن يعطيه ثمن تجارته ، فاستعدى عليه الزبيدى قبائل قريش والأحلاف فلم يكترثوا له ، فوقف هذا الرجل بجوار الكعبة ونادى قائلا :

يا آل فهر لمظلوم ، بضاعته ببطن مكة ، نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر

ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمع من بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة نفر فى دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم الا نصروه وكانوا معه على من ظلمه حتى ترد مظلمته ،

وقد سمت قريش هذا الحلف حلف الفضول ، الذى شهده رسول الله صلى عليه وسلم — قبل بعثته — وقال فى حقه بعد أن بعث : « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » .

مواقف اخرى : ومن دلك ما نراه فى موقف هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين وقفا جهودهما على اتمام الصلح بين قبيلتى عبس وذبيان — وكانت الحرب قد استشرت بينهما وطالت — وتحملا فى سبيل اتمام الصلح ديات القتلى ، وقد سجل زهير بن أبى سلمى هذا الموقف النبيل فى ملعقته قائلا :

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : ان ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها عن عقوق ومأثم

الا أن هذه البوادر الطيبة لم تلبث أن تنزوى فى طيات الظلام الذى ألقى رواقه فى ربوع الجزيرة العربية ، التى اضطرمت بالشر وماجت بالحروب ، فاصطلى الجميع بنارها ، وربما امتدت الحرب بين حيين أو أكثر سنين طويلة .

ولم يكن ذلك الا صورة مما كان يحدث فى خارج الجزيرة العربية من حروب طاحنة بين الدولتين الكبيرتين اذ ذاك : الفرس والروم ، وربما امتد أوارها الى العرب أنفسهم حيث كان أبناؤهم وقودا لهذه الحرب فى بعض الأحيان ، حينما كان المناذرة يناصرون الفرس والغساسنة يناصرون الروم .

عبادة الأصنام : وتم الضياع فى الجزيرة العربية بعبادة الأصنام التى

كانوا ينحتونها بأيديهم من الأحجار أو يصنعونها من الخشب أو العجوة ثم يسجدون لها من دون الله ، ويستغيثون بها فى الملمات وينحرون لها ، وكان هذا أعظم خزى يصاب به الانسان ويرتكس فى حمأته ، حيث يحكم الجماد فى مصيره ، ويخضع لمخلوق خلقه بيده أو اتخذه من مصنوعات الله أيا كانت فى شمس أو قمر أو شجر أو جن أو غير ذلك . ومن المفارقات المضحكة أن بنى حنيفة كانوا يتخذون الههم من العجوة فاذا أصابتهم مجاعة أكلوه ثم يصنعون غيره بعد ذلك ، حتى سخر منهم شاعر فقال :

أكلت حنيفة ربها … عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم … سوء العواقب والتباعة

ثم انهم بعد ذلك لا يؤمنون ببعث ولا نشور ، فهم لا يدركون لهم فى الحياة غاية يسيرون اليها ولا هدفا خلقوا من أجله ، وحق لهم اذن أن يعيثوا فى الأرض فسادا ويحكموا قانون الغاب ما داموا لا يؤمنون بأن هناك ثوابا ولا عقابا « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون** » — الجاثية ٢٤ — فاذا هبت تناقشهم هزوا رءوسهم ساخرين وقد صور القرآن الكريم حالهم ذلك قائلا : « **بل عجبت ويسخرون . واذا ذكروا لا يذكرون . واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . او آباؤنا الأولون** » — الصافات ١٢ : ١٧ —

وهكذا انتشر الضلال فى كل مكان من عبادة للنار فى فارس ، الى عبادة للحيوانات فى الهند ، الى عبادة للأوثان فى الجزيرة العربية واليونان ، الى تثليث واشراك فى روما وفلسطين والشام ومصر وغيرها من مختلف الأقطار والأوطان .

وكان من الطبيعى أن تضيق النفوس وتضطرب الأفئدة ويتعطش الناس الى منقذ يأخذ بأيديهم وهاد يهديهم السبيل ، فانه لا يبعث الأمن والأمان الا الدين السوى ، ولا يثير الشعور بالاطمئنان فى النفوس الا التحصن بالايمان الحق والالتجاء الى اله قادر يجد الانسان فى كنفه الهدى

والسعادة والحماية . انه يرتفع بربه مناجيا متضرعا فيجد سرعة الاستجابة التى تقر عينه وتملأ وجدانه املا وفرحا مصداقا لقوله تعالى ((**واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**)) — البقرة ١٨٦ — .

وانك لتجد الايمان بالله شيئا فطريا فى النفوس ، لا تحجبه الا كثافة المادة أو الانحراف عن الطريق السوى أو وسوسة النفس وشياطين الجن والانس والانتكاسة التى ترد الانسان الى الوراء وتعوقه عن المضى فى طريق الرشاد ..

انه بفطرته يهتف باسم ربه فى الفداء وهو راغم ((**قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**)) — الأنعام ٦٣ ، ٦٤ — ، وانهم ليعترفون راغمين أيضا بالله ((**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ... ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون**)) — العنكبوت ٦١ — ٦٣ .

ان المؤمن مطمئن بايمانه فهو منشرح الصدر مستريح الخاطر قرير العين ، وعلى النقيض منه ذلك الذى أغلق عينيه دون النور وأصم أذنيه عن الهدى فهو يتخبط فى الظلام ويتعثر فى الضلال ، تمتلىء طريقه بالأشواك فلا يستطيع أن ينتزعها ، وصدق الله اذ يقول ((**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**)) — الأنعام ١٢٥ .

وما اروع تصوير حال هؤلاء الكفار الذين ضاع قصدهم وضل سعيهم فى قوله تعالى ((**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب — أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه**

سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » النور ٣٩ ، ٤٠ .

واذن فقد تعثرت خطا الناس لأنهم لم يسـيروا فى طريق الهدى ، فعليهم أن يتلفتوا باحثين عمن يصحح لهم الخطأ ويكشف أمامهم الطريق ..

لقد فقدت الأرض هذا الهادى فليتطلع الناس الى السماء ..

ان هذه الفتن التى ماجت بها الأرض لا يمكن أن ينقذ الناس منهـا الا نبى يوحى اليه من السماء تحقيقا لبشريات سـابقة وعدت بها الكتب المنزلة قبل أن تتناولها الأيدى بالتحريف والتبديل .

البشارات السابقة : ولقد أشار القرآن الكريم الى بشـارات الكتب السابقة بنبى آخر الزمان ، وقد وردت فى أماكن متفرقة منه ، ففى سورة الأعراف يقول الحق تعالى «**الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل** » ١٥٧

ويشـهد بذلك أن الأحبار والعلماء من أهل الكتاب كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث من العرب له علامات يثبتونها .. وفى قصة بحيرى التى سترد بعـد شاهد على ذلك ، وفى اسـلام عبد الله بن سـلام وغيره من اليهود شـاهد كذلك ، وقد نزل فى قصة اسـلام عبد الله قوله تعالى فى سـورة الأحقاف « **قل أرأيتم ان كان من عند الله وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » ١٠ .

علم اليهودية : لقد كان اليهود يدركون تماما أن نبيا سيبعث ، وكانوا يتوعدون به الأوس والخزرج ويقولون لهم : ان نبيا سيبعث نتبعه ونحاربكم على دينه ونقتلكم قتل عاد وارم ، ولكن الأوس والخزرج سبقوا اليهـود فى الايمان بهذا النبى المنتظر . وكفر اليهود به استكبارا وحسدا . وأشار القرآن الكريم الى ذلك فى عدة مواضع منها « **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** » — البقرة ١٤٦ — ومنهـا « **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من**

قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » — البقرة — .

وجاء فى كتاب نور اليقين للشيخ محمـــد الخضرى « روى القاضى عياض فى الشفاء أن ابن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « **يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** » وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، ســميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخابى فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالســيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ومن يقيضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » .

وروى مثله عن عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهو الذى كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياســـة حتى يترك الدين القويم ، وكذلك كعب الأحبار ، وفى بعض طرق الحديث : ولا صخب فى الأسواق ولا قوال للخنا ، أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم واجعل السكينة لباســـه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته الهدى أمامه والاسلام ملته ، أحمد اسمه ، أهدى به بعد ضلالة ، وأعلم به بعد جهالة ، وأرفع به بعـد الخمالة ، وأســـمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

« وقد أخبر — عليه الســلام — عن صــفته فى التوراة فقال وهو الصادق الأمين : عبدى أحمد المختار مولده مكة ومهاجره بالمدينة — أو قال طيبة — وأمته الحمادون الله على كل حال » .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء « نبـــوة محمد موجودة فى التوراة رغم ما اعتورها من التحريف والتشذيب ، وهأنذا أسوق تلك المواضع من التوراة تعجيــلا للفائدة ، ففى الآية العشرين من

الاصحاح السابع عشر — تكوين — « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا » ولفظ العبارة الأخيرة فى العبرية [هنى ببرختى أوتو وهفريتى أوتو وهربيتى أوتو بماد ماد] بامالة فى بماد ماد انى واو .

« ومن عادة العبرانيين الاعتماد فى الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب ، فلو حسبنا لفظ بماد ماد بالجمل لكانت جمل « محمد » بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ ، وهو من أبناء اسماعيل الموعود بالبركة والاثمار فى أبنائه » .

وأضاف الشيخ النجار فى هامش الصفحة ما يلى : « ثانيا فى الآية ١٥ من الاصحاح ١٨ من سفر التثنية قول موسى لبنى اسرائيل : ١٥ — يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك ، مثلى له تسمعون — ١٦ — حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب الهى ولا أرى هذه النار العظيمة لئلا أموت — ١٧ — قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — ١٨ — أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيتكلم بكل ما أوصيه ..

« فقوله من اخوتهم وقوله من وسط اخوتهم تدل على أن الموعود به لا يكون من بنى اسرائيل بل من اخوتهم ، وأخوتهم بنو اسماعيل كما تدل على ذلك الآية ١٨ من الاصحاح ٢٥ تكوين : وسكنوا أى أبناء اسماعيل من حويلة الى شور التى أمام مصر ، حينما تجىء نحو أشور أمام جميع اخوته نزل ، وحويلة هى بلاد خولان على تخوم اليمن مما يلى الحجاز ، ولا مقابل لأبناء اسماعيل فى جهة شور سوى بنى اسرائيل ، وفى الآية ١٢ من اصحاح ١٦ تكوين « أمام اخوته تسكن . وقوله : أجعل كلامى فى فمه تدل على أنه يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تقم نبى أمى سوى محمد منذ خلق الله الدنيا .

« ثالثا : الآية الثالثة من الاصحاح ٣٨ تثنية : جاء الرب من سينا وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس وعن

بمدينه نار شريعة لهم . مجبل فاران بمكه ، وهى البلاد التى سكنها اسماعيل » (١) قصص الأنبياء ص ٢٩٣ .

وفى الانجيل ايضا : وكما بشرت التوراة بالنبى صلى الله عليه وسلم بشر الانجيل كذلك ، وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك فى سورة الصف حيث قال : **« واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد »** — ٦ — .

وقد وردت هذه الآية فى الأناجيل على لسان المسيح عليه السلام « سيأتى بعدى من لست أهلا لأن أحل سيور حذائه » وأن كانوا قد حرفوا هذا القول بأن نسبوه الى يوحنا قاصدا المسيح . قال الشيخ محمد الخضرى فى كتاب نور اليقين « لقد وصف المسيح هذا « الفار قليط » بأوصاف لا تنطبق الا على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : انه يوبخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع — وهذا ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة النجم **« وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى »** ٣ ، ٤

أما انجيل برنابا الذى يحمل عليه المسيحيون حملة شعواء لأنه لم يجر فى تيار التحريف كثيرا كغيره من الأناجيل فقد ذكر اسم النبى صلى الله عليه وسلم صراحة . فكلمة « الفار قليط » تعنى النبى المرسل — على حد تعبير يوحنا — حيث حكى عن المسيح عليه السلام قوله « ان كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، فأنا أطلب من الأب فيعطيكم « فار قليطا » ليمكث معكم الى الأبد روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ومنكم » .

---

(١) يضاف الى هذه النصوص ما جاء فى سفر اشعيا : ان البرية ترفع صوتها بذكره وهى الديار التى يسكنها قيدرا — وقيدرا أحد أجداد النبى فى سلسلة النسب بينه وبين اسماعيل . وجاء أيضا : ان علامة سلطانه على كتفه بقدر بيضة الحمام . وفى صحيح مسلم حديث عن هذه العلامة ، وفى المزامير ملوك اليمن تأتيه بالقرابين ، وأنه يبارك عليه كل يوم ، وأنه متقلد سيفا ، وكل هذه الأوصاف تنطبق عليه .

ومعنى مكثه الى الأبد بقاء تعاليمه التى تضمنها القرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه من التغيير والتبديل ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)) الحجر ٩ .

وجاء فى سيرة ابن هشام : قال ابن اسحاق : وقد كان فيما بلغنى عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه الله فى الانجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت يحنس الحوارى لهم حين نسخ لهم الانجيل عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام فى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم أنه قال : من أبغضنى فقد أبغض الرب ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزوننى ، وأيضا للرب ، ولكن لابد أن تتم الكلمة التى فى الناموس أنهم أبغضونى مجانا أى باطلا ، فلو قد جاء ((المنحمنا)) هذا الذى يرسله الله اليكم ، من عند الرب وروح القدس ، هذا الذى من عند الرب خرج فهو شهيد على وأنتم أيضا ، لأنكم قديما كنتم معى فى هذا قلت لكم لكيما لا تشكوا)) .

والمنحمنا بالسريانية محمد ، وهو بالرومية البرقليطس صلى الله عليه وسلم . ج ١ ص ٢١٥ .

وفى قصص الأنبياء : كان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ النبى وبلفظ ((مسيا)) وبلفظ ((فارقليط)) وهو تعريب لفظ ((بير يكلتوس)) اليونانية ، ومعناها الذى له حمد كثير ، كما عبر عنه بعض الكتاب بلفظ ايلياء ، واليهود يظنون أن ايلياء يأتى اليهم ، ولكن اذا عرفوا أن ايلياء جملتها ٥٣ كجمل لفظ أحمد زال الاشكال ، وكان يعبر عن الشريعة الآتية بلفظ ملكوت السموات . ولقد سأل مؤلف الكتاب الشيخ النجار الدكتور ((كارلونلينو)) المستشرق الايطالى عن ترجمة كلمة ((بيريكلتوس)) فأجابه بقوله : ان القسس يقولون : ان هذه الكلمة معناها ((المعزى)) فقال له : انى أسأل الدكتور كارلونلينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا ، فقال : ان معناها الذى له حمد كثير ، فقال هل ذلك

يراني افعل التفضل من جديد ؟ فقال نعم (١) . قصص الأنبياء ص ٣٩٧ .

وشهادة سلمان : وفى قصة اسلام سلمان الفارسى دلائل تشير الى معرفة الرهبان والأساقفة لنبى آخر الزمان عليه الصلاة والسلام . فقد قال سلمان على لسان أسقف عمورية وقد حضرته الوفاة وكان سلمان قد لزمه آملا أن يهديه الى الحقيقة : يا بنى ما أعرف أحدا على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبى يبعث بدين ابراهيم حنيفا يهاجر الى أرض ذات نخل بين حرتين ، فان استطعت أن تخلص اليه فافعل ، وان له آيات لا تخفى ، فهو لا يأكل الصدقة ويقبل الهدية وان بين كتفيه خاتم النبوة اذا رأيته عرفته .

المتحنفون : وفى قصص المتحنفين الذين كانوا يبحثون عن الحق فى الجاهلية شواهد مماثلة تدل على توقع ظهور نبى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . ويطهر الدنيا من ذلك الرجس الذى تردت فيه ، ويكشف الظلام الذى أحاط بالناس فلم يعودوا يستطيعون ان يفرقوا بين الحق والباطل . قال ابن اسحاق : اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجل ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء

---

(١) أخبر انجيل متى بأن الهداية تنزع من بنى اسرائيل وتعطى لأمة أخرى . وأخبر انجيل يوحنا « ان لى أمور كثيرة أيضا لا أقول لكم ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا وأما متى جاء ذاك — روح الحق — فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم ويخبركم بأمور آتية . كما أخبر أيضا بأن القبلة ستتحول من بيت المقدس » أما انجيل برنابا فقد جاء فيه : فلما كان الناس قد دعونى الله وابن الله على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب قليلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا الى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله — الباب ٢٢٠ .

لقد أخطأوا دين آبائهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم .

فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

وزيد بن نفيل هو ابن عم عمر بن الخطاب ، وقد سأل عمر وسعيد ابن زيد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالا : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم فانه يبعث أمة وحده .

وأخرج البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين الحق ، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال : لعلى أن أدين بدينكم ، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله ، فقال زيد : ما أفر الا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا وأنا أستطيعه ،

فهل تدلنى على غيره ؟ فقال : ما أعلمه الا أن تكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله .

فخرج زيد فلقى عالما من علماء النصارى فذكر له مثل ذلك فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبا من لعنة الله ، قال : ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله شيئا أبدا وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على غيره ؟ فقال : لا أعلمه الا أن تكون حنيفا ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم فلم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله ، فلما رأى زيد قوله فى ابراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم انى أشهدك أنى على دين ابراهيم .

وهناك غير هؤلاء كقس بن ساعدة الايادى الذى كان لا يفتأ يذكر الناس بالبعث والحساب ، ويرعى انظارهم الى عبادة اله قادر كأن يقول : البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير ، وهذه أرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا تدل على اللطيف الخبير ؟ وكأن يقول : يقسم قس بالله قسما لا اثم فيه ان لله دينا هو أرضى له من دينكم الذى أنتم عليه .

وكان أمية بن أبى الصلت شاعرا وكان يطمع فى النبوة ، وله شعر جيد يدعو فيه الى الايمان ويذكر بالبعث ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كفر به ، وقال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : انه رجل آمن شعره وكفر قلبه ، ويقال : انه هو الذى نزل فيه قوله تعالى : ((**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين — ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**)) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

وهناك غير هؤلاء مما يشهد بأن من الجاهليين أنفسهم من هالهم الكفر الذى غطى وجه الأرض وطمس على أعين الناس فالتمس العقلاء الحق وبحثوا عنه ، وكانوا يرونه فى نبى لابد أن يظهر فى هذا الزمان وقد آن أوانه .

لابد أن يظهر هذا النبى تحقيقا لدعوة ابراهيم عليه السلام الذى هتف من أعماقه ذات يوم قائلا وهو يرفع القواعد من البيت : ((**ربنا وابعث فيهم رســـولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمـــة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم**)) البقرة : ١٣٩ .

واستجاب الله دعوة ابراهيم وأرســـل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكان هذا الرسول هو سيدنا محمد ـــ صلوات الله وتسليماته عليه ـــ الذى كان يقول : ((**انا دعوة أبى ابراهيم ونبوءة عيسى وبشارة عيسى**)) .

طفـــولة مبشرة

من كان يظن أن هذا الطفل الذى استقبلته الأسرة الهاشمية العريقة عام الفيل ، فى الثانى عشر من ربيع الأول قبل الهجره بثلاثة وخمسين عاما ، سيكون سيد هذا العالم ومخلصه الى الأبد من معاناته القاسية ؟!.

من كان يدرك أن هذا اليتيم الذى مات أبوه قبـــل أن يولد وماتت أمه بعد مولده بخمس سنين هو ذلك النبى المنتظر الذى سوف يرسله الله بالهدى والبينات ليخرج الناس من الظلمات الى النور ؟!.

من كان يتوقع أن هذا المولود الذى وضعته آمنة بنت وهب فى فجر يوم الاثنين المبـــارك هو ذلك الرســـول الذى بشرت به الكتب السابقـــة وأخبرت به النبوءات المتعددة وتطلعت اليه الأرواح وتعطشت اليه الأفئده ، وأنه هو صاحب الشأن المشـــهود واللواء المعقود وهو يوم القيامة صاحب الشفاعة والسجود والحوض المورود ؟!.

أرهاصات وخوارق :

لقـــد صاحب مولد المصطفى — صلى الله عليـــه وسلم — وسبقته أرهاصات متعددة تنبىء بأن هناك شيئا ذا بال سوف يحدث ، وما كان أحد من أهل قريش أو غيرهم يدرك أن يتيم بنى عبد المطلب هو المعنى بهـــذه الارهاصات .

وكان فى مقدمة هذه الارهاصات هـــلاك أصحاب الفيل الذين جاءوا من اليمن بقيادة أبرهة الحبشى الذى كان يحملها لهدم الكعبة التى يحج اليها العرب ولا يحجون الى كنيسته التى شيدها فى صنعاء ليصرف بهـــا الناس عن الكعبة ، ولكن بعض العرب غاظه بسخريته منهـــا حتى جعله يقسم على هدم الكعبة . وفى ذلك العام الذى هلك أصحاب الفيـــل كانت ولادة النبى — صلى الله عليه وسلم — ونزل فى شأن هـــذا الحادث وهو هلاك أصحاب الفيـــل قوله تعالى : ((**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيـــل — ألم يجعل كيدهم فى تضليل — وأرسل عليهم طيرا أبابيل — ترميهم بحجارة من سجيل — فجعلهم كعصف مأكول**)) سورة الفيل .

فلقد أراد الله سبحانه وتعالى بهـلاك هؤلاء الحفاظ على بيته الذى جعله الله مثابة للنـاس وأمنا ، والذى أمر الله خليله ابراهيم برفع قواعده ومعه ابنه اسماعيل الجد الأعلى لهذا النبى المنتظر ، كما أراد التنبيه على علو شأن هذا المولود الذى سيولد فى هـذا العام (١) وما سيكون لرسالته من تعظيم لأمر هذا البيت وتطهيره من الشرك والأوثان .

ويبدو أن هناك شيئا ما قد حدث جعـل اليهود يدركون ساعة مولد الرسول الخاتم ، فقد حدث ابن اسحاق عن حسان بن ثابت قائلا : والله انى لغلام يفعـة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت ، اذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صـوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهـود ، حتى اذا اجتمعوا اليه ، قالوا له : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليـلة نجم أحمـد الذى ولد به .

ولقـد أحست أمه السيدة ابنة وهب بأن حملهـا سيكون ذا شأن عظيم ، فقد كانت تحدث : أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : انك قد حملت بسيد هـذه الأمة ، فاذا وقع الى الأرض فقولى : أعيذه بالواحـد من شر كل حاسد ، ثم سميه محمـدا ، ورأته حين حملت بأنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

ويحدث بعض الرواة أنه صاحبت ولادته خوارق منها تنكيس الأصنام وسقوط شرفات من قصر كسرى ، وانطفاء النـار التى يعبدها المجوس ، ورجم الشياطين التى تسترق السمع بالشهب .

وليس ببعيد أن يحدث ذلك ولا يجافى المنطق ، فالاحتفال بقدوم العظماء لابد وأن يتناسب وعظمتهم ، والمحتفلة هنـا السماء فلتقـدم للمحتفى به ما يناسبها ويناسبه ، وهذه الآيات ان تكن حدثت ففيها اشارة الى جلال

---

(١) يوافق هذا العام بالتاريخ الميلادى ٥٧١ م. — كما حققه الشيخ محمد الخضرى ، وذكر أن يوم الميـلاد هو التاسـع من ربيع الأول وهو يوافق ٢٠ من أبريل عام ٥٧١ م ، ولكن المشهور أن الولادة كانت فى الثانى عشر من ربيع الأول .

ذلك القادم الذى سيحطم الأصـــنام ويبدد الأوهام ويدعو الى دين الحق والهدى الذى يرفع من قدر الانسان وقيمته بما فيه من مبادىء سامية خالية من الشرك والضلال والخرافات .

ومن التوافقات العجيبة أن تكون قابلته هى الشـــفاء أم عبد الرحمن ابن عوف ، ومرضعته حليمة السعدية ، وحاضنته أم أيمن ، أما أمه فهى آمنة بنت وهب . فانظر الى هذه الأسماء التى تجمع بين الشـــفاء والحلم والسعد واليمن والأمن والهبة مما يدعو الى التفاؤل بمقـــدم هـــذا المولود السعيد ويبعث الاطمئنان بمولده المبارك .

فاذا أضيف الى هذه الأسماء ذوات المدلولات الطيبة اسمه الشريف « محمد » الذى سمى به دل ذلك على معنى غريب موفق ، ليس هو من قبيل المصادفات ، بل هو من قبيل الاجتباء الالهى والتكريم الربانى الذى أعده الله لرسوله ومصطفاه .

ولم تقتصر أسماء النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاسم الذى لم تكن العرب تسمى به قبل ذلك « محمـــد » ولكن الله سماه بأسماء أخرى يرويها البخارى عن الزهرى عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم : « ان لى أسماء ، أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر النـــاس على قـــدمى وأنا العاقب الذى ليس بعـــدى نبى » .

ولا يشك أحد فى قوة العلاقة بين صفات النبى صلى الله عليه وسلم واسمه ، فالاسم يدل على المسمى ، وكثيرا ما تصدق هذه العبارة — كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى مقال له — هى لازمة الصـــدق فى صاحب المقام المحمود الذى أجمع العرب على حمده قبل بعثته ، وأجمع العالم كله على حمده بعد بعثته ، فلن تجد فى كتابة أعداء المسلمين أنفسهم من يستطيع أن يصف أخلاق النبى — صلى الله عليه وسلم — بغير ما فيها من الحمـــد أو أن سلوكه لا يستقيم مع منهج الحمـــد ، الا من طمس على قلبه منهم ، وقد يوجه الغرباء عن الاسلام النقد الى النبى صلى الله عليه وسلم جهـــلا

أو حســـدا أو تعصـــبا ، والى ما جاء به ، ولكنهم لا يجرءون على وصفه بغير ما فطره الله عليه من محامد الصفات ومحاسن الأخلاق .

لقد ازدهت الدنيـــا بيوم مولده وطلعت الشمس باشراقة جــديدة لم تشرقها من قبل ، وأقبل الدهر على الدنيا بأســـعد أيامه وأجمـــل لياليه التى قال فيها البوصيرى رضى الله عنه :

ليـــلة المـــولد الذى كان للدين سرور بيومه وازدهـــاء

يوم نالت بوضـــعه ابنـــــة وهب

من فخـــار ما لم تنـــله النســـاء

وأتت قومهـــا بأفضـــــل ممـــا

حملت قبـــــل مـــريم العـــذراء

مـــولد كان منـــه فى طـــالع الـــكفر وبال عليهم ووباء

وتوالت بشرى الهـــــواتف أن قـــد

ولد المصـــطفى وحق الهنـــــاء

وقد اقتضت ارادة الله أن يتوفى والده « عبـــد الله بن عبـــد المطلب ابن هاشم » وهو جنين فى بطن أمه منذ شهرين ، وتتوفى والدته بعد ولادته بخمس سنين ، ويتوفى جده بعد ذلك بقليل ....

لقد اختار الله لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ـــ كما يقول الدكتور محمد سعيد البوطى ـــ فى كتابه فقـــه السيرة ، منهـــا الا يكون للمبطلين سبيل الى ادخال الريبة فى القلوب ، أو ايهام الناس بأن محمدا صلى الله عليـــه وسلم انما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بهـــا منذ صباه بارشاد وتوجيه من أبيه أو جـــده .

لقد أراد الله أن يتولى رعاية نبيه بنفسه حتى يكون فريدا بهذا الشرف بين الخلق أجمعين وعنـــد ذلك يحق له أن يقـــول : **« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »**.

فى بادية بنى ســـعد :

وحين ولد استرضعته السيدة حليمة السعدية ، وكانت تقيم فى بادية بنى سعد ، وقد صحب حياتهـــا من البركة والخصب والخـــير شىء كثير

بعد اصطحابها هذا الطفل اليتيم ورجوعها به من مكة ، وكانت صواحبها من المرضعات قد زهدن فيه لبتمه ، ولكن حظها الوافر وجدها السعيد هو الذى ادخره لها ، وقد ظهر أثر هذه البركة سريعا فى دابتها التى كانت تحملها ، فقد ظهر عليها النشاط والجد والاسراع فى أوبتها ، وكانت فى أثناء قدومها واهنة ضعيفة كليلة من الهزال .

وحين حطت رحالها فى بادية بنى سعد اذ بها تمرع وتخصب وتجود بالخير مما جعل أسرة حليمة تستبشر بهذا الطفل الذى صدت عنه المرضعات ، واعتبرته الأسرة قدم سعد وبركة وتمسكت به تمسكا شديدا ، قالت حليمة — فيما يرويه ابن هشام — : فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل على ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة . قالت : فقلت والله انى لأرجو ذلك .

قالت حليمة : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حميرهم حتى ان صواحبى ليقلن لى : يابنة أبى ذؤيب ويحك ، اربعى علينا أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى ، فيقلن : والله ان لها لشأنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتاه حتى كان غلاما جفرا .

ومن أجل هذه البركة التى استشعرتها حليمة حرصت على أن يظل هذا الطفل عندها وقتا أطول ، فعادت الى مكة تحاول مع أمه أن تتركه لها

خوفا عليـــه من وباء مكة ، وما زالت نرغبهـــا فى بقائه عنـــدها حتى قبلت وعادت به الى بادية بنى سعد مرة أخرى . أليس ذلك شيئا يدعو الى العجب وفى الوقت نفسه يبشر بالخـــير ؟.

معجزات حســـية :

لقد اختص الله هـــذه الأسرة بكل ما أشارت اليـــه حليمة فى عبارتها من خير وبركة ، فى الوقت الذى كانت الأسر الأخرى تشكو الجفاف والجدب ، تكريما لهـــذا الطفل الذى تلحظه العناية الإلهية ، وهذا أمر يدخل فى نطاق الخوارق التى ينكرها قوم فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اعتمادا على أن المعجزة الوحيدة له هى القرآن الكريم وهى وحدها كافية لاثبات نبوته وفيها الغنـــاء لذلك .

ولكن لماذا لا يكون للرسول صلى الله عليـــه وسلم معجزات أخرى غير القرآن الكريم ؟ معجزات مادية يظهر أثرها فيما يحيط به من حيـــاة ، فى الوقت الذى ثبت ان غيره من الأنبياء كانت لهم خوارقهم التى لا ينكرها أحد . وهل معنى أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى معجزة القرآن الباقية الخالدة الا تكون له معجزات أخـــرى تستدعيهـــا الظروف والمناســـبات ، أو لا تكون على يديه خوارق تستلفت النظر وتنبـــه الى كرامته عنـــد الله وقربه منـــه ؟.

لا يقـــدح فى منزلة النبى صلى الله عليـــه وسلم وسمو رسالته وقوة عبقريته وجلال القرآن الذى أوحى اليه تلك الخوارق التى حدثت من تسبيح الحصى فى يديه وتسليم الأشجار عليه ونبع الماء من بين أصابعه واظـــلال الغمامة له وذلك الامراع والخصب الذى رأيناه يحل فى بيت هـــذه الأسرة السعدية الســـعيدة التى شرفت بارضاعه . لا يقـــدح ذلك فى منزلة النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه يضيف اليه معنى آخر هو ملاحظة العناية له ومصاحبة الله اياه فى خطواته حتى يؤلف حوله القلوب ويجمع له الشواهد المصدقة بكماله وعظمته وسموه .

وقد قدمت بذلك بين يدى حادثة مهمـــة لابد وأن تسترعى الاهتمام

والانتباه لغرابتها ، هـذه الحادثة هي شق صـدره الشريف وهو في بادية بني سـعد .

فقد روى أنس رضى الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه . وجاء الغلمان يسعون الى أمه — يعنى مرضعته — ان محمـدا قد قتـل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون قد تغـير واصـفر » .

ولقد كانت هذه الحادثة سببا في اسراع حليمة برد محمد صلى الله عليه وسلم الى والدته ، وقد استغربت آمنة رجوع حليمة سريعا بابنها وقد كانت حريصة على استبقائه عندها مما جعلها تلح عليهـا أن تبين لهـا حقيقة ما حـدث .

وحاولت حليمة أن توغز سبب ارجاع الطفـل الى أنها ادت مهمتها وأنها تخاف عليه الأحداث ولكن آمنة لم تقتنع بذلك ، فما زالت بهـا حتى أخبرتها بقصة شق صدر ابنها . فقالت آمنة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت حليمة : نعم ، قالت آمنـة : كلا والله ما للشيطان عليـه من سبيل وان لبنى هذا شأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضـاء قصـور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمـل قط كان أخف ولا أيسر منـه ، ووقع حين ولدته وانه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه الى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشـدة .

ان حادثة شق الصدر هذه أمر خارق للعادة ومهما حاول بعض المفكرين تعليلها بعلل عقلية فهى أمر حسى ثابت ولكنه يشـير إلى معانى عظيمة ، فهى من ارهاصات النبوة المدخرة له حتى ينشأ هذا الطفل متفرغا لما أعده الله له ، وليعلم الجميع أن هذا الطفل ليس كغيره من الأطفال وانما هو محل رعاية الله وعنايته فهذا أدعى بأن يكون ملء أسـماع الناس وأبصارهم ، حتى اذا ما أوحى الله اليه بعد ذلك تكون النفوس الخيرة مطمئنة لما يخبر به .

ولقد اخبر النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه عن هذه الحادثة حينما سئل عنها فقال : استرضعت فى بنى سـعد بن بكر ، فبينما انا مع أخ لى خلف بيوتنـا نرعى بهما لنا اذا أتانى رجـلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا ، ثم أخذانى فشـقا بطنى واستخرجا قلبى فشـقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبـه : زنه بعشرة من أمتـه فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمتـه فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنهـا .

نشأة طيبة :

وعلى الرغم من صغر سنه — كما نعرض لنا سـيرته المطهرة — لم يسلم نفسه للدعة والركود ، ولكنه كان يشغل نفسـه بأمور نافعة نترك اثرها الطيب فى السلوك والتوجيه ، كان يرعى الغنم ، ورعى الغنم يعـلم النابه كيف يزن الأمور ويفرق بين الحقّ والباطل ، ولتلك الحكمة وجه الله كافة الأنبياء لذلك حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما من نبى الا وقد رعى الغنم . قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا .

وقد رعاها فى بادية بنى سعد ، كما رعاها فى مكة أيضا ، كان يرعاها على قراريط كما أخبر البخارى بذلك فى صحيحه .

ولقد ظهرت مخـايل النجـابة على هذا الطفل منذ نعومة أظفاره ، ولا شك أن هذه المخايل كانت تبشر بالخير ، وتشير الى أنه سوف يكون له حظ موفور من الكرامة فى مستقبل الأيام . هكذا كان ينظر اليه أهل قريش ، أما غيرهم من أهل الكتاب فقد كان لهم رأى آخر ، انهم فطنوا فيه — على رغم صغر سنه — الى أنه نبى آخر الزمان . قال ابن اسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه — مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه — أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ؛ فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره ، فزعم الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت به منهم ..

واصبح محمد — صلى الله عليه وسلم — منذ عودته الى امه بعد أن أسلمته حليمة السعدية وسنه خمس سنين وشهر فى حضانة أمه وكفالة جده عبد المطلب الذى أحبه منذ ولادته حبا شديدا ، ورق له رقة بالغة لم يعهدها أحد فيه قبل ذلك بالنسبة لولده ، كان يتوسم فيه النجاح والعظمة ويدرك أن له شأنا كبيرا فى المستقبل ، ولعله الى جانب ذلك كان يرى فيه صوره ولده الحبيب عبد الله الذى مات فى ديار بنى النجار بالمدينة .

يتم جديد :

كان الله ينبت نبيه نباتا حسنا لما يريد به كرامته ، وحين بلغ من العمر سنوات اصطحبته أمه فى زياره للمدينة عند أخواله من بنى عدى بن النجار ، وحين رجوعها الى مكة توفيت بالأبواء — مكان بين مكة والمدينة — .

وعاد الطفل مع حاضنته أم أيمن حزينا الى مكة ، فازدادت له رقة جده عبد المطلب ، وقربه اليه حتى كاد لا يفارقه لشدة حبه اياه .

حدث ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليهم ، لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له ، قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

ولكن ذلك الحدب لم يدم طويلا ، فسرعان ما لبى عبد المطلب نداء ربه ، ولمحمد حينذاك ثمانى سنوات ، وقد أوصى عبد المطلب ابنه أبا طالب بمحمد خيرا ، ولم يكن أ بو طالب فى حاجة الى هذه الوصاة ؛ فان حبه لمحمد يغنيه عن ذلك ، وقد ضمه أبو طالب اليه وكان عليه شفيقا وله رحيما وبه رءوفا ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يطلق عليه يتيم أبى طالب ..

وما أقسى ما تعرض له هذا الطفل من ألوان الحزن ، ولكن الحزن

العظيم هو الذى يصنع الانســــان العظيم ، لقد أراد الله أن يضرب المثل الكامل فى أن العناية الالهية هى التى تكفل التربية الصالحة للابن اذا كانت ارادة الله قد قضت بانحرافه ، والواقع شاهد بذلك ، فكم من منحرف له أبوان يدللانه ، أما هذا اليتيم فقــد تولته عناية الله لتخرج منه الجوهــرة الفريدة فى هذا العالم ولتجعل منه الدرة اليتيمة التى لا تتكرر .

فى بيت عمــه :

وكان فى بيت أبى طالب مثالا كاملا للقناعة والكمال الخلقى ، والبعد — كما يقول الشيخ محمد الخضرى فى كتابه نور اليقين — عن السفاســف التى تشتغل بها الأطفال عادة ، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته ، فكان اذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له وألهمه الله أن يبدأ طعامه بالحمد لله ، ولم تسمع عنه كذبة ولم ير له ضحك ومزاح على عادة الصبيان ، وما وقف مع الأطفال يلعبون ، ولا حدث منه أى شىء مما يحدث من أهل الجاهلية .

ولا شك أن هذه الأخلاق الخاصــة تلفت نظر المتفرس ، حتى حدث عبد الله بن الزبير عن أبيه أن رجلا من لهب كان عائفا ، فكان اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر اليهم ويعتاف — يتفرس — لهم فيهم ، فأتى أبو طالب بمحمد وهو غلام مع من يأتيه فنظر اللهبى الى رسول الله صــلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شىء ، فلما فرغ قال : الغلام على به ، فلمــا رأى أبو طالب حرصــه عليــه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفــا فوالله ليكونن له شــأن ، ولكن أبا طالب كان قد انطلق به .

والفراســــة غير الرجم بالغيب ، قال تعــــالى **((ان فى ذلك لآيات للمتوسمين))** الحجر ٧٥ — قال بعض العلماء : أى المتفكرين المتفرســين الذين يعرفون حقيقة الشىء بسمته وعلامته .

لقد ربى الله سبحانه وتعالى رســـوله على عينه بعد أن اصطنعه لنفسه ، ولقد شاء الله له أن يكون يتيما حتى يظل فى كنف الله وحده ورعايته

بعيدا عن تأثير الأب والأم والجد وهم الذين يكون لهم غالبا السيطرة على النشء والتأثير فى النابتة ، وبخاصة فى سن القابلية للتأثر والتلقى ، ولقد انزل الله — فى معرض المنة على رسوله والتأسية له حتى لا يجزع مما يلقاه من أذى القرشيين له بعد الرسالة — قوله تعالى ((**ألم يجدك يتيما فآوى**)) حقا ، لقد آواه الله فأحسن ايواءه وألهمه من حسن الأدب ودلائل التوفيق ما جعله محل الاعجاب وموضع الحب والتقدير .

مثل يحتذى فى التربية :

وفى أحسن أخلاق نبينا صلى الله عليه وسلم صغرا مثل يهيب بنا أن نضع برامج التربية لأطفالنا حتى ينشئوا على مثل كاملة من الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة الكريمة ، ولقد عرف النبى صلى الله عليه وسلم هذه المنة التى أكرمه الله بها حيث آواه ورباه ، فكان يحدث عن ذلك شكرا لله على رعايته وحفظه ويقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وأنعم بحفظ الله وتأديبه .

ومما حدث به فى ذلك وذكره ابن هشام فى سيرته قوله « لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ ازاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فانى لأقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك ازارك قال : فأخذته وشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى على من بين أصحابى .

وقد وردت هذه الرواية فى الحديث الصحيح فى قصة بناء الكعبة : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع قومه اليها ، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها على عاتقه وازاره مشدود به ، فقال له العباس رضى الله عنه : يابن أخى لو جعلت ازارك على عاتقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال : ازارى ازارى فشد عليه ازاره وقام يحمل الحجارة ، وفى حديث آخر : انه لما سقط ضمه العباس الى نفسه وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودى من السماء أن اشدد عليك ازارك يا محمد ، قال : وانه لأول ما نودى ..

فهذه الروايات تدل على ملاحظة العناية له ، وأنه كان يوجسه أولا بأول الى ما ينبغى أن يفعله ، فلم يترك منذ صـــغره أن يفعل الا ما يليق بالكبار والا ما يتفق مع الحياء وآداب الاسلام التى ستتقرر بعد .

ومما يجدر روايته فى هذا القبيل ما يرويه ابن الأثير عن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينــه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة للغـــلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى اذا كنت عند أول دار بمكة ســمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى الا حرارة الشمس ، فعدت الى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصــابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بســـوء » .

فهذه الرواية أيضا تدل على أن الله قد لحظ صفيه بعين التوجيـــه السديد حتى لا يحدث منه ما يحدث من لداته عادة ، وهذه هى تربيـــة النبوة التي ورد مثلها مع أبيه ابراهيم عليه السلام الذى قال الله فى حقه : « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** » الأنبياء ٥١ .

وورد مثلها مع موسى عليــه الســـلام الذى خاطبه ربه بقـــوله « **واصطنعتك لنفسى** » طه ٤١ .

لقد كان جو مكة مهيئا لأن ينساق الجميع فى تياره ، والفســاد الذى كان يضرب برواقه على مجتمعها لم يستطع أن ينكره سوى عدد قليــل من العقلاء لا يجاوز أصابع اليد ، أما أن يستنكره ناشىء صغير فذلك من فلتات القدر ، أو قل من توجيهات السماء التى لا تريد أن تترك ذلك الذى أعــده الله لمهمته الكبرى لتصرفات المجتمع الحمقاء .

بحـيرى يعــرفه :

وحين بلغت سنه اثنتى عشرة سنة عزم عمه أبو طالب أن يســافر الى الشام فى تجارة له ، وما كان الصــبى قد تعود أن يفارقه عمه فى غيبة

طويلة ، فطلب منه أن يسافر معه وغلبت عمه الرقة له فاصطحبه ، وقال أبو طالب فيما يرويه ابن اسحاق : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا افارقه أبدا فخرج به معه .

ويتم ابن هشام القصة قائلا : فلما نزل الركب ببصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له ، وكان له علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط — زمن — راهب اليه يصير علمهم عن كتاب فيها — فيما يزعمون — يتوارثونه كابرا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك — فيما يزعمون — عن شىء رآه وهو فى صومعته . يزعمون انه راى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب حين اقبلوا وغمامة تظله بين القوم . ثم اقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبة منه فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت اغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما راى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل اليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى ان لك لشأنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم ؟ قال بحيرى : صدقت فقد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن اكرمكم واصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا اليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك احد ينبغى له أن يأتيك الا غلام وهو احدث القوم سنا فتخلف فى رحالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ان كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام اليه فاحتضنه فأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشـياء من جسـده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى ، فقال : يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما اسألك عنـه . وانما قال له بحيرى ذلك لأنه سـمع قومه يحلفون بهمـا . قال : لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضـت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سلنى عما بدا لك ، فجعل يسـأله عن أشياء من حاله ، من نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسـلم — يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صـفته ، ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منـك ؟ قال : ابنى ، قال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال : فانه ابن أخى ، قال : فما فعـل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت فارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيـك هذا شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده .

فخرج عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة ، وأضاف ابن هشـام ان نفرا من أهل الكتاب رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسـلم مثل ما رأى بحيرى فأرادوه ، فردهم بحيرى وذكرهم الله وما يجدون فى الـكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا اليه ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا .

وقد وردت هذه القصة فى مختلف كتب الصحيح وقد أخرجها الترمذى من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

أرأيت اذن هذه الطفولة العبقرية كانت محل توجيه الله سـبحانه وتعالى وأنها محط رعايته وعنايته ؟

ولم يترك الله جلت قدرته نبيه فى صغره وقد أفقده أباه وأمه وجـده نهبا للوساوس وعرضة للضياع وفريسة للأحزان فى بيئة ينفشى فيها الجهل والضلال والشرك ، ولكنه هداه سواء السبيل ، فنشأ على فطرة سـليمة وطريقة سوية فى السلوك الطيب والتصرف الحميد والخلق الفاضل .

لقد أبى على بحيرى أن يقسم باللات والعزى ، وأبى أن يستجيب لهذا القسم وهو ابن اثنى عشرة سنة فى سن مبكرة عن ذلك التفكير العالى فى أمر الخلق والخالق ، وفى هذا دليل على أن نموه العقلى لم يكن نموا عاديا ، ولكنه كان نموا فريدا فى ذاته ، تحوطه مقومات خاصـة من توجيه الله سبحانه وتعالى ، حتى استطاع أن يدرك وهو فى هذه السـن بطلان تلك الآلهة التى تعبد من دون الله ، وكان من تمام ذلك أن عصمه الله من السجود لهذه الأصنام كما يفعل سـواد الصبية الذين يقلدون ذويهم فى عباداتهم ، فاننا نرى أطفالنا منذ الثانية من أعمارهم يحاكون الكبار فى أعمال الصـلاه راكعين أو ساجدين . ثم بعد ذلك حين يكبرون قليلا يتعلقون بآبائهم وهم ذاهبون الى المساجد . ولكن الله — جلت حكمته — قد تعهد نبيه حتى قبل ولادته فكفل له الأرحام الطاهرة والأصـلاب الطيبة ، فما زال يتقلب من طاهر الى طاهر حتى كان فى صلب عبد الله ورحم آمنة ، ولعل هذا ما فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى ((**وتقلبك فى الساجدين**)) الشعراء ٢١٩ . ويصدقه قوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه مسلم ((ان الله اصـطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشـما من قريش واصطفانى من بنى هاشـم)) وزاد بعضـهم قوله عليه الصـلاه والسلام : فأنا خيار من خيار من خيار .

رجـــــولة مطهـــــرة

مع المهمات الكبار :

ما كان للنبى صلى الله عليه وسلم ــ وقد رزقه الله حياء شــــديداً ومروءة بالغة وذوقا رفيعا أن يظل عالة على غيره ، وبخاصـــة حين أدرك أن عمه أبا طالب رجل كثير العيال منقل بالتبعـــات الثقال ، فقد ورث عن أبيه مكانته وزعامته ومسئولياته ، فرأى النبى صلى الله عليه وســـلم أن يشارك فى أعباء هذه الأسرة ويتحمل نصيبه فى دخلها .

وقد رأينا كيف حدث عن نفسه قائلا « كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة » وهو العمل الذى يقوم به عادة صغار السن من أمثاله .

ورأينا أيضا كيف شارك عمه أبا طالب فى رحلته الى الشـــام متاجرا اذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، ما ذلك الا لرغبته فى أن يشـــعر عمه بأنه ليس عالة عليه وأنه بوسعه أن يقوم بعمل يفيد ويغنى .

وفى ذلك دلالة يشير اليها الدكتور محمد سعيد البوطى بقوله « فيهـــا الذوق الرفيع وفيها الاحســـــاس الرقيق اللذان جمل الله بهما نبيه محمدا صلى الله عليه وســـلم ، لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له فى الحنو والشفقة كالأب الشفيق ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما ان آنس من نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتســــب ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الانفاق عن عمه وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمـــه أبى طالب ، ولكنه على كل تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر وبذل للوســـع وشهامة فى الطبع وبر فى المعاملة » .

وان فى ذلك لمثلا كاملا لشبابنا وفتياننا الذين ينأون بأنفسهم عن العمل اعتمادا على آبائهم أو ثروانهم ويتركون أنفســـهم نهبة للبطالة والضياع ، ولا يحسنون استغلال أوقات الفراغ والعطلات الدراسية .

ان العمل مهما قلت قيمته أو ضعف دخله له أثر كبير فى تقويم الطباع

وتوجيه السلوك ، وبه يكتسب الانســـــان خبرته فى الحياة ويزداد ثقافة وعلما ، وقد قيل ان الانسان يكتسب بكفاحه وعمله ما لا يكتسب بدراسته وعلمه ، ولذلك كان فى الدراسات الميدانية فى بعض الكليات والمعاهد اهمية كبرى وعليها قسط كبير فى التقويم .

لقد علمنا المصطفى صلى الله عليه وســـــلم ألا نضيع أوقاتنا عبثا ، فالفراغ سيف قاطع وسهم قاتل ، وقد ورد فى الحـــكم : الوقت من ذهب ، وورد أيضا : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ، والاقبال على العمـــل يأتى بالتعويد والتوجيه ، فعلى الأسرة أن توجه أبناءها منذ صغرهم كيف يستفيدون من أوقات فراغهم بشغلها فيما يفيدهم فى حياتهم .

أما نحمد لكثير من شبابنا الذين يقبلون على العمل فى أوقات فراغهم واجازاتهم السنوية ، ولكننا نحب لهم أن يكون العمل الذى يقومون به منبثقا من روح الاسلام ومناسبا لتعاليمه ، فالاسلام لا يرضى لهم العمل مثلا فى دور اللهو والمجون ، فربما تكبد البعض مشاق السفر الى البلاد الأجنبية بحثا عن العمل وربما لا يجدونه الا فى مثل هذه الأماكن فيقبلون ، فى الوقت الذى يمكن لهم أن يقوموا فى وطنهم بأعمال ملائمة ولائقة ، قد تكون أقل أجرا فى المال ولكنها عند الله أعظم أجرا ، وفى موازين الأعمال افضل وأجدى للوطن الذى يفتقر الى كثير من الأيدى العاملة .

لقد كان الله قادرا على أن يكفل لنبيه الحياه الرغده والمعيشه الرافهة ولكنه أراد له أن يقاسى منذ صغره متاعب الكفاح ليكون قدوة لأمته أولا ، ولينمى فيه هذه الملكة ملكة تحمل المشاق والتبعات حتى يستطيع فى الوقت المناسب الاضطلاع بالمسئولية الكبرى وهى مسئولية النبوة والرســـالة ، وما أعظمها من نعمة وما أخطرها من مسئولية .

وكيف يكون النبى صلى الله عليه وسلم قدوة لأمته فى الاعتماد عـــلى النفس وفى اكتساب العيش بعرق الجبين ما لم يكن هو قد مارس ذلك عمليا منذ مطلع حياته ؟ اسمع اليه يوجه أصحابه فيما يرويه حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانى ثم سألته فأعطانى ، ثم قال : يا حكيم ، ان هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوه

نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك الله له فيــه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليــد السفلى . قال حكيم : فقلت يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزا أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيما ليعطيه العطــاء فيأبى أن يقبل منه شــــيئا ، ثم ان عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله ، فقال : يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليــه حقه الذى قسمه الله له فى هذا الفىء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم حتى توفى » .

فانظر الى هذا التوجيه الحكيم الذى لم يكن ليؤتى ثماره الا من موضع القدوة الطيبة الصالحة ولولا أن حكيما عرف أن نبيه الكريم نشـــأ عفيفا مكافحا مجاهدا ودرج على هذه الصفات المرضية التى أصبحت سجية فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لما تقبل هذه النصيحة بذلك الصــدر ارحب والروح العالى والتصميم القوى على الامتثال .

وبذلك أراد الله للمسلمين عن طريق الاقتداء برسولهم أن يكونوا كرماء على نفوسهم كرماء على الناس لا يمدون أيديهم بالسؤال ولا يكونون عالة على أحد مهما كان .

حـــرب الفجـــار :

ومن دلائل الرجولة المبكرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وســلم مشاركته فى حرب الفجار وقد كانت سنه اذ ذاك أربع عشرة سنة أو خمس عشره سنة فيما يرويه ابن هشام فى ســـيرته ، وكانت هذه الحرب بين قريش وكنانة من جهة وبين قيس عيلان من جهة أخرى ، وســـببها انتهاك قيس عيلان الأشهر الحرم واعتداؤهم فيها ، وكانت قريش تحترمها .

وكان احترام الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال مما تركه ابراهيم عليه السلام فى نفوس العرب الذين سعدوا طويلا بهذه الشـــعيرة التى أتاحت لهم الأمن والسلام فى هذه الشهور الأربعة التى يتحقق فيها النفــع بتحقق الاطمئنان فى السفر والانتقال من مكان الى مكان الا أن العرب ابتلوا بمن يستحل حرمة هذه الشهور فيعتدى فيها على الآمنين ، مما حدا بقريش

أن تجند نفسها للوقوف ضد هؤلاء المعتدين ، وقد دامت هذه الحرب التى سميت بحرب الفجار أربعة أعوام .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينبل على أعمامه فيها . جاء فى تعليق الأستاذ طه عبد الرءوف سعد على طبعة سيرة ابن هشام التى قام بالتقديم لها والتعليق عليها « ولم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه وكان ينبل عليهم — وقد بلغ سن القتال — لأنها كانت حرب فجار وكانوا أيضا كلهم كفارا ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل الا لتكون كلمة الله هى العليا » .

ونبله على أعمامه هو رد النبال عنهم اذا رماهم بها أعداؤهم . وظلت الحرب مشتعلة فترة حتى توسط عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فى انهائها وحقن الدماء فخمدت ، وقال العرب فى ذلك : لم يسد فى قريش مملق الا عتبة وأبو طالب فانهما سادا بغير مال .

فلم يتخل النبى صلى الله عليه وسلم عن واجبه ازاء أعمامه الذين اشتركوا فى هذه الحرب ، فهم سادة قريش ولهم زعامتها وعليهم واجب القيادة وتبعة الزعامة ، ولم يفض اشتراكه فيها من شأن تأهل للنبوة فيما بعد ، على اعتبار أن هذه الحرب حرب جاهلية ، فقد جاء القرآن الكريم مؤيدا لاحترام الأشهر الحرم ، وعلى ذلك فنصرفه موائم لتوجيهات الاسلام وتعاليمه ، قال تعالى ((**ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم**)) التوبة ٣٦ .

وكما شهد جانبا من هذه الحرب شهد كذلك حلف الفضول الذى قال فى حقه بعد أن شرفه الله بالرسالة « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت » ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية . وقد سبق الحديث عن هذا الحلف .

اشتغاله بالتجارة ومتاجرته لخديجة :

أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يكسب رزقه بيده كما سبق أن قلت ، وأخذ يكافح فى سبيل الرزق عن طريق التجارة ، والتجارة من أشرف الأعمال متى توفر فيها الصدق والأمانة . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الناجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » ولشرف التجارة ضربها الله مثلا للصادقين المجاهدين فقال جل من قائل **((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة))** التوبه ١١١ ، وقال : **((يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون))** الصف ١٠ ، ١١ . الى غير ذلك من الآيات . وقد من الله على قريش التى اشتهرت بالتجارة ومحمد صلى الله عليه وسلم من أبنائها بأن أمن لهم طرقهم التجارية حتى لا تتعرض تجارتهم للضياع والبوار ، قال تعالى : **((لايلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف))** قريش .

ودل الناس خديجة بنت خويلد على الصادق الأمين ليتاجر لها .

وكانت السيدة خديجة ذات شرف وجاه ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضارب بهم اياه ، فما أن سمعت عن أمانة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه حتى وكلت اليه أمر تجارتها ، فاصطحب فى مسيرته غلامها ميسرة ، واتجها الى الشام حيث باعا واشتريا وربحا ربحا وافرا لم تعهده خديجة من قبل . وفى الطريق رأى ميسرة من العجائب والخوارق التى ملأت قلبه اكبارا واعجابا بهذا الرفيق الطاهر المبارك .

من ذلك فيما يرويه ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب ، وحين رآه الراهب سأل عنه ميسرة قائلا : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبى ، ولعله رأى من العلامات التى سبق لبحيرى الراهب أن رآها ما جعله يجزم بما جزم به .

وحدث ميسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى سفره هذا قائلا : انه اذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما عاد ميسرة أخبر سيدته خديجة بما رأى وبما سمع من الراهب .

زواجه من خديجة :

وحين رأت خديجة أمانته وصدقه اللذين ظهرا فى تجارتها بما أضعفه لها من المال ، وكان غيره ممن سبق لها استئجارهم لا يوفون كما وفى ولا يصدقون كما صدق ولا يربحون كما ربح ، حين رأت كل ذلك رغبت فى أن تقترن به ، فهو نعم الحفيظ على زوجه الكريم العشرة الحسن المعاملة ، ورغبتها هذه تتفق مع ما عرفت به من حزم وبعد نظر وحسن عقل .

وقد أسرت برغبتها الى صديقتها نفيسة بنت منبه ، وذهبت نفيسة الى النبى صلى الله عليه وسلم تعرض عليه الزواج من خديجة ذات الحسب والنسب والشرف والمال ، والتى كان أشراف القوم يطمحون اليها ولكنها صرفت عنهم . الا أنها رأت فى محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تره فى غيره من الرجال الذين كانوا يتهافتون على خطبتها ، رأت فيه كرم النفس وعلو الهمة وطهارة الضمير ، رأت فيه طرازا آخر من الناس هو طراز الذين يصطفيهم الله ويطهرهم من أرجاس الحياة وأوضار المادة ..

لقد رأت ذلك منه وزكى ما رأته حديث ميسرة عنه .

ورحب النبى صلى الله عليه وسلم بما عرضته عليه نفيسة ، وخاطب أعمامه فى ذلك فوافقوا .

وذهب أبو طالب وحمزة الى عم خديجة عمرو بن أسد ، لأن أباها كان قد توفى ، وخطبا اليه ابنة أخيه لابن أخيهما « محمد بن عبد الله » وأصدقاها عشرين بكرة .

وخطب ابو طالب خطبة النكاح فقال : أما بعد ، فان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان

فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ..

كانت سن محمد اذ ذاك خمسا وعشرين سنة ، ولكنه على الرغم من ذلك فلم يكن خاطر الزواج يطيف براسه ، ولم تكن رغبة النساء تراوده ، فقد شغله الله عن ذلك كله بأمور عظيمة ذات بال ، ملأ الله قلبه نورا وعقله تفكيرا فى خلق السموات والأرض ، حتى جاء أمر الزواج فى وقت قدره الله لما اراده لخديجة من كرامة ولما اراده الله لنبيه من أن يجد فى وقته الفراغ للتأمل والتبتل .

لقد اراد الله ان يحفظ نبيه قبل الزواج فجعل لرجولته الفذة سياجا من العفة والطهارة ، ومعالى الأمور ، وذلك هو الذى رفع من قدره فى أعين الناس ، وصنع له هالة من التقدير والاعجاب ، حتى لم يستطع أحدهم أن يملك القدرة على كراهيته ، بل كان تلقيبهم المفضل له : الصادق الأمين .

ولكن العجيب حقا هو أن يتحول هذا الحب الشديد والاعجاب الكبير بمحمد الى بغض من قساة القلوب له ، بعد أن أكرمه الله بالرسالة ، ولكن العجب يزول حين يعرف السبب وراء ذلك ، فقد اصطدمت مصالحهم المادية بما جاء به ، فهددت دعوته نفوذهم وحاولت أن تقضى على عصبيتهم وما يتوارثونه من عقائد وتقاليد .

ولقد تنبه لذلك واحد من المشركين أنفسهم ، من الذين كانوا يناصبونه العداء ، هو النضر بن الحارث من بنى عبد الدار وقد ظل على كفره حتى قتل يوم بدر بيد على بن أبى طالب ، وقال فى مؤتمر عقده زعماء قريش ليتوافقوا على رأى واحد يواجهون به وفود العرب حين يأتون الى الحج فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم بدلا من اختلافهم وتعدد آرائهم فقد كان بعضهم يقول عنه : انه كاهن ، وبعضهم يقول : انه شاعر ، وبعضهم يقول : انه ساحر ، الى غير ذلك . قال النضر : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ..

وقد كان الأولى بهذه الشهادة أن يكون صاحبها من المؤمنين ، ولكن عنجهية الجاهلية وكبر أهل الشرك حال بينه وبين ذلك للشقاء الأبدى الذى قضاه الله عليه .

ثناء على خديجة :

وبزواج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة بدأ مرحلة جديدة فى حياته ، مرحلة توشك أن تستقبل الوحى وتتهيأ للرسالة .

وسعد الزوجان بحياتهما ، ولعله مما يطالعنا به هذا الزواج أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يهدف من ورائه الى متعة جسدية ، بل كان يرمى الى الاستقرار أكثر من أى شىء آخر ، كان فى الخامسة والعشرين من عمره سن الشباب الغض ، وكانت خديجة فى الأربعين ، ولو كان يطمح الى المتعة لأصابها عند فتيات أصغر منها سنا كان محمد بشبابه وخلقه وحسبه أعظم مطمح لهن .

ورزق الله نبيه حب زوجه وكانت أهلا لذلك فهى العفيفة الطاهرة ، وقد أثنى النبى صلى الله عليه وسلم عليها فى حياتها وبعد وفاتها ، روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . وقال العلماء : ان الضمير الأول يعود الى الأرض والضمير الثانى يعود الى السماء .

وأثنى عليها الله جل وعلا ، ففى خبر ورد يقول : « أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة أتت معها اناء فيه ادام أو طعام أو شراب فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أنعم بهذه الزوجة الصالحة التى يقرأ عليها رب العالمين والروح الأمين السلام ، وأى امرأة نالت هذه المنزلة العظمى غير خديجة ؟ .

ورزق النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة أولاده كلهم ماعدا ابراهيم فانه من مارية القبطية . أما أولاده منها فهم — كما ورد فى ابن هشام —

القاسم والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، ويقول بعض المحققين : ان الطاهر والطيب لقبان للقاسم ، ويقول آخرون : انهما لقبان لولد آخر هو عبد الله .

وعلى هذه الرواية الأخيرة فأولاده الذكور عبد الله والقاسم وابراهيم ، والاناث هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضوان الله عليهم جميعا .

ويشاء الله أن يموت أولاده كلهم فى حياته ماعدا فاطمة التى ظلت بعده حوالى ستة أشهر ، وهى التى تزوجها ابن عمها على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد احتفظت هى بنسب المصطفى صلى الله عليه وسلم بأولادها .

ودام زواج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة فترة طويلة ، شهدت مرحلة البعث ودامت بعدها أكثر من عشر سنين ، وكان لخديجة مواقف مشهورة آزرت فيها النبى صلى الله عليه وسلم ووقفت بجانبه وهو يبلغ رسالة ربه ، وكانت أول من آمن به .

ولقد كانت تدرك قبل البعثة بأن زوجها سيكون نبى هذه الأمة ، عرفها بذلك ابن عمها ورقة بن نوفل ، فقد أخبرته بما رآه غلامها ميسرة فى أثناء سفره مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا لنبى هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا أوانه . ويقول ابن هشام : انه ظل يستبطىء ذلك ويقول حتى متى ؟ وقال فى ذلك شعرا منه :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا
لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجة

السعادة الزوجية :

ان التأمل فى حياة هذه الأسرة السعيدة يشعر بأن سر سعادتها بعد كرم الرسول وحسن خلقه الى أن سيدة البيت قد عرفت واجبها نحو زوجها وقامت به خير قيام ، وكان هذا بفضل توفيق الله لها ، فقد رزقها

العقل والفطنة وحسن التصرف ، وعرفت بفراستها الصادقة ما ينتظر زوجها من مهام خطيرة فوفرت له الوقت والجهد ، ووقفت من ورائه تشــد أزره وتقوى ساعده وهكذا تكون المرأة العاقلة ، انظر اليهــا تقول له وقد عاد من الغار ترجف أوصاله : والله لن يخزيك الله أبدا ؛ انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر .

ولئن صح لبعضهم أن يقول : ان وراء كل عظيم امرأة ويضربون المثل فى ذلك بخديجة رضى الله عنهــا فان عظمة محمــد صلى الله عليــه وسلم من صنع ربه وهو الذى اختاره لمهمته ووفق من وقف وراءه لمناصرته وكان هذا من دلائل سعدها وحسن حظها .

رب الأسرة المثــالى :

ولئن كانت السيدة خديجة رضى الله عنها زوجة مثالية فان زوجهــا صلى الله عليه وسلم أشد مثالية وأعظم من يعرف الواجب لأسرته وهو الذى يقول : خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهلى . كان صلى الله عليــه وسلم مثلا كاملا لرب الأسرة الذى يقتدى به فى كل شىء فهو نعم العائل لأسرته ، ونعم المسوى بين أبنائه فى المعاملة ، فلم يؤثر عنــه أنه فرق فى معاملته بين ذكر وأنثى ، بل كان يوصى بالأنثى خيرا ، وقد ورد عنه فى ذلك آثار طيبة منهــا : « من كانت له ابنــة فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة » وعن أنس : « من عال جاريتين حتى تبلغــا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه » جاريتين أى ابنتين . رواه مســلم .

ويزكى هــذه الروايات ما ورد فى القرآن الكريم من نعى على العرب الذين يئدون بناتهم تخلصا منهن وتحللا من تبعاتهن .

وكيف يفرق العاقل بين ذكر وأنثى وكلاهما من هبة الخالق الأعظم الذى يقول : « **يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور** » الشورى ٤٩ . ولعل فى تقديم الاناث هنا ما يشعر العنجهية العربية بوجوب التواضــع أمام حكمة الخالق التى قد تجعــل فى بعض الاناث من الخصائص والمزايا ما يفوق كثيرا من الرجال .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم نعم الصابر على ما ينوبه من فقد الولد ، احتسب عند الله أولاده كلهم ماعدا فاطمة فلم يجزع . وحين توفى ابراهيم دمعت عيناه ، ولم يزد على أن قال حين سئل عن ذلك : ان القلب ليحزن وان العين لتدمع ولا نقول ما يسخط الرب . فى الوقت الذى كانت تتصدع فيه قلوب العرب على فقد أولادهم الذكور الذين كانوا يعتزون بهم ويفضلونهم على الاناث .

وليس معنى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قاسيا ، كلا فقد كان يحزن ولكن حزنه لم يزده الا اعتصاما بربه والتجاء اليه وتفويضا لحكمته . وهذا أقصى درجات الايمان واليقين .

لقد عيره العرب بانقطاع نسله حين فقد أولاده الذكور ، وسموه الأبتر ، فنزل القرآن الكريم ردا عليهم ذلك بقوله : ((**انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر**)) ذكر جلال الدين السيوطى فى كتابه أسباب النزول عدة أسباب لنزول هذه السورة منها ما أخرجه البزار وغيره : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ، الا ترى الى هذا المنصبر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجج وأهل السقاية وأهل السدانة ؟ قال : أنتم خير منه فنزلت : **ان شانئك هو الأبتر** .

ومنها ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى قال : كانت قريش تقول : اذا مات ذكور الرجل بتر فلان ، فلما مات ولد النبى صلى الله عليه وسلم قال العاصى بن وائل : بتر محمد فنزلت .

فعلى الرغم من فجيعة النبى صلى الله عليه وسلم بفقده ولده فقد أضيف الى ذلك شماتة العدو بذلك ، والشماتة أقسى ما يصاب الرجل الحر مصداقا لقول الشاعر :

كل المصائب قد تمر على الفتى

وتهون غير شماتة الحساد

الا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقابل ذلك بقلب صابر وحنان قوى ورضا بقضاء الله وقدره وكذلك كان نعم المثل لأسرته الصغيرة ولأمته الكبيرة وجل من أثنى عليه بقوله : ((**وانك لعلى خلق عظيم**)) القلم ٤ .

ولقد كانت حياه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة مثلا يحتذى فى العفـــة والنزاهة والصـــدق والأمانة ، لم يركن الى الخمول والكسل ــ كما رأينا ــ فقد استرعى الغنم منذ نشأته وفى ذلك الهام من الله له ، حتى اذا ما كبر عمل بالتجارة ، وكان له شريك اسمه السائب بن أبى السائب .

وعمل بالتجارة لخديجة قبل زواجه منها وبعده ، وكان يأكل من عمل يده ، وهذا معنى قوله تعالى ((**ووجدك عائلا فأغنى**)) الضحى .

وقد اكسبته رعاية الغنم كثيرا من المعانى التى أهمها الرأفة والرقة التى صاحبته فى حياته فتمكن من أن يكون رحيما بأمته ، وأخبر عنـــه ربه فيما بعد بقوله تعالى : ((**وما أرسلناك الا رحمة للعالمين**)) الأنبياء ١٠٧ ، وحدث عن نفسه قائلا : انما انا رحمة مهـــداه .

ولم تتغير حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الزواج فقد ظل محافظا على حياة الزهد والقناعة ، والزهد هو شعار الأنبياء عامة ، ونبينا بصفة خاصة ، فالزهد هو الذى يفتح أبواب الملكوت أمام صاحبه ، واذا تفتحت عين العبد على زهرة الدنيـــا حال ذلك بينه وبين الانتفـــاع بثمار الحكمة الأبدية ، وكيف يكون النبى قدوة لأتباعه وبخاصة الفقراء منهم وهو مترف ؟ لقد كان من أدعية النبى صلى الله عليه وسلم المأثورة : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا ، و : اللهم احيني مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين .

وبعد البعثة أمره ربه بأن يؤثر الفقراء بمودته فقال له : ((**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعـــد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا**)) الكهف ٢٨ .

حسن تصرف :

واستقرت الحياة بالنبى صلى الله عليه وسلم وأخذ يزداد فى نفوس الناس اكبارا واجلالا . وظهر حسن تصرفه وكمال عقله فى بناء الكعبة ،

حين همت قريش بذلك بعد ان هدمتها السيول الجارفة قبل البعثة بسنوات ، وكانت قبل ذلك قد وهنت لحريق أصابها .

وجمعت قريش من حر مالها وحلاله ما يفى بتجديد البيت ، وأخذ أشراف قريش يحملون الحجارة على عواتقهم ومن بينهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين ارادوا وضع الحجر الأسود مكانه تنازعوا فيما بينهم ، كل منهم يريد أن يكون له شرف وضعه بيده ، حتى أوشكت الحرب أن تنشب بينهم ، وحين اشتد النزاع الهم الله أبا أمية بن المغيرة المخزومى ــ وكان أسن القوم ــ أن يدعوهم الى تحكيم أول داخل عليهم من باب الصفا ، وارتضوا هذا الحكم ، وكان أول داخل عليهم هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا جميعا وقد علاهم الفرح : هذا الأمين وكلنا نرتضيه حكما .

وبسط محمد صلى الله عليه وسلم رداءه ، ووضع فيه الحجر بيديه ، وطلب من كل قبيلة أن تأخذ بطرف من الثوب ، حتى وصلوا الى مكانه ، فرفعه بيديه الشريفتين ووضعه فيه .

وهكذا استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يقضى على مشكلة كبرى كادت أن تنشب من أجلها حرب ضارية بين القبائل القرشية وقد تعاقدوا على الحرب فعلا وأتوا بجفنة دماء غمسوا أصابعهم فيها . قالوا : قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب ابن لؤى على الموت وأدخلوا يديهم فيها فسموا لعقة الدم .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم بحكمته البالغة أطفأ هذه النار وقضى على تلك الفتنة .

وقام بناء الكعبة شامخا لم يجدد بعد ذلك الا فى عهد ابن الزبير ثم جدد بعده مرة أخرى .

وموقف النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة يشير الى ما بلغه من منزلة عليا بين قومه فقد ارتضوه جميعا حكما ، حتى بعد أن زين لهم

ابليس الذى تصور لهم فى صورة شيخ نجـدى ألا يقبلوا حكومته لحداثة سنه ويتمه ضربوا صفحا عن ذلك القول ولم يسمعوه ، وتركوا النبى صلى الله عليه وسلم ينفذ حكمه . أورد ذلك الأستاذ طـه عبد الرءوف سـعد فى تعليقه على سيرة ابن هشـام .

فترة تأمـل :

ومضت الأيام والنبى صلى الله عليـه وسـلم يزداد كل يوم تأملا ، ويمعن فى البعد عن عادات الجاهليين وعبادتهم ، فقد هـداه الله بفطرته انصافية الى دين ابراهيم فانطلق يتعبد فى غار حراء على ضوء هذا الدين . يذهب الى ذلك الغار بين الحين والحين ، ويمكث فيه الليالى ذوات العدد ، وقد حبب الله اليه الخلاء ، ومن منطلق هـذه العزلة المستنيرة تكشفت له جوانب مضيئة من الحياة ، وقد تمكن الصوفية فى ضوء ما كان يقوم به النبى صلى الله عليه وسلم من اختلاء فى غار حراء أن يستنبطوا ألوانا من السلوك يأخذون به مريديهم حتى يصلوا الى المعرفة الحقيقية ، قال ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك : « ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة » وعلق الرندى شارح حكم ابن عطاء الله على هذه الحكمة بقوله : « مداواة أمراض القلوب واجبة على المريد ، وأمراضه انما تكون من غلبـة الأحكام الناتجة عن الطبع عليه ، من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده الى هوى النفس وأنسه بعالم الحس ، ومداواة هذا المرض تأتى من وجوه كثيرة ، وأبلغها فى ذلك وأنفعها العزلة عن النـاس المصحوبة بالفكرة ، وبالعزلة أيضا يجتمع همـه ويقوى فى ذات الله عزمه ، بخـلاف الخلطة فانها تفرق الهم وتضعف العزم ، فقد قيل : ان العبد ليعقد فى خلوته على خصال من الخير يعملها فاذا خرج الى الناس حللوا عليه ذلك عقدة عقدة ، وقد روى عن عيسى عليـه السـلام : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم . وفى الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين ، وضعف اليقين انما يكون من رؤية أهل الغفلة » .

ولا تفيد العزلة بدون التفـكر ، والتفكر ورد فيـه : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة » وفى الأثر : طوبى لمن كان قوله ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرا ، ان أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

هذا سلوك للصوفية أخذوه عن النبى صلى الله عليه وسلم سـيد المتفكرين وقدوة المتأملين وامام المتبتلين .

آيات وخـوارق :

وأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الفتره من حياته ، وأراه من الآيات ما يرهص بالايحاء اليه ، ومن الخوارق ما يؤنسه حتى لا يفاجأ بما لم يكن يتوقعه فيجزع ويفرق . قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الملك ابن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية الثقفى وكان داعية عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم — حين أراد الله بكرامته وابتدأه بالنبوة — كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى الى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر بحجر ولا شجر الا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى الا الشجر والحجاره . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شـاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان .

وروى الترمذى ومسلم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انى لأعرف حجرا بمـكة كان يسلم على قبـل أن ينزل على . وفى بعض المسندات أن هذا الحجر الذى كان يسلم عليه هو الحجر الأسود .

وقد سبق الاشارة الى أن الخوارق فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ليست أمرا مستغربا وفى الأحاديث الصحاح كثير منها . وليس هناك ما يمنعها ، وعلى هدى من ذلك نعد الكرامة بالنسبة للولى أمرا ممكنا .

الكرامة الحقيقية :

والكرامة تحدث على يد رجل صالح مشهود بصلاحه ، عفوا وبدون اجتلاب ، وهى علامة صـدق لمن ظهرت على يده فى أحواله ، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز ، ذكر ذلك القشيرى فى رسالته .

وغالبا ما تكون الكرامة من غـير علم صاحبها ، وفى ذلك فرق بينها وبين المعجزة ، ومن أجل هذا عد كبير من الأولياء اظهار الكرامة نقصا ،

ويقول فى ذلك ابن عطاء الله السكندرى : « ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه » ويشير بهذا الى مذهبه فى الزهد فى الكرامات من حيث هى خوارق للعادات فانه ليس كل من خصص بها فى رأيه كمل تخليصه من حظوظ نفسه .

ولكن الكرامة الحقيقيــة هى الاستقامة على الدين وحصــول كمال اليقين ، وأما الخوارق الحسية فاذا صحبتها الاســتقامة ظاهرا وباطنــا وجب تعظيم صاحبها لأنها شاهدة له بالكمال ، والا فلا عبرة لهــا ، ويرى ابن خلدون فى مقدمته أن انكار الكرامة مكابرة ويقول فى ذلك : « وأما الكلام فى كرامات القوم واخبارهم بالمغيبــات وتصرفهم فى الكائنات فأمر صحيح غــير منــكر ، وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق ، مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات ، وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور » المقدمة ص ٤٧٤ .

روى البيهقى فى دلائل النبوه بسنده الى أبى ســبرة النخعى قال : أقبل رجل من اليمن ، فلما كان فى أثناء الطريق نفق حماره فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال : اللهم انى جئت مجاهــدا فى سبيلك ابتغــاء مرضاتك ، وأنا أشهد أنك تحيى الموتى وتبعث من فى القبور ، ولا تجعل لأحد على اليوم منة أسألك أن تبعث لى حمارى فقــام الحمار ينفض أذنيه . قال البيهقى : هذا اسناد صحيح ومثل ذلك يكون معجزة لصاحب الشريعــة حيث يكون فى أمته من يحيى الله له الموتى ، وهذا الرجل اسمه نباتة بن يزيد النخعى .

وفى القرآن الكريم اشارات الى حدوث الكرامات منها قوله تعــالى فى شأن مريم : **« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هــذا قالت هو من عنــد الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب »** آل عمران ٣٧ ، وقوله فى قصة سليمان عليه السلام : **« قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك »** النمــل ٤٠ .

وما لنا ننكر الكرامة والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . يقول اليافعى فى كتابه نشر المحاسن الغالية : لو لم يكن هذا الحديث لكفى .

ولذلك فلست مع الذين ينكرون المعجزات الحسـية للنبى صلى الله عليه وسلم مكتفين بمعجزته الباقية وهى القرآن الكريم ، ولست معهم كذلك فى انكار كرامات الأولياء فهى ثابتة ، واعتقادها لا يعنى الاتكال عليها وترك العمل فان جميع من ثبتت لهم خوارق لم يعتدوا بها ولم يعتمدوا ولم يقصدوا اليها ، وانما هى شيء يمنحه الله لهم تكريما ، ثم ان الصادقين منهم يتجاوزون عنها خوفا أن يكون استدراجا ومكرا .

ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم فى الفترة السابقة للوحى كان يتطلع الى ما يملأ قلبه ببرد اليقين وأن يهديه من هذه الحيرة التى يعانيها ، فقد كان يعتقد بوجود دين هو خير من هذا الدين الذى يدين به الجاهليون ، هو دين ابراهيم عليه السـلام ، ولكن أنى له به ؟ وكيف الطريق اليـه ؟ ولعل ذلك هو المعنى بقوله تعالى فى سورة الضحى : ((**ووجدك ضالا فهدى**)) فالضلال هنا هو الحيرة وليس الكفر أو الشرك ، يقال فلان ضل الطريق بمعنى لم يعرف ما يوصل اليها ، وقد جاء ما يشير الى هذا المعنى فى تفسير البيضاوى : وجدك ضالا عن علم الحكم والأحكام ، فهدى : فعلمك بالوحى والالهام والتوفيق للنظر ، وفى تعليق للشيخ الخضرى فى سـيرته : هداك بالنبوة وهداك للكتاب والايمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم تكن تدرى ذلك من قبل قال تعالى : ((**وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان**)) الشورى ٥٢ .

وكان الله معه يرقبه بعين الوداد ، حتى جاء يوم استقر فيه وجدانه وسعد فيه جنانه ، ونزل أمين الوحى فى لحظة فريدة التقت فيهـا الأرض بالسماء ، وارتقت فيها الطينة البشرية الى مستوى الأفق الأعلى ، لتجتمع فى أحضان جبريل يضمها ضمة تختلط فيها البشرية بالروحانية ، وتتبدد فيها الحيرة باشراقة الهدى واليقين ، ويتلقى الموعد بالسعادة الأبدية الملحوظ بالعناية الربانية أول آيات من القرآن الكريم تملأ كيانه بالنور ويفيض على العالم كله من حوله من أقصاه الى أقصاه ، ويوقفه على ما ينتظره فى مستقبل أيامه من جهاد فى سبيل دعوة أساسها الايمان وعمادها العلم وسياجها التقـوى .

كهـــولة مبـــاركة

فى غـــار حـــراء :

التماسا لدين ابراهيم عليه السلام كان النبى صلى الله عليه وســـلم يذهب الى غار حراء بين الحين والحين ، يمكث فيه الليالى المتعددة ، يتأمل فى ملكوت الله ويتعرف على الله فى آثاره ومظاهر قدرته فى خلقه ، والتفكير فى خلق الله يهدى الى الله ، قال تعالى ((**ان فى خلق السموات والأرض لآيات لأولى الألباب — الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**)) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

جاء فى سيرة ابن هشام « كان رســـول الله صلى الله عليه وســـلم يجاور فى حراء من كل سنة شهرا ، يطعم من جاء من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها ســـبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهرالذى أراد الله تعالى به فيه من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى اذاكانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى » .

كان ذلك على رأس الأربعين من عمره يوافق السابع عشر من رمضان قبل الهجرة بثلاثة عشر عاما ويوافق بالتاريخ الميلادى يوليو سنة ٦١٠ .

ويرى بعض المحققين أن بدء الوحى كان بواســـطة الرؤيا وأن ذلك كان فى شهر ربيع الأول . ولشهر ربيع الأول مركز محظوظ بين الشـــهور القمرية ففيه ولد النبى صلى الله عليه وسلم وفيه بدىء بالوحى وفيه هاجر وفيه لقى ربه ..

لابد أن يكون قد سبق رؤيه جبريل ما يؤنسه حتى لا يفاجأ بما ليس

له به عهد فيفزع ، آنسه الله بالرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح — كما يخبر بذلك كتب الصحيح — .

وفى اليوم الموعود جاءه جبريل قائلا له : اقرأ ، قال محمد : ما أنا بقارىء ، فغطه بردائه غطة قوية ، وقال له : اقرأ . قال محمد : ما أنا بقارىء ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد أخبر القرآن الكريم بذلك قائلا « **وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » العنكبوت ٤٨ . فغطه جبريل غطة ثانية حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله ، وقال له « **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** الآيات الأولى من سورة القلم . ثم تركه ومضى .

وانطلق النبى صلى الله عليه وسلم الى أهله يرجف من شدة ما رأى وما سمع ، يقول لزوجته البارة : زملونى زملونى ، فزملته (لفته بالثياب) حتى ذهب عنه الروع وأخبرها بما حدث قائلا : لقد خشيت على نفسى . وهنا تتجلى عظمة المرأة الحكيمة التى تقف الى جوار زوجها تهون عليه ما يلقاه من أحداث وتعينه على ما يقوم به من مهام ، قالت له تطمئنه : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر .

هذه أعمال طيبة لابد أن تثمر ثمارا طيبة ، فلا يمكن لصاحب هذه الأيادى البيض أن يمسه سوء أو يحيط به شر أو يلحقه أذى أو يرى أطياف الشياطين . ان هذا المعنى ليلتقى مع قول النبى الحكيم رشد أمته « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » .

كانت كلمات خديجة اجابة طيبة وبلسما شافيا أدخل الطمأنينة على قلب النبى الذى فوجىء فى الغار بما لم يتوقع .

الى ورقة :

وتنطلق خديجة رضوان الله عليها الى ابن عمها ورقة بن نوفل وبصحبتها زوجها الكريم ليقص عليه ما رأى وما سمع ، ويصيخ ورقة

للنبى ، حتى اذا ما انتهى من كلامه ، قال ورقة : أبشر يابن أخى ، هـذا الناموس الذى نزل الله على موسى . ثم قال : ليتنى فيها جذعا اذ يخرجك قومك . قال النبى صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال ورقة : لم يأت رجل بمثل ما جئت به الا عودى . ثم قال : وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

ولكن القدر لم يمهل ورقة فلم ينشب أن مات ، ولكنه مات مسلما على أى حال ، فقد كان كلامه هذا الذى قاله للنبى صلى الله عليه وسلم تصديقا مسبقا برسالته ، وقد رآه النبى صلى الله عليه وسلم بعد مماته فى منامه فى هيئة حسنة تشهد بكرامته ، وقال عليه الصلاة والسلام عنه ذات مرة : لا تسبوا ورقة فانى رأيت له جنة أو جنتين ـ أخرجه البزار والحاكم وابن عساكر ـ .

وكان لكلام ورقة هذا أثر كريم فى نفس المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد طمانه على أن ما رأى وسمع انما هو من عند الله جل وعلا ، وجعله يوقن بأنه انما يسير فى الطريق الصحيحة ، لقد ذهبت عنه الحيرة الى غير رجعة وآن له أن يماين الحق معاينة بعد أن أشرب روحه برد اليقين .

لقد ودع تلك الفترة فترة الحيرة والقلق ، وكان لمطفى جبريل وضمهما اللذين ما زال يذكرهما ويحسهما ويعيش فى خلالهما ، فلم يكن ما آره خيالا بل كان حقيقة واقعة لمسها بكل جوارحه ، ولعل جبريل قد قصد من فعله هذا أن يظل أثر اللقاء باقيا خالدا فى نفس الرسول المصطفى ، فقد كان من الممكن أن يلقنه ما لقنه مشافهة ويمضى . ولعل فى ذلك اشارة الى اشتياق جبريل الأمين الى هذا اللقاء الذى كان مرتقبا بينه وبين حبيب الله ومصطفاه، هذا اللقاء الذى فتح صفحة جديدة فى سجل الرسالة الخالدة والذى سيستمر منذ الآن بين الأمين والأمين حتى يشاء الله . .

كما كان من الممكن أيضا أن يتلقى النبى صلى الله عليه وسلم أول آيات الوحى فى منامه ، ولكن الله أراد أن يطلع رسوله الأمين على صورة روحه الأمين ، كما أراد أن يوضح له أن الأمر الذى يتهيأ له منذ الآن ليس

أمرا سهلا ، ولكنه ملىء بالمشقات منثور بالعقبات فعليه أن يودع حياة السكون ويستقبل حياة الكفاح والجهاد .

ان مضمون الرسالة التى أعد لها أمر ذو بال وهو من الأهمية بمكان ، انها الرسالة الخاتمة التى هيأها الله لانقاذ البشرية — والى الأبد — من الضياع ، فلابد أن تكون أولى آيات دستورها القديم مبلغة لسفيرها فى هذه الصورة الجليلة من الاحتفال والتبليغ .

فتور الوحى :

وفتر الوحى بعد ذلك زمنا قدره بعضهم بأربعين يوما وقدره بعضهم بأكثر من ذلك ، ولعل الحكمة فى هذا الفتور أن يشتد شوق النبى صلى الله عليه وسلم للوحى ، وقد اشتد الحال عليه وضاق بذلك الفتور ذرعا ، حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يلقى بنفسه من أعلى خوفا من قطيعة ربه له ، بعد أن أراه هذه النعمة العظمى ومن عليه بتلك المنزلة الرفيعة ، فيتبدى له جبريل على كرسى بين السماء والأرض يقول له : أنت رسول الله حقا ، فيعود اليه الاطمئنان والهدوء ، حتى نزل عليه قوله تعالى ((**يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر**)) خمس صفات تتضمنها خمسة أوامر تنقل الانسان من حال الى حال وترفع النفس من منزلة الى منزلة حتى تصبح فى حالة استعداد كامل لما كلفته من مهام .

تبليغ الدعوة :

وشمر النبى صلى الله عليه وسلم عن ساعد الجد ، وبدأ يبلغ دعوة ربه ، وكان أول من آمن به زوجته الوفية السيدة خديجة رضى الله عنها ، وقد كانت له نعم المعين على مهمته ، وآمن به ابن عمه على بن أبى طالب وكان غلاما صغيرا ، وآمن به غلامه زيد بن حارثة ، وآمن به صديقه أبو بكر الصديق .

قصة فى اسلام أبى بكر :

ويروى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير قصة فى اسلام أبى بكر . قال : حدث أبو بكر — واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن

عمرو بن كعب بن سعد بن تيم — قائلا : كنت جالسا بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا فمر به أمية بن أبى الصلت ، فقال : كيف أصبحت يا باغى الخير ؟ قال : بخير ، قال : هل وجدت ؟ قال : لا ولم آل من طلب ، فقال :

« كل دين يوم القيامة الا ما قضى الله والحنيفة بور » .

أما هذا النبى الذى ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين .

قال : ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبى ينتظر أو يبعث ، فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر فى السماء كثير همهمة الصدر ، فاستوقفته ثم اقتصصت عليه الحديث ، فقال : نعم يابن أخى ، أبى أهل الكتاب والعلماء الا أن هذا النبى الذى ينتظر من أوسط العرب نسبا ولى علم بالنسب وقومك أوسط العرب نسبا ، قلت : يا عم وما يقول النبى ؟ قال : يقول ما قيل له الا أنه لا ظلم ولا تظالم . فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم آمنت به وصدقت .

ثم يستمر ابن الأثير فى سوق هذا الخبر على لسان أبى بكر . قال : خرجت الى اليمن قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت على شيخ من الأزد عالم قد قرأ الكتب وعلم من علم الناس كثيرا ، فلما رآنى قال :-أحسبك حرميا — نسبة الى الحرم — قلت : نعم ، قال : وأحسبك قرشيا ، قلت : نعم ، قال : وأحسبك تيميا . قلت : نعم ، قال : بقيت لى فيك واحده ، تكشف عن بطنك ، قلت : لا أفعل أو تخبرنى لم ذلك ؟ قال : أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل ، فأما الفتى فخواض غمرات ودفاع معضلات وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة ، وما عليك الا أن تريني ما سألتك ، فقد تكاملت لى فيك الصفة الا ما خفى على .

قال أبو بكر : فكشفت له عن بطنى فرأى شامة سوداء فوق سرتى ، فقال : أنت هو ورب الكعبة ، فانى متقدم اليك فى أمر فاحذره . قال أبو بكر : وما هو ؟ قال : اياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى ، وخف الله فيما خولك وأعطاك . قال أبو بكر : فقضيت باليمن

أربى ، ثم أتيت الشيخ الأزدى لأودعه ، فقال : احامل أنت عنى أبياتا من الشعر قلتها فى ذلك النبى ؟ قلت : نعم . فذكر أبياتا .

قال : فقدمت مكة — وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم — فجاءنى عقبة بن معيط ،وشيبة وربيعة وأبو جهل وأبو البخترى وصناديد قريش ، فقلت لهم : هل نابتكم نائبة أو ظهر فيكم أمر ؟ قالوا : يا أبا بكر اعظم الخطب ، يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، فاذ قد جئت فأنت الغاية والكفاية . قال أبو بكر : فصرفتهم على احسن مس .

وسألت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل فى منزل خديجة ، فقرعت عليه الباب فخرج الى ، فقلت : يا محمد ، بعدت من منازل أهلك وتركت دين آبائك واجدادك ؟

قال : يا أبا بكر انى رسول الله اليك والى الناس كلهم فآمن بالله ، فقلت : ما دليلك على ذلك ؟ قال : الشيخ الذى لقيت باليمن ، قلت : وكم شيخ لقيت باليمن . قال : الشيخ الذى أفادك الأبيات . قلت : ومن خبرك بهذا يا حبيبى ؟ قال : الملك المعظم الذى يأتى الأنبياء قبلى ، قلت : مد يدك فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله .

قال أبو بكر : فانصرفت وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامى .

وعلى صحة هذه الرواية فقد أراد أبو بكر أن يزداد يقينا برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ويزداد تثبيتا من صحة ما أخبره به الأزدى ، والا فقد كان واثقا من صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه كبوة ونظر وتردد الا ما كان من أبى بكر . وقال عنه مرة أخرى : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا .

لقد كان سؤال أبى بكر للنبى من قبيل ما جاء فى شأن ابراهيم الخليل عليه السلام قال له الله تعالى : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى .

والقصة نفسها لبس فيها ما يستغرب اذا أدركنا أن كثيرا من مفكرى العرب كانوا يتوقعون نبيا يظهر آن أوانه ، وأن علاماته كانت معروفة لكثير من الذين أوتوا معرفة الكتب السابقة وكذلك علامات من آمنوا به . وقد أخبر القرآن الكريم بذلك « **محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** » الفتح ٢٩ .

سير الاسلام :

وبدأ الاسلام يسير وئيدا ويسرى فى خفة بين فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى ، وكان لأبى بكر — رضى الله عنه — دور فى اقبال بعضهم الى الاسلام نظرا لمنزلته وسداد رأيه ، فمن حق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يسر باسلامه . كان له نعم الصديق الذى يفتدى صديقه بأعز شىء لديه ، ويعرض نفسه من دونه للأهوال والأخطار ، وقد ضحى بماله فى سبيل الاسلام وافتداء الأرقاء المسلمين الذين كان الكفار يسومونهم سوء العذاب ، وكان ممن أسلم من الأشراف بسبب أبى بكر عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله .. وغيرهم .

حتى اذا تكاثر عدد المسلمين بعض الشىء اتخذ النبى — صلى الله عليه وسلم — دار الأرقم بن أبى الأرقم ليجتمع فيها بأصحابه الذين أسلموا يعلمهم مبادىء دينهم ويقرئهم ما ينزل عليه من آيات الله ، على غير علانية من الكفار .

وظلت هذه الفترة حوالى ثلاث سنوات . كان هؤلاء النفر السابقون الى الاسلام يعبدون الله سرا وقد علمهم النبى — صلى الله عليه وسلم — الوضوء والصلاة . وكانت ركعتين فقط قبل أن تفرض كاملة فى ليلة الاسراء والمعراج — كانت ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى .

وبدأ أمر الاسلام يشيع فى مكة بعد أن دخـل فيه كثير من الناس من أشراف القوم وفقرائهم ، أحرارهم وعبيدهم ، ولم تكن قريش قد وقفت بعد موقف العداء من هذه الدعوة ، فقد حسبت محمدا — صلى الله عليه وسلم — واحدا من أولئك المتحنفين من أمثال ورقة وزيد وأمية ابن أبى الصلت .

ولم ينابذ النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه قريشا بالعداء ، ولم يعلن المسلمون عن اسلامهم بل ظلوا يمارسونه خفية ،وكانوا اذا أرادوا الصلاة تفرقوا فى شعاب مكة بعيدا عن الأنظر يصلون .

اعلان الدعوة :

ونزل على النبى — صلى الله عليه وسلم — قوله تعالى : ((**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**)) الحجر ٩٤ وقوله تعالى ((**وأنذر عشيرتك الأقربين**)) الشعراء ٢١٤ ، فصعد النبى — صلى الله عليه وسلم — على الصفا ، وأخذ ينادى ، يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، فجعل الرجـل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فقال عليه الصلاة والسلام : أرأيتم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصـدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا .

قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟

فأنزل الله فى شـأنه ((**تبت يدا أبى لهب وتب . ما اغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد**)) .

وقد خص الله امرأته بالذكر لشدة عداوتها للنبى — صلى الله عليـه وسلم — وكثرة ايذائها له ، كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه فى طريقه ، وقيل : كانت تمشى بالنميمة بين الناس وتفسد العلاقة بينهم .

وجمع النبى صلى الله عليه وسلم أهله وأقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف ، وقال لهم : ان الرائد

لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا ، وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا ..

ولكن أبا لهب من دون قومه جميعا أراد أن يثير القوم عليه قائلا : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فان سلمتموه اذاً ذللتم وان منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا .

وكان أبو طالب مثالا للنجده والشهامة والمروءة بعكس ابى لهب الذى كان مثالا للشدة والقحة والشر .

لقد رأى ابو طالب النبى وابنه عليا يوما قبل اعلان الدعوة فى أحد شعاب مكة يصليان خفية فسألهما عما يفعلان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم، بعثنى الله به رسولا الى العباد وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه ، فقال أبو طالب : أى ابن أخى انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت .

وحافظ أبو طالب على كلمته ، وظل مانعا للنبى صلى الله عليه وسلم طول حياته .

تعذيب المسلمين :

واخذ المشركون يضيقون الخناق على المسلمين ، ولا سيما بعد أن أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يعيب آلهتهم ويسفه من أحلامهم ، وتعرض المسلمون لأذى شديد لا سيما المستضعفون منهم من أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه الذين كان المشركون يذيقونهم العذاب ، فيمر بهم النبى صلى

الله عليه وسلم ولا يستطيع أن يدفع عنهم ما يلقون فيقول لهم : صبرا آل ياسر موعدكم الجنة .

ومن أمثال بلال الحبشى الذى كان يعذبه أمية بن خلف بالقائه فى حر الرمضاء عاريا ووضع أثقال الأحجار عليه ، ويضربه بالسياط ، ولا ينطق بلال الا بكلمة : أحد أحد . وظل على هذا العذاب دهرا حتى انقذه أبو بكر وأعتقه .

ومن أمثال خباب بن الأرت الذى ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو اليه ما يلقاه من عذاب وبلاء فيطمئنه النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله لابد مظهر دينه وناصر نبيه ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت فلا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، ويثبته بما كان يلقى المؤمنون فى العصور الغابرة من أذى قاس فلا يفتنهم ذلك عن دينهم . فعاد خباب وقد ازداد ايمانا ويقينا .

لقد ضرب المسلمون الأوائل المثل الأعلى فى التضحية والجهاد والبطولة والاستشهاد مما يترك أثره الواضح فى تاريخ البشرية ، ويهيب بالمسلمين الآن أن يأخذوا من ذلك العظة والعبرة ليعودوا بأمتهم الاسلامية سيرتها الأولى ..

وتمضى الأيام ويزداد بطش الكفار بالمسلمين محاولين فتنتهم عن دينهم ، فمن استطاعوا أن يحبسوه حبسوه ومن استطاعوا أن يعذبوه عذبوه ، ولم يزد هؤلاء المؤمنون الا ايمانا وتسليما .

علام يعذب المسلمون ؟!

عجبا لهذا ! محمد الأعزل الضعيف الذى لا يستطيع حماية أحد يلتف حوله هؤلاء ولا ينفضون من حوله ، وهم يزيدون ولا ينقصون ، وهؤلاء الصناديد الأقوياء الأغنياء لا يستطيعون أن يحولوا بين هؤلاء المؤمنين المستضعفين وبين هذا الرسول الأمين .

أفلا يدعو ذلك الى التفكير لو كان هؤلاء يفكرون ؟ أفلا يدعوهم ذلك الى ادراك أن هؤلاء القوم انما آمنوا بالله ورسوله ايمانا خالط قلوبهم

وتغلغل فى أعماقهم ، والايمان اذا أشربته القلوب استهانت بالدنيا وما فيها وضحت بالروح والنفس فى سبيل ما تؤمن به ؟

انه الايمان الذى يمد الانسان بالطاقة التى تتحدى كل قوة مادية فى الدنيا وتستهين بكل عذاب الأرض ، فى سبيل النعيم السرمدى الخالد الذى لا يفنى .

لقد آمن هؤلاء المؤمنون بالمبادىء العليا التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله . ولقد أزال الايمان الغشاوة عن عيونهم فأبصروا بعد طول عمى ، وأزال الصدأ عن قلوبهم فأدركوا حقيقة الوجود بعد أن كانوا كالسوائم لا يفقهون شيئا .

لقد هداهم الله بايمانهم اليه ، معرفوا القوى القاهر الذى فى يده ملكوت كل شىء وهو السميع البصير ، وأدركوا أن ما كانوا يعبدونه من دونه وهم من الأوهام ، أصنام لا تضر ولا تنفع ، أحجار صماء من الصخور الصلدة نحتوها بأيديهم ثم سجدوا لها على أنها هى التى ترزق وتحيى وتميت وتضر وتنفع . الا ما أضلهم حينذاك وما أبعدهم الآن !

لقد دعاهم محمد رسول الله الى الايمان باليوم الآخر فأدركوا أن الانسان لم يخلق عبثا ، بل سوف يبعث بعد موته ، فيحاسب على أعماله ان خيرا فخير وان شرا فشر ، لقد كانوا فى ضلال حين وقفوا بادراكهم عند حدود الحياة الدنيا فحسب فكذبوا بأن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا ، واذن فمن الذى يكف الظالم عن ظلمه ؟ ومن الذى يجزى المحسن على احسانه ؟ ومن الذى يعاقب الفاجر على فجوره ؟ ومن الذى يثيب المنصف على انصافه ؟ ان الأيام تمر والحياة تنقضى وقد لا يرى الغافل فيها عبرة يعتبر بها ، والأصنام كذلك غافلة عما يجرى هنا وهناك بكماء لا تنطق صماء لا تسمع بلهاء لا تعقل ولاتدرى شيئا عما يحدث هنا أو هناك فلو ظل الأمر على ذلك لا يأخذ المظلوم حقه ولا يجزى الظالم على ظلمه لكان الأمر غاية الظلم ، ولكن الايمان باليوم الآخر يحل الاشكال ويزيل حيرة الحائر ويهدى الضال ، ويعيد الثقة الى النفوس ويبعث الأمل فى القلوب ، ويحجب ظلام

اليأس عن النفوس ، فلم يخلق الله الكون باطلا ، ولم يترك الخلق هملا ، وما كان الأمر عبثا ، وصدق الحكيم الذى يقول « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون** » المؤمنون ١١٥ ، ويقول « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** » سورة ص ٣٧ .

ولقد هداهم الى وجوب اقامة مجتمع فاضل مبنى على العدل والمساواة والاخاء لا فرق فيه بين سيد ومسود ولا فقير وغنى ولا أبيض وأسود « كلكم لآدم وآدم من تراب و المفاضلة الوحيدة بينهم على أساس التقوى والعمل الصالح « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » .

وهداهم الى الأخلاق الفاضلة الرفيعة ، لا كذب ، لا غش ، لا فجور ، لا خداع ، لا نفاق ، لا خيانة ، لا غدر ، بل هو الصدق والعفة والنزاهة والاخلاص والأمانة وكل القيم العليا الرفيعة ، لقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم ليقيم بنيان الأخلاق عاليا ويقول « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » يقيمه شامخا قويا مستمدا من الايمان بالله واليوم الآخر ، وليس مستندا كما كان على عصبية كاذبة وعنجهية ممقوته وأنانية بغيضة ومباهاة باطلة .

بهذا آمن المؤمنون ، وتحملوا فى سبيل هذا الايمان ما تحملوا من عذاب .

ولم يدخر المعاندون وسعا فى ايذائهم ، ولم يقفوا بهذا الايذاء عند حد ، ونال النبى صلى الله عليه وسلم منه نصيب وافر .

آذوه بالقول وآذوه بالفعل ، قالوا عنه : ساحر ، وقالوا عنه : كاهن ، وقالوا عنه : شاعر ، وقالوا عنه : مجنون . وسخروا منه ومن المؤمنين به ، وتحدوه بأن يأتى بآيات تثبت صدقه ، كل ذلك والقرآن ينزل حاكيا أحوالهم ، فيزداد المؤمنون تثبتا ويزداد الكفار كفرا وعنادا .

الله يعصم نبيه :

ولقد بلغ بهم الأمر أن تآمروا على قتل النبى صلى الله عليه وسلم ليستريحوا فيما زعموا ، فقد قال أبو جهل يوما ، يا معشر قريش ، ان محمدا قد اتى بما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، انى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو الى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ماذا أبو جهل فاعل . فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام اليه رجال من قريش ، فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت اليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الابل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى ، فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه .

لقد دفع الله سبحانه وتعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعصمه من القتل حتى يؤدى رسالته التى كلفه اياها ، وقد هم أحد المشركين مرة أخرى بعد ذلك بقتله ، فاخترط سيفه وجرده على النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة ، وقال له : من يعصمك منى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : الله ، فوقع السيف من يده ، وناشد النبى صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه فعفا عنه .

الله يعصمه من القتل ويعصمه من الزلل ويعصمه مما يتنافى مع طبيعته كرسول ، ولكن الايذاء الذى يتعرض له الرسول لا يتنافى مع طبيعة الرسالة بل ، ان من خصائص الرسل أن يؤذوا فى سبيل الله ، لقد أوذى نوح وأوذى ابراهيم وأوذى لوط وصالح ، وأوذى شعيب وموسى وعيسى ، وأوذى كل نبى رسول يبلغ دعوة ربه ، لقد أخبر القرآن الكريم بما تعرض له كل أولئك من شر وأذى ، والا فكيف تصح القدوة ؟ كيف يصبر المجاهدون على

الشدائد ؟ وكيف يجتازون الصعاب ويتخطون العقبات ان لم تكن لهم فى رسلهم أسوة حسنة ؟ الا أن رسولنا صلى الله عليه وسلم تعرض لأقسى أنواع الأذى ، كأن الأذى الذى تعرض له الأنبياء جميعا اجتمع له وحده ، وقد نزل القرآن الكريم يعزيه ويسرى عنه فى مواضع كثيرة . يقول له **((فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير))** آل عمران ١٨٤ ويقول له **((ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين))** الأنعام ٣٤ . ويقول له ليسرى عن أصحابه ويثبت أقدامهم **((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب))** البقرة ٢١٤ ويقول له **((فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل))** الأحقاف ٣٥ ويقول له **((فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم))** القلم ٤٨ ويقول له **((واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا))** الطور ٤٨ .

كل هذه الآيات وكثير غيرها نزلت لتقوى من عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وليتأكد المؤمنون من نصر الله الذى وعدهم به والله لا يخلف الميعاد ، لقد وعد الله بنصر هذا الدين وظهوره فلابد أن يظهر **((هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))** التوبة ٣٣ ، بل لقد وعد هؤلاء المستضعفين أن يظهرهم على عدوهم ويمكنهم فى الأرض فقال **((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون))** النور ٥٥ .

ويعصم النبى صلى الله عليه وسلم للأذى فلا يستطيع الكفار أن ينالوا منه شيئا ، حتى حين يشتد جهلهم وتطفح سخيمة شرارهم فيفعلون معه ما يدل على مدى الحقد الذى تنزى به نفوسهم والحقد الذى يكمن فى قلوبهم . حكى ابن مسعود فيما يرويه البخارى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وهو يصلى ، فقال أبو جهل : الا رجل يقوم

انى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجدا حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته ، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهم عليك بالملأ من قريش وسمى أقواما ، قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر .

ولقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم على هؤلاء لأن الله قد أعلمه بأنه لا فائدة ترجى منهم وأن الله قد أعمى قلوبهم فلا رجاء فى ايمانهم ، والا فقد كانت دعوته المفضلة دائما : اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون . كان صلى الله عليه وسلم فى منتهى الرحمة والعطف فى الوقت الذى بلغ فيه أعداؤه غاية السفه والقحة والجهل ، ولكن الله جل وعلا أراد أن يرسله رحمة للعالمين .

اذنه لأصحابه بالهجرة الى الحبشة :

وجن جنون قريش فزادوا فى تنكيلهم بالمسلمين وتعذيبهم لهم ، وكره النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يستمر بهم هذا الأذى الشديد وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم . وضن بهم على الهلاك وهم طلائع الدعوة وبراعمها الناشئة فأذن لهم فى الهجره الى الحبشة ، لعلهم يجدون فى ظل النجاشى الأمن والحرية والسلام ، وحالفهم الحظ فتمكنوا من الوصول الى الحبشة سالمين ، وكان عدد المهاجرين فى هذه المرة عشرة رجال وخمس نسوة فيهم عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووجد هؤلاء المهاجرون فى ظل النجاشى ما توقعه النبى صلى الله عليه وسلم لهم من الأمن والكرامة وحسن الضيافة ، ولكن المسلمين لم يكونوا قد تعودوا على حياة الغربة ، ولم يكونوا جماعة كثيرة تستطيع أن تتأقلم مع الجو الجديد ، وسرعان ما شعروا بالحنين الشديد لوطنهم ففكروا فى العودة . ومن يدرى ؟ فلعل نفوسهم لم تسترح الى بقائهم فى أمن وسلام

بينما النبى صلى الله عليه وسلم واخوانهم الباقون بمكة يقاسـون ألوان العذاب وصـنوف الأذى ، فعلى الرغم من كرم الضـيافة الذى وجدوه فى جوار النجاشى فقد قرروا العودة الى مكة ولسان حالهم يقول : العذاب فى جوار النبى صلى الله عليه وسـلم أفضل من النعيم بعيدا عنه .. وعادوا ادراجهم الى مكة ..

لقد طلب النبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه الهجرة بعد أن أيقن وتأكد من أن قريشا ما زادت الا عنادا واصرارا على الضـلال ، ولعل من أسباب هذا الامعان فى الكفر اسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب اللذين اشتد بهما ساعد المسلمين فجرءوا على أن يجاهروا باسـلامهم ويتحدوا بعلانيتهم ضلال الكفار دون خوف أو وجل . ولعل من أسباب ذلك أيضا فشل المفاوضات التى قام بها فريق من زعماء قريش محاولين اثنـاء النبى صلى الله عليه وسلم عن دعوته . كل ذلك حرك سخائم الكفر فارتد فعلها على المسلمين تعذيبا وتنكيلا .

ولم يستطع المسلمون المستضعفون البقاء فى مكة آمنين وكثير منهـم سـيم العذاب من صـناديد قريش ، فاضـطروا كارهين الى ترك وطنهم وخرجوا مهاجرين الى الحبشة .

مفاوضـات :

وكان المشركون قد لجأوا الى هذه المفاوضات المشـار اليها لأنهم وجدوا أن الدعوة لم تزدها المقاومة الا انتشارا ، ولم يزدد المسـلمون الا تمسكا بدينهم واستقتالا فى سبيله على الرغم مما يلقونه من ايذاء . وحين اجتمع زعماء قريش للتشاور فى هذا الأمر قال عتبة بن ربيعة وكان سـيدا مطاعا فى قومه : يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا عله يقبل بعضـها فنعطيه اياها ونكفه عنـا ؟ فقالوا له : قم فكلمـه يا أبا الوليد .

فذهب عتبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده فى المسـجد يصلى ، ثم قال له : يابن أخى ، انك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، ولكنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم

وعبت دينهم وآلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليـــه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال : يا ابن أخى ، ان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وأن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ((**بسم الله الرحمن الرحيم — حـم تنزيل من الرحمن الرحيم — كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون — بشـــيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون — وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننـــا عاملون — قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهـــكم اله واحـــد فاستقيموا اليـــه واســـتغفروه وويل للمشركين — الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**)) . ومضى فى تلاوة هذه الآيات من أول ســــورة فصلت ، حتى وصل الى قوله تعالى : ((**فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقـــة عاد وثمود — اذ جاءتهم الرســـل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون**)) .

وأحس عتبة وقع الصواعق على أذنيه فأسرع ووضع يده على فم النبى صلى الله عليه وسلم حتى لا يمضى فى تلاوة هذا الكلام ، وناشده الله والرحم أن يكف عن القراءة ...

وعاد عتبة الى قومه يرجف قلبه وترتعد فرائصـــه وقد انتقع لونه ، وحين سألوه قال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثـــله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبـــأ ، فان تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فعزه عزكم ...

ولكن ماذا يجدى هذا الكلام مع قوم أراد الله لهم الذل والهوان وركبت نفوسهم على العنـــاد والطغيـــان ؟ قالوا : لقد سحره محمـــد . فقال : هـــذا رأيى .

ومضى قوم آخرون الى أبى طالب يقولون له : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليـــه من خلافة فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه .

وعادوا اليه مرة أخرى ، فقال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ، ان قومك قد جاءونى فقالوا لى : كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن النبى صلى الله عليه وسلم أن عمه قد بدا له أن يخذله ويسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه عمـــه أبو طالب فقال : أقبـــل يابن أخى ، فأقبل عليه الصلاة والسلام ، فقال : اذهب يابن أخى فقـــل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

ولكن الشىء العجيب فى المفاوضات والذى يدل على أفن الرأى وضعف العقـــل فعـــلا ما قام به القرشيون من عرضهم على أبى طالب أن يأخـــذ عمارة بن الوليد ، وكان فتى نهدا قويا جميلا ، ويسلمهم محمدا صلى الله عليه وسلم فيقتلونه وانما هو رجل برجل ، وثارت حماسة أبى طالب ونخوته فيرد عليهم قحتهم وسفههم فى عزم قائلا لهم : لبئس ما تسوموننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا ما لا يكون أبدا .

ويتدخل المطعم بن عـــدى فيقول : يا أبا طالب لقد أنصفك قومـــك فما أراك تقبـــل منهم شيئا ، فقـــال أبو طالب : والله ما أنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك .

المشركون يتحدون :

وحين فشلت طرق المفاوضات سلك المشركون طريق التحدى آملين تعجيزه فيكف عن هذه الدعوة ، لقد طلبوا منه أن يشق لهم القمر ، فشق

الله القمر نصفين ، وعاينوا هذه الآية ، ولكنهم صـــدوا عنها كبرا وعنادا وقالوا : لقد سحركم ابن أبى كبشة ، وأبو كبشة هو زوج حليمة السعدية التى أرضعته ، وكانوا يكنونه بهذا استهزاء به وسخرية منه ، وحكى القرآن الكريم هـــذه المعجزة فى أول ســـورة القمر وصور ما قالوا اجابة عليها : ((**اقتربت الساعة وانشق القمر — وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**)) .

وعادوا يطلبون منه آيات أخرى حكى بعضـــها القرآن الكريم ومنها ما جاء فى سورة الاسراء : ((**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا — أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كســفا أو تأتى بالله والملائكة قبيــلا — أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينـــا كتابا نقـــرؤه ، قل سبحان ربى هـــل كنت الا بشرا رســـولا**)) . آيات ٩٠ : ٩٣ .

كما عرضت سورة الأنعـــام ألوانا من هـــذا التحدى وردت عليه : ((**وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين — فقـــد كذبوا بالحق لمـــا جاءهم فسوف يأتيهم أنبـــاء ما كانوا به يستهزئون — ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهـــار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا بعدهم قرنا آخرين — ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين — وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون — ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون**)) الآيات ٤ : ٩ .

ولقد علم الله أن تحديهم هذا ليس مبعثه الرغبة فى الاسلام ولكنه لون من ألوان التعنت والعناد والاصرار على الباطل والتمادى فى الشر والاستمرار فى الطغيان حتى ولو أقسموا على غير ذلك ، كما حكى عنهم القرآن الكريم : ((**وأقسموا بالله جهـــد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بهـــا قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون — ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون — ولو أننا نزلنا اليهم**

الملائكة وكلمهم المـــوتى وحشرنا عليهم كل شىء قبـــلا ما كانوا ليؤمنـــوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » الأنعـــام ١٠٩ : ١١١ .

وحين لم يأت هذا التحدى بنتيجته المطلوبة ، ولما لم تلن قناة محمـــد بهذه السـخرية التى لقيها من قومه ، ولما لم يزده ويزد أصحابه تهديدهم ووعيدهم وتعذيبهم الا ايمانا وتسليما طلب النبى صلى الله عليـــه وسلم من أصحابه أن يهاجروا الى الحبشة قائلا لهم : تفرقوا فى الأرض فان الله سيجمعكم .

وهكذا كان أول وفد هاجر الى الحبشة كما قدمت ، ولكنه عاد بعد قليـــل .

ولقد كانت هذه الهجرة الى الحبشة اعلانا عن الاسلام فى غير دياره الأولى ، وهى أول رحلة للاسلام فى خارج الجزيرة العربية ، ولو أن أفرادها كانوا قليلى العـــدد ومدتهم لم تتجاوز الأشـــهر الا أنهـــا أرعت الأذهان الى الرسالة الجديدة وأذاعت خبر الدعوة الاسلامية فى خارج حدود الجزيرة العربية وكانت أول احتكاك عملى بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصارى ، فقد كان أهل الحبشة يعتنقون المسيحية .

اســـلام حمـــزة وعمـــر :

سبق اسلام حمزة هجره الحبشة بقليل . أما اسلام عمر فقد كان فى أثنائها . وسـبب اسلام حمزة فيما يرويه ابن هشام أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه واحتمل النبى صلى الله عليـــه وسلم فلم يرد عليه ، وسمعت جارية لعبـــد الله بن جـــدعان ورأت ما حدث ، وحين عاد حمزة من قنص له متوشحا قوسه — وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة — أخبرته الجارية بما حدث ، فغضب حمزة غضبا شديدا وولى وجهه شطر أبى جهل فى المسجد بين القوم فوقف على رأسه ، ورفع القوس فضربه بها فشجه شـــجة منكرة ، ثم قال : أتشتم محمـــدا وأنا على دينـــه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على ان استطعت ، فهم رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل على حمزة — فقال أبو جهـــل : دعوا أبا عمارة فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .. وتم لحمزة إسلامه .

وأمسكت قريش عن ابذاء الرسول بعض الشيء والى حين .

اما عمر فقــد أسلم حين سمع القرآن وقراه فى بيت أخته فاطمة ، وكان قبل ذلك قد عزم على قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وتوجه بعزمه الى ذلك ، ولكنه غــير طريقه الى بيت أخته حين أخبره فى الطريق نعيم ابن عبد الله باسلامها مع زوجها سعيد بن زيد وهو ابن عمها . ودق الباب بعنف ، وحين فتح له سعيد الباب قال عمر : ما هذه الهينمة التى سمعتها آنفا ، يشير الى صوت القراءة التى كان يقرئها اياها الخباب بن الأرت .

فقال سعيد : ما عدا حديثا كنا نتحدثه ، فأغلظ عمر القول وحاول أن يبطش به ، فدافعت عنــه زوجه فاطمة فشجها عمر حتى أسال الدم على وجهها . فلما رأى الدم يسيل على وجه أختــه ظهرت الرقة الدفينة فى قلبه وألان فى القول ، ولمح الصحيفة التى كانوا يقرءون فيها فرفضت أن تعطيه اياها حتى يتطهر ، وعلمه سعيد كيف يتطهر ..

وأخذ عمر يقرأ فى الصحيفة من أول سورة طه فخشع قلبه ، ورغب فى الاسلام وطلب من يدله على بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى يجتمع فيه مع أصحابه ، فظهر خباب من مخبئه الذى كان قد اختبأ فيه حين سمع صوت عمر وهو يطرق الباب . وقال خباب فرحا : لقد استجاب الله دعاء النبى صلى الله عليه وسلم حيث دعا : اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين اليك عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام (أبو جهل) .

واصطحب خباب عمر الى دار الأرقم بن أبى الأرقم التى يلتقى فيها النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وحين طرق عمر البــاب ، وعرفه المسلمون توجسوا منه خيفة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم أقبل عليه وجذبه من ردائه وقال له : أما آن لك أن تسلم حتى ينزل الله فيــك قارعة كقارعة الوليد ؟ فبادر عمر باسلامه ، وهلل المسلمون وكبروا ، وتهلل وجه النبى صلى الله عليه وسلم وأشرق .

وباســلام حمزة وعمر عز المسلمون بعض الشيء ولكن ذلك لم يزد قريشا الا جموحا فى الشر واستمرارا فى البغى ، حتى فكرت فى مقاطعة النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه بل ومقاطعــة بنى عبد المطلب الذين يناصرونه مقاطعة تامة .

الصحيفة الظالمة :

حين لم تلن قناة النبى صلى الله عليـه وسلم لمعارضة قريش له ، وحين استنفد المشركون كافة جهودهم فى حمل المسلمين على ترك دينهم ، وحين رأوا أن ساعد المسلمين قد اشـتد باسلام حمزة وعمر وبتزايد عدد المسلمين يوما بعد يوم لجأوا الى فرض حصـار شـديد حولهم ، وقرروا ألا يبيعوا لبنى عبـد المطلب شـيئا أو يبتـاعوا منهم وألا ينكحوا اليهم أو ينكحوهم ، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة .

وانحاز بنو هاشم جميعا وبنو المطلب الى أبى طالب والمسلمين وخرج أبو لهب على اجماع ذوى قرباه فانحاز الى صفوف المشركين وتزعم حركة المقاطعـة ، فكان اذا جاء التجار جعل يحرضهم على أن يغلوا على أهل الشعب الذى انحاز فيه بنو عبد المطلب والمسلمون حتى ييئسهم من الشراء ، ثم يعود هو الى التجار فيشترى منهم بما أرادوا .

الهجرة الثانيـة :

وقد أحس النبى صلى الله عليه وسلم بما يوشك المسلمون أن يتعرضوا له من أذى شديد وضيق وألم بسبب المقاطعة فنصحهم بالهجرة مرة أخرى الى الحبشة ، فخرج فى هـذه المرة عدد أكبر ممن خرج فى المرة الأولى . فقد بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلا .

واحسن النجاشى جوار ضيوفه كما أحسن فى المرة الأولى . ولكن المشركين حاولوا أن يردوا هؤلاء المهـاجرين فأرسلوا خلفهم وفدا مثقـلا بالهدايا للنجاشى وحاشيته وبطارقته .

ووصل عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص زعيما الوفد الى بلاط النجاشى ووزعا الهدايا المستطرفة على الحاشية والبطارقة وكلماهم فى شأن المسلمين المهاجرين حتى أوغرا صدورهم عليهم .

ثم تقـدما الى النجاشى بهديتـه — وكان الذى يعجب الأحبـاش حين يذهبون الى مكة الأدم ، فجمعت قريش منه فى هديتها الكثير — ثم قالا له ما قالاه لبطارقته .

قالا له : انه قد ضــوى — لجأ — الى بلد الملك منا غلمان ســفهاء فارقوا دين آبائهم ولم يدخلوا فى دين الملك ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا أشراف قومهم الى الملك لتردهم اليهم فان قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوه عليهم .

وزكى البطارقة الذين أغرتهم الهدايا كلام هذين الرسولين ، فقالوا للملك : صــدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينــا وأعلم بما عابوه عليهم فأسلمهم اليهما .

ولكن النجاشى الذى قال النبى صلى الله عليــه وســلم فى حقــه : انه لا يظلم عنده أحد غضب غضبا شديدا ، ثم قال : لاها الله ، اذن لا أسلمهم اليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من ســواى حتى أدعوهم فأســألهم عما يقول هــذان فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

حوار فى بلاط النجاشى :

وأرســل النجاشى الى المسلمين فحضروا وهم عاقدون أمرهم على أن يصدقوا الخبر وما أمرهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم كائنا ما يكون ، ودعا أساقفته فجاءوا وقد نشروا مصاحفهم حوله .

قال النجاشى للمسلمين : ما هــذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟.

فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رســولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبــد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصــدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجــوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله .. فعــدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان .. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينــا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنــا الى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك .

قال النجاشى : هل معك مما جاء به شىء عن الله ؟ فقرأ عليه جعفر من أول سورة مريم آيات . فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال النجاشى : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحــدة ، ثم التفت الى الرسولين وقال لهما : انطلقــا فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون .

فلما خرج عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وقد خذلا قال عمرو : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله — وكان أتقى من عمرو في هؤلاء المهاجرين — : لا تفعل فان لهم أرحاما وان كانوا قد خالفونا .

قال عمرو : والله لأخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه من الغد فقال : أيها الملك انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم النجاشى فسألهم عما يقولون فى شأن عيسى ، فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : نقول فيه ما قال الله تعالى فيــه : عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشى بيده الى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود .

فتناخرت البطارقة من حوله فقال : وان نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شــيوم بأرضى أى آمنون ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبرا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم — والدبر بلغــة الحبشة الجبــل — ثم التفت الى من حوله وقال : ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى حتى آخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيهم ، قال ابن اسحاق فى روايته تلك عن أم سلمة رضى الله عنها : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ، وكان هذا الملك قد غصب ملكه ثم رد اليــه .

وهكذا انتصر الله لهؤلاء المهاجرين على يد الملك العادل الذى ضرب أروع الأمثلة فى حفظ الجوار وانصاف المظلوم ، وان الهدايا المستطرفة لم تطرف عينه ولم تغلقها عن معرفة الحق والتثبت منه ، وأن فى القصة لدلالات تشير الى أن أهم ما يفسد الملوك هم الحاشية التى تحيط بهم ، فقد لجأ الرسولان القرشيان الى تلك الحاشية قبل أن يلجئا الى الملك حتى يستظهر بهما عليه ، ولكن الحاكم الفطن لا يخفى عليه وجه الحق مهما زيفه المغرضون ومهما زين الباطل المبطلون .

ولقد عرفنا من القصة أن هناك من النصارى من كانت له عقيدة حسنة فى المسيح ، فلم ينساقوا وراء التحريف الذى جعل المسيح ابن الله ، أو وراء التحريف الذى قال بأن الله ثالث ثلاثة ، وان الذى على عقيدة صحيحة فى النصرانية لا يتردد فى الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم حينما نبلغه ، لأن الحق لا يتعدد ولأن دين الله واحد وان تعدد الرسل .

وانظر الى عقيدة الاسلام حينما تستحكم فى القلب ، انها تمده بقوة روحية لا تخشى الصعاب ولا تفرق أمام النوائب ، ولقد حافظ هؤلاء المهاجرون على عقيدتهم ، بل كان فرارهم من أوطانهم ولجوؤهم الى الحبشة من أجل المحافظة عليها ، واذن فالعقيدة أقوى من الوطن واحب للمؤمن من الأهل والولد وأغلى من النفس والنفيس ، والا ما فارق هؤلاء أوطانهم التى فيها متاعهم ومتقلبهم ومثواهم الى وطن ناء غريب عنهم فى لغته وعقيدته وعاداته وتقاليده ، ما حملهم على ذلك الا المحافظة على دينهم الذى اعتنقوه طوعا ومن غير اكراه ، وفى سبيله تحملوا كل أنواع المشقات والايذاء ، ان فى هؤلاء المهاجرين ضعافا وشيوخا ونساء وأطفالا ، ومع ذلك لم يعق هؤلاء شىء عن الانطلاق فى الآفاق بحثا عن مكان آمن يمارسون فيه شعائرهم فى حرية وهدوء لا يطلبون من متاع الدنيا شيئا سوى ما يسد الرمق ويستر الجسد ويروى الظمأ ، وفيهم من خلف من ورائه ثروة طائلة لم يحسب لها فى سبيل الهجرة أى حساب .

ألا ما أروع الايمان وما أعظمه حين يتربع على عرش القلوب ، ان صاحبه يحسب أنه بلغ قمة السعادة وملك أعظم ثروة فى الوجود ، انها ثروة يهون بجانبها ملك المالكين وسلطان المتسلطين وكنوز الدنيا جميعها ،

انها لذة يحق لأحد الصالحين ان يقول فيهـــا : نحن فى لذة لو أدركها الملوك لقاتلونا عليهـــا بالســـيوف . وانه ليحق له أن يقول ذلك ، اليس الايمان هو الذى يعرفه على رب الأرباب ، ويوصـــله الى حضرة الله الذى فى يده ملكوت كل شىء ، فكيف لا يتلذذ بذلك ويستعذب فى سبيله الموت ؟ ولو نظرنا الى عالم الواقع أدركنا أن رب التاج قد يتخلى عن تاجه فى ســـبيل امرأة ترابية يحبهـــا ، وان التاجر قد يقتحم المخاطر فى ســـبيل سلعة يروجهـــا أو تجارة يكسب منها ، وتلك لذات حسية فانية فكيف تكون اذن لذة محبة الله الباقى ؟ وكيف تكون لذة الربح من المتاجرة معه ؟ انه لشىء يعز على العبارة أن تبلغ مداه ويستعصى على العقل أن يدرك فحواه ؟.

نقض الصحيفة :

مر بنا كيف تعاقدت قريش على مقاطعـــة بنى هاشم وبنى المطلب وقد كتبوا بذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة . لقد استمرت هذه المقاطعة زهاء ثلاث سنوات نال فيها المسلمين ضر شديد ومسهم أذى بالغ .

ولم يقتصر هـــذا الجهد على من أسلم بل امتد الى كل من أيد النبى صلى الله عليـــه وسلم من قومه من بنى هاشم وبنى عبـــد المطلب ولدى عبد مناف ، ولم يخرج على هذا الاجماع — كما قدمت — سوى أبى لهب الذى قاسى منه المسلمون مقاساة عنيفة كما قاسوا من غيره من المشركين كذلك .

لقد بلغ الأمر بالمحصورين فى الشعب الذى أقاموا فيه بعد خروجهم من مكة أن أكلوا ورق الشجر ولم يجدهم شـــيئا وهزل النـــاس وشحبت وجوههم وتقرحت اشداقهم واعترتهم الأمراض ولم ينقطع بكاء الأطفـــال ، وكان القرشيون فى منتهى القسوة حين فعلوا ذلك بأهليهم وذوى قرباهم ، وأن دل ذلك على شىء فانما يدل على تلك الطبائع الجافية والقلوب القاسية ، ولو أراد الله بهم خيرا لرزقهم مسا من الرحمة وطيفا من الرقة التى تحيـــا عليها القلوب ، وانه ليدل على غاية اللؤم الذى يحيـــل الأفئدة الى جلامد لا تشعر بعواطف الخير والحنان ولكنها تتغذى على عقد الشر والايذاء ، وقديما أوصت أعرابيـــة ابنهـــا فقالت له : واذا هززت فاهزز كريما يلين لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها .

أجل فكيف يسيغ الانسان لنفسه أن يهنأ بطعام وشراب ومن حوله اناس يجوعون وأطفـــال يتضاغون جوعا ويتساقطون من الهزال تساقط اوراق الشجر ، فما بالك اذا كان هؤلاء الناس من ذوى قرباه ؟ انه لا يسيغ لنفسه ذلك الا اذا كان صخرة لا ينفجر ماؤها كما تقول الأعرابية .

ولكن الذى يحمد للمسلمين حقا ومن معهم صبرهم على هـــذه الحال قرابة ثلاثة أعوام ، لم يصبهم الضجر ولم يراودهم اليأس ، بل كان يحدوهم الأمل فى رحمة الله ويحرسهم الايمان بنصر الله .

وفى حلكة الظلام ينفجر النور ، ويشاء الله أن يفت فى عضد المشركين من أنفسهم ويفرق جماعتهم من خلالهم ، فيبعث فى قلوب بعضـــهم بصيصا من نور فيوقفهم على مدى ما تورطوا فيه من شر وما ترددوا فيه من ضعة .

كان هشام بن عمرو بن ربيعـــة يحس فى قرارة نفسه بهـــذا الظلم الذى ارتكس فيه قومه فيحاول أن يخفف حدته ببعض الأعمال الفردية ، فيأتى بالبعير — وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلا — قد أوقره طعاما أو بزا أو برا حتى اذا أقبـــل به على فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبـــه فيدخل الشعب عليهم ، فيأخـــذه هؤلاء المحاصرون فيفرجون به بعض ضوائقهم .

وهو عمل مشكور يدل على أريحيـــة ومروءة ، ولكنه أراد أن يخطو خطوة أكبر فى سبيل فك هذا الحصار الشديد ، فمشى الى زهير بن أميـــة ابن المغيرة المخزومى ، فقال له : يا زهير ، أوقد رضيت أن تأكل الطعـــام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينحكون ولا ينكح اليهم ؟ اما انى احلف بالله لو كانوا اخوال أبى الحـــكم ابن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا .

قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجـــلا . قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثـــا .

فذهب الى المطعم بن عـــدى فدعاه الى مثل ما دعا اليـــه زهير ، فقال له : وما اصنع وانما أنا رجل واحد ؟ قال هشام : لقد وجــدت ثانيا »

قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنا ثالثـا ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال له : ابغنا رابعا .

فمضى الى البخترى بن هشـام فعرض عليـه الأمر ، فقـال له : هل من يعين على ذلك ؟ قال له : نعم ، أنا وزهـير والمطعم ، فقـال له : ابغنـا خامسا .

فذهب الى زمعة بن الأسود وعرض عليه الأمر ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى اليه من أحد ؟ قال : نعم ، وسمى له القوم .

فاتعدوا خطم الحجون (١) ليلا بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك وتوافقوا وتعاهدوا على نقض الصحيفة من الغد وأن زهيرا أول من يتكلم .

وحين أصبحوا وغدوا الى أنديتهم أقبـل زهير على النـاس فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة .

قال أبو جهل — وكان فى ناحية من المسجد — : كذبت والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله اكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

قال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى فيه بليل ، تشوور فيـه بغير هـذا المكان ، كل ذلك وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد لا يتكلم . فقام المطعم ابن عدى الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد اكلتها الا كلمتى : باسمك اللهم .

ويروى ابن هشام أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عمـه ابا طالب أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة الا باسمك اللهم ، فوجـد الأمر كما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اخبار النبى صلى الله عليه وسلم كافيا ليرد القوم الى صوابهم ويكفوا عن عدوانهم ، ولكن ذلك لم يزدهم الا شرا وتماديا فى الظلم .

---

(١) خطم الشيء مقدمته ، والحجون : موضع باعلى مكة .

ولقد عاقب الله كاتب هذه الصحيفة الظالمة ، وهو منصور بن عكرمة بأن شلت يده ، وقيل ان كاتبها غيره .

وفد من النصــارى :

ولقد أراد الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يعتصم بالأمل والتفاؤل ، فكان يرسل له بين الحين ما يزيده أمنا واطمئنانا ، ففى خلال هــذا الظلام الحالك ، أقبل عليه من الحبشة وفد من النصارى قرابة عشرين رجــلا ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ـــ والقرشيون فى أنديتهم حول الكعبة ينظرون ـــ فلما فرغوا من مسألة النبى صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت عيونهم بالدمع ، ثم استجابوا لله ورسوله وآمنوا وصدقوا ، وعرفوا أن ما أخبرت به كتبهم عن النبى العربى المنتظر حق وصدق ، ولكن هــذا الوفد لم يسلم من سخرية قريش وأذاهم ، فقــد قالوا لهم : ما رأينا ركبا أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم . فقال الوفد : سلام عليكم لا نجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، وســجل القرآن الكريم قصة هذا الوفد واسلامه فى قوله تعــالى : ((**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ـــ واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنــا انا كنا من قبله مسلمين ـــ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ـــ واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنــا أعمالنــا ولكم أعمالكم ســلام عليــكم لا نبتغى الجاهلين**)) القصص ٥٢ ـــ ٥٥ .

يصدون النــاس عن لقــاء محمــد :

ان قريشا أعمتها الجاهلية حتى لقــد صدتها عن كل عرف وتقليــد فهى لا تعرف للضيف حقا أقله ألا تسمعه ما يكره ، ولكن أمر الدين الجديد ما زال يخيفها ويفزعها حتى جعلها لا تفرق بين الصواب والخطأ .

ولقد أبى عليها تعصبها الا أن تحاول أن تصم آذان الناس جميعــا فلا يستمعون الى آية من القرآن ، وأن تعميهم جميعــا فلا يرون محمــدا أو أحدا من صحبه ـــ يحدث ابن اسحاق قائلا : وكان رسول الله صلى الله

عليه وسلم على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم الى النجاة مما هم فيــه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون منه النـاس ومن قدم عليهم من العرب ، حدث الطفيل بن عمرو الدوسى قائلا : انه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، فمشى اليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فقالوا له : يا طفيـل انك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وانا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غـدوت الى المسجد كرسـفا — قطنا — فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله الا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته وان كان قبيحا تركته ؟.

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته فاتبعته حتى اذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ، ان قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف ملا أسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسـنا فاعرض على أمرك .

قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ا
القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منـه ولا أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت : يا نبى الله انى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع اليهم وداعيهم الى الاسلام فادع الله ان يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما ادعوهم اليه ، فقال : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت الى قومى حتى اذا كنت بثنيـــة تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل المصباح ، فقلت : اللهم فى غير وجهى ، انى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم ، قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى . فجعل الحاضر — القبيلة النازلة على الماء — يتراءون ذلك النور فى ســـوطى كالقنـــديل المعلق وأنا أهبط اليهم من الثنية — ما انفرج بين الجبلين — حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

ويمضى الطفيل فى سرد قصته التى يرويها ابن اسحاق ، حتى يقول : ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، حتى نزلت بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، وأسهم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين .

وكانت دوس قد أبطأت فى اسلامها على الطفيل فطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم ، ولكن الرسول الرحمـــة دعا لهم قائلا : اللهم اهد دوسا وأجاب الله دعاءه .

هـــذه الرحمة الشاملة التى أرسلها الله للناس لتنقذهم من الظـــلام المحيط بهم وتأخذ بيدهم الى النور الذى جاء به ((**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين — يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل الســـلام ويخرجهم من الظلمات الى النـــور ...**)) المائدة ١٥ ، ١٦ .

يالقريش وفظاظتها وجهالتها ، انها لا تريد أن تأخذ حظها من الضلال وحدها ، لكنها تريد أن تشرك الناس جميعا فيـــه . وهى تحاول أن تصد الناس عن الهـــدى ولكن الله يأبى ذلك ، فالهـــداية والضلال بيد الله ، وهى بقدرتها ومكرها وكيدها كله لا تستطيع أن تضل من أراد الله هدايته ، كما أنه ليس فى مقدور أحد — ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يهـــدى فردا أراد الله له الضلالة ، وصدق الله جل وعـــلا اذ يقول : ((**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاســـلام ومن يرد أن يضله يجعـــل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**)) الأنعـــام ١٢٥ .

عام الحـــزن :

ويشاء الله جلت قدرته أن يعرض حبيبـــه وصفيه لامتحان عســـير من لون آخر . . كان قد مضى على البعثة نحو من عشر سنين ، لم تكل فيها عزيمة النبى صلى الله عليـــه وسلم عن الدعوة الى ربه وتبليغ رسالته ، وقد وجد من حماية عمه أبى طالب الزعيم الموقر فى قريش ، ومن زوجتـــه الشريفة المطهرة السيدة خديجة رضى الله عنها كل عون مادى وأدبى .

كانت قريش على الرغم من كراهيتها لدعوة محمد لا تستطيع أن تنال منه مأربها احتراما لأبى طالب ، وفى هذا العام العاشر ماتت الزوجة الوفية المواسيه لزوجها بكل ما تملك من جهد وطاقة وبعدها بقليـــل مات عمـــه أبو طالب الذى كان بالنسبة له عضدا وعونا .

لم تستطع قريش أن تنال من النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى الذى تريد الا بعد وفاة عمـــه أبى طالب . قال ابن هشـــام فيما يرويه : ان سفيها من سفهاء قريش اعترض طريقه فنثر على راسه ترابا ، ودخل النبى صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على راسه ، فقامت احدى بناته فغسلت عنه التراب وهى تبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبكى يا بنية فان الله مانع أباك .

والمـــوت لغز الحيـــاة الأبدى ، احتفظ الله لذاته بسره ، وان كانت حكمته التى أشار اليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ((**هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمـــلا**)) الملك ٢ — تنادى الانسيـــان بأن يدخر من حسن العمل ما ينفعه فى معاده ويسعده فى آخرته .

والموت قدر الله الغالب لا ينجو منه أحـــد ولا يغلبه غالب ، يفاجىء أحب الناس الى الانسان فلا يملك له دفعا ولو استطاع أن يفديه لفـــداه بأعز ما يملك ، يأخذ الصغير كما يأخذ الكبير ، وربما يؤخر الكبير ويختطف الصـــغير ، كل ذلك لحكمة لا يعلمها الا ســـيد هـــذا الوجود وخالقـــه ((**والله خلقكم من تراب ثم من نطفـــة ثم جعلكم أزواجا وما تحمـــل من أنثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ان ذلك على الله يســـير**)) فاطر ١١ .

والموت نهاية كل حى لمصلحة الحى نفسه ، ولو خلد الناس ما كان للحياة طعمها الحلو الذى يتنافس فيه الناس وعليه يتقاتلون ، ففى الفناء سر البقاء ، ومن عجب أن معرفة الناس بالموت وحتميته لا يوقفهم عند حد فى التصارع والتقاتل كأنهم فى دنياهم على موثق من الخلود ، ولذلك حكمة عليا أرادها الله حتى يبقى على نعمير الحيـاة واستمرارها ، ان من نحبه يمكن أن نكرهه لو استمرت الحياه ولم يكن للعمر تلك النهاية المأسوية ، ومنذ زمن قلت هذا البيت فى رثاء صديق عزيز :

ولولا وجـود الموت فينـا لأصبحت
أزاهرنا شـوكا يصـد ويبعـد

لقد قضى الله على نبيه أن يفقد زوجته وعمه متعاقبين فى أيام قلائل ، لأنه أراد له أن يكون القدوة المثلى فى الصبر الأمثـل والتأسى الجميـل ، لقد ابتلى النبى صلى الله عليه وسلم بأقسى ما يبتلى به الانسان فلم يجزع ولم يفرق ، ولكنه كان خير معتصم بجناب ربه لائذ بحمى مولاه ، وليس غريبا على الذى فقد أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو فى الخامسة ، وجده الذى كان عوضا عن والده وهو فى الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا ، وعزاه الله عن ذلك عزاء جميلا ، ليس غريبا أن يعزيه الله أيضـا عن فقد العم وفقد الزوجه ، وعزاء الله خير عزاء .

لقد أراد الله للدولة الاسلامية أن تقوم أعمدتها على كواهل المسلمين أنفسهم وابو طالب ناصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته حتى نجح المسلمون فى بناء دولتهم لنسب الناس ذلك الى زعامة هذا العم ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه وأحرص على توطيده بجنود الايمان وأبناء الاسـلام .

أما اطلاق عام الحزن على هذا العـام فليس مرده الى حزن النبى صلى الله عليه وسلم على فقد عمه وزوجه ، فالنبى صلى الله عليه وسلم أصبر من أن تهزه أحداث الموت ولو كانت مزلزلة ، وهو أعرف الناس بالله وأقربهم منه ، وما شغل قلبه الا الدعوة الاسلامية والحرص على ابلاغها للناس والحرص على هدايتهم .. هذا هو الذى أحزنه ، أحزنه أن هـذه الوفاة كان لها أثر فى انطلاق وحوش قريش يقطعون الطريق فى وجه الدعوة

ويبطشون بكل من يعلن اسلامه حتى خاطبه الحق بقوله : ((**فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**)) الكهف ٦ .

ولقد صور الله سبب حزنه الحقيقى فى قوله تعالى : ((**ولقد نعلم انه ليحزنك الذين يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**)) الأنعام ٣٣ .

محاولة مع ثقيف :

وحين استبد الألم بالمسلمين فى مكة وتعرض النبى صلى الله عليه وسلم للمضايقات الشديده بعد موت عمه ، وكثر المعارضون والمستهزئون حاول أن يقصد الطائف يلتمس النصرة من ثقيف على قومه ، راجيا أن يقبلوا دعوته فيهتدوا الى الاسلام .

واصطحب فى طريقه مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أحب الناس اليه ، واطلق عليه اسم زيد بن محمد ، لأن زيدا كان قد اختاره على ابيه وعمه حين وفد الى مكة لاسترداده ، وكان زيد قد اختطف صغيرا وبيع فى مكة بيع الرقيق فاشترته السيدة خديجة رضى الله عنها ووهبته لزوجها محمد صلى الله عليه وسلم ، ونشأ زيد فى رعاية النبى صلى الله عليه وسلم واحبه حبا شديدا وآثره على نفسه وكان أول من آمن به من الأرقاء .

ولكن ثقيفا لم يوفقها الله لحسن استقبال النبى صلى الله عليه وسلم ، فأغلق عيونها وقلوبها عن الحق ، وأصم آذانها عن الهدى ، بل كانوا فى صورة جافية عن المروءة متنافية مع الشهامة ، ولم يكتفوا برده أسوأ رد وهو ضيف مستجير ، بل أغروا به سفهاءهم يسمعونه قارص الكلام ويرجمونه هو ومن معه بالأحجار حتى دميت قدماه وشج رأس زيد ، وطلب منهم أن يكتموا ما فعلوا به اذ لم يستجيبوا له حتى لا يثيروا عليه قريشا ، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك أيضا .

ولجأ عليه الصلاة والسلام مجهدا الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه .

وعاد السفهاء يتضاحكون ويتعابثون ، وجلس هو فى ظل شجرة عنب يناجى ربه قائلا : اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على

الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك .

لله أنت يا سيدى يا رسول الله ، ما أعظمك وما أعظم ما قمت به ، وما أروعك وما أروع كفاحك وما أنبلك وأنبل مقصدك ، وما أقسى القلوب التى كذبتك وآذتك ، ان أقسى ما يلاقيه الانسان أن يقدم الخير فلا يجد الا الشر جزاء له ، ويصنع الجميل فيجزيه من يقدمه اليه بالقبيح ، ولقد ذهب النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف فى محاولة لهدايتهم ، ولو أنهم حققوا رجاءه لكان لهم فى ذلك عز الدنيا والآخرة ، ولكن كانت لهم قلوب غلف وعيون عمى وأسماع صم .

وقد وطن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على أن يتحمل فى سبيل هذه الدعوة كل صعب ، وفى رضاء الله نهون الآلام وتلذ المتاعب ويعذب الموت . لقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مناجاته لربه : ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ثم استدرك قائلا : ولكن عافيتك أوسع لى ، وفى ذلك تأديب لنا وتعليم لنا كيف نناجى الله ، فمهما بلغ حب الانسان لله فلا ينبغى له أن يقف أمام امتحان الله الا موقف الضعيف المستغيث ، والدعاء مخ العبادة كما ورد فى حديث شريف رواه النعمان بن بشير ، والله يقول لنا : ((**قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم**)) الفرقان ٧٧ .

ومما يدخل فى نطاق الأدب فى المناجاة ما يرويه السلمى فى طبقات الصوفية عن سمنون المحب ، حيث قال ذات مرة مخاطبا ربه تعالى : وبما شئت فى هواك اختبرنى . وأصيب بحبس البول فلم يستطع الصمود ، فطاف على صبيان المكاتب يقول لهم : ادعوا لعمكم الكذاب ، يقصد أنه كان كاذبا فى ادعائه الصمود للاختبار .

ما أرأفك يا سيدى يا رسول الله وما أحكمك وما أعظمك ، انك تبعث لنا من هديك نورا نستضىء به فى ظلمات الحياة .

وأنزل الله الرقة فى قلب ابنى ربيعة حين رأيا النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا اسمه عداس ، وقالا له : خذ قطفا من العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل .

ففعل عداس ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى الطبق قال : باسم الله ثم أكل . فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى من نينوى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما عاد عداس اليهما قالا له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : ما فى الأرض خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه الا نبى .

وكذلك يشاء الله ألا يصرف نبيه من هذا المكان وهو يائس ، لقد اهتدى على يديه رجل ، وما اهتداء رجل واحد بالشىء الهين القليل ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم يوما لعلى بن أبى طالب وهو يفتح خيبر : لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

ويشاء الله ألا يكون هذا الرجل من هذه الديار ، كأن حكمة الله أبت الا أن تكون نصرة نبيه من غير هذا الصقع الجافى .

ايمان الجن :

ولكن الحكمة البالغة تبدو فى ايمان الجن به فى هذه الرحلة ، لقد انصرف الانس عن دعوته ، فليقبل الجن على هذه الدعوة ، وليشهد الكون على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للانس والجن بل والملائكة أيضا .

فحين قفل النبى صلى الله عليه وسلم راجعا من الطائف فى طريقه

الى مكة ، قام فى جوف الليل يصلى فى واد اسمه نخلة ، فانصرف اليه نفر من الجن استمعوا القرآن فأسلموا على يديه ، وقص الله قصتهم فى القرآن الكريم فى قوله تعـالى : ((**اذ صرفنا اليـك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين — قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعـد موسى مصدقا لما بين يديه يهـدى الى الحق والى طريق مستقيم — يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عـذاب أليم — ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين**)) الأحقاف ٢٦ : ٣٢ .

ونزلت سورة الجن لتؤكد رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى الجن ، كما نزلت سورة الرحمن مؤيدة لذلك أيضا ، اذ الخطاب فيها موجه للانس والجن معـا .

أى تعزية للنبى صلى الله عليـه وسلم أبلغ من هـذا ؟ لئن كذب به الانس فقد آمن به الجن ، ولقد كان بوسعه لو أراد أن يستعين بهم على الانس ، ولكنه عف عن ذلك ، فانه لم يرد أن تنتشر رسالته بغير طريقها الطبيعى المرسوم ، لقد قرر أن يسير فى طريق الدعوة الى نهايتهـا امتثالا لقول الحق : ((**ادع الى سـبيل ربك بالحكمة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**)) النحل ١٢٥ .

والدعـوة حين تسلك الطريق الطبيعى تترك أثرها القـوى الخالد فى النفوس ، وتأخذ سبيلها الى القلوب والعقول بالمنطق السليم والبيـان الواضح والاقناع القوى .

ولقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم فى هـذه الرحلة أروع آيات الرحمة ، فقد حدثوا أن جبريل عليه السلام جاء للنبى صلى الله عليه وسلم يقول له : ان الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك ، فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون .

وحدثوا بأن ملك الجبـال قال له : مرنى لأطبقن عليهم الأخشبين — جبلين — فقال : دعهم فانى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله . فقيل له : صدق من سماك الرءوف الرحيم .

ما أرحمك يا سيدى يا رسول الله وما أجدرك بقوله تعالى فى نهاية سورة التوبة : ((**لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**)) .

وعاد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يستطع دخولها — وهو رسول الله المستجاب الدعوة — الا فى حماية المطعم بن عدى ، وهذا هو منطق الواقع الذى أراد رسول الله أن يحدث به الناس ويواجههم به ، واستجاب المطعم بن عدى — على كفره — لطلب النبى صلى الله عليه وسلم فتسلح هو وبنوه والتفوا حوله ، فقال له المشركون : أمجير أم متابع ؟ فقال لهم : مجير ، فقالوا : لقد أجرنا من أجرت .

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم يريد أن يعلمنا بذلك جواز الاستعانة بالكافر على الكافر ، أما الاستعانة بالكافر على المؤمن فلا وألف لا . .

الاسراء والمعراج :

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يشرف نبيه ويعلى قدره ويعزيه عما لقيه من تكذيب قومه ويريه من آياته الكبرى ، فأسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من هناك الى السموات العلا .

وأشار القرآن الكريم الى الاسراء وحكمته فى قوله تعالى : ((**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير**)) كما أشار الى المعراج فى أول سورة النجم حيث قال : ((**ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى — عندها جنة المأوى — اذ يغشى السدرة ما يغشى — ما زاغ البصر وما طغى — لقد رأى من آيات ربه الكبرى**)) .

وقصة ذلك فيما ترويه الكتب الصحيحة عن انس وابن مسعود ومالك بن صعصعة — رضى الله عنهم — أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث عن ليلة أسرى به قال ما خلاصته : بينما هو فى الحطيم — أو الحجر — مضطجعا اذ أتاه آت فشق ما بين ثغره الى نحره الى شعرته ، فاستخرج قلبه ، ثم أتى بطشت من ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبه ثم حشى ثم أعيد ،

ثم أتى بالبراق يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحمل عليه فانطلق به جبريل حتى أتى باب المقدس ، فربط البراق بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ، ثم دخل المسجد فوجد فيه ابراهيم الخليل وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ، ثم أتى باناء من خمر واناء من لبن واناء من ماء ، فأخذ اللبن فشرب فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك . ثم عرج به الى السماء ، حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء ..

وما زال يرقى فى السموات ويستقبل بالترحيب فى كل سماء حتى رفع الى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة ، ثم رفع الى البيت المعمور فاذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ، وفرضت عليه الصـــلاة . خمسون صـــلاة كل يوم ، وعند رجوعه مر على موسى ابن عمران عليه الســـلام فقال له : ان أمتك لا تستطيع خمسين صـــلاة كل يوم ، وانى والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى اسرائيل أشـــد المعالجة ، فارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، فرجع فوضع عنه عشرا ، فقال موسى مثل ما قال أولا فعاد ووضع عنه عشرا أخرى ، وما زال يسأل التخفيف حتى وصلت الى خمس فى العدد مع بقاء أجر الخمسين لها .

وحـــديث الاسراء والمعراج عجيب ترتب على غرابته ارتداد بعض ضعاف الاسلام ، وهـــذا دليل قاطع على أن الاسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معا ، فلو كانا رؤيا لما عد الأمر غريبا ، وكون هذا الحدث بالجسد لا يتنافى مع قدرة الله التى تقول للشىء كن فيكون ، وهو معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وشرط المعجزة أن تكون خارقة للعـــادة .

والنبى صلى الله عليـــه وسلم لم يسر بنفسه ولكن الله جلت قدرته هو الذى أسرى به ، وأعطاه القابلية والامكانية لاختراق الفضـــاء ومنحه الصلاحية الكاملة لذلك ولولوج أبواب السماء ، واذا كان العلم بمعطياته الحديثة وهب الانســـان قدرات فائقة مكنته من اختراق الحواجز وتخطى المعوقات حتى وضع قدمه على القمر وربما يضعها على كواكب أخرى ، أفلا يكون فى قدرة الله واهب العـــلم للانسان وهاديه للابتكار والاختراع

أن يصل بعبده الذى اصطفاه الى ملكوت السماء ويحمله فى أسرع من لمح البصر من مكة الى بيت المقدس ثم يصعد به بعد ذلك الى السماء ؟.

لقد تحدث العلماء الأجلاء فى ذلك كثيرا ، وليس لى ما أضيفه الى كلامهم الراقى الذى أرادوا به أن يثبتوا هذا الحدث بالجسد والروح ، ان هذا أمر داخل فى نطاق المعجزة ، والمعجزة شىء ثابت بالدليل العقلى والنقلى للأنبياء عليهم السلام فهى الدليل على صدقهم ، وليس تحول الحديد الصلب عجينا لينـــا فى يد داود يصنع منه ما يشـــاء ، وانقلاب العصا فى يد موسى بأقل من أن يمتطى النبى صلى الله عليه وسلم براقا يضع حافره عند منتهى بصره فينتقـــل فى مثل اللمح الى بيت المقـــدس او أن ينصب له المعراج فيرتقى الى السموات السبع ، فكل هذه الأمور خارقة للمعتاد .

ولئن حاولت أن تفلسف الأمر عقليـــا لمـــا أعجزك ذلك ، فالمعجزة كما يقول العلماء أمر خارج على المألوف ، وكم من الأمور يستغربها الناس فى زمن ويعتادونها فى زمن آخر ، ولو قيل لشخص فى القرن الأول : ان انسانا فى يده جهاز يستطيع أن يكلم به أخاه فى أقصى الأرض لاعتبر أن الذى يقول له هذا الكلام مجنونا ، أما الآن فهو شىء عادى جدا ، وقس على ذلك — كما يقول الدكتور محمد سعيد البوطى فى كتاب فقـــه السيرة — : ان المألوف وغـــير المألوف معجزة فى أصله ، فالكواكب معجزة وحركة الأفلاك معجزة وقانون الجاذبية معجزة والمجموعة العصبية فى الانســـان معجزة والدورة الدموية معجزة والروح معجزة والانسان نفسه معجزة ، وكم كان دقيقـــا ذلك العالم الفرنسى شاتوبريان الذى أطلق على الانســـان اسم الحيوان الميتافيزيقى أى الحيوان الغيبى المجهول ، غير أن الانسان ينسى من طول الالف واستمرار العادة وجه المعجزة وقيمتها فى هذا كله فيحسب جهلا منه وغرورا أن المعجزة هى تلك التى تفاجىء ما ألفه واعتاده فقط ، ثم يمضى يتخذ مما ألفه واعتاده مقياسا لايمانه بالأشياء وكفره بها ، وهذا جهل عجيب من الانسان مهما ترقى فى مدارج العلم والمدنية ، وتأمل يسير من الانسان يوضح له بجلاء أن الاله الذى خلق معجزة هذا الكون ليس عسيرا عليـــه أن يزيد فيه معجزة أخرى ، أو أن يبدل ويغير فى بعض أنظمته التى أنشأ العالم عليها ، ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الانكليزى وليم جونز

حينما قال : القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شىء منه أو اضافة شىء اليه ، ومن السهل أن يقال عنه انه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقال عنه انه غير متصور ليس غير متصور الى درجة وجود العالم ، يقصد أنه لو كان هذا العالم غير موجود وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق : سيوجد عالم كذا ، فانه سيجيب رأسا ان هذا غير متصور ، ويكون نفيه لتصور ذلك أشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات ، فهذا ما ينبغى أن يفهمه كل مسلم عن الرســـول صلى الله عليه وسلم وما أكرمه الله به من المعجزات » .

ويؤخذ من حدث الاسراء والمعراج سلامة الفطرة التى يلتقى معهـا الدين الاسلامى حيث أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأوانى الخمر والماء واللبن فاختار اللبن ، فقيل له : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك ، والفطرة هى التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله : ((**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**)) البقرة ١٣٨ — وهى : ((**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**)) الروم ٣٠ — ولو ترك الانســـان حرا فى تفكيره وكان ذا منطق سليم وعقل حكيم وحاول أن يصـــل بفكره الى الدين الصحيح لاهتـــدى الى الاسلام ، ولكن الذى يحول بين الناس وبين الاسلام هو تلك الحواجز المصطنعة والضلالات الشائعة والعادات الفاسدة والمبـــادىء الهدامة ، وهو ذلك الزيف الذى يقدم للناس باسم الدين والدين منه براء .

كما يؤخذ منه أيضا أهمية الصلاة ومنزلتها وشرفهـــا ، فهى طريق الوصول الى الله ، واسمها يهدى الى سرها ، فالصلاة صلة بين العبد وربه ، انظر أين فرضت ومتى ؟ لقد فرضت فوق السموات السبع فى مكان يســـمع فيـــه صريف الأقلام ، وفى وقت رفعت فيـــه الستر بين الحبيب والمحبوب مناجى كل منهما صاحبـــه حيث انعكس بصر النبى صلى الله عليـــه وسلم فى بصيرته فرأى من ليس كمثله شىء .

ولقد جرت عادة الملوك — ولله المثل الأعلى جل وعلا — فى اصدار مراسيمهم أن يرسلوها لولاتهم مع السفراء ، فاذا كان المرسوم هاما مثل الوالى أمام الملك ليشـــــافهه بما يريد ، فيكون ذلك أحرى بالتأكيد وأدل على التأييـــد .

واذا أردت أن تعرف قيمة الصلاة فانظر الى أثرها فى السلوك والتقويم ، فقد ضمن الله لمن يقدمها بصحتها التناهى عن الفحشاء والمنكر قال تعالى : ((**واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**)) العنكبوت ٤٥ .

ويؤخذ من الحديث أيضا فضل الأمة المحمدية وشرفها على سائر الأمم ، فقد قال موسى حين سئل عن سبب بكائه — وقد بكى حين رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى السماء السادسة — : أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس غريبا على من جعله الله خير النبيين أن تكون أمته خير الأمم ، وقد وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم خيرا فى أمته حيث قال له : ((**ولسوف يعطيك ربك فترضى**)) قال بعض العلماء : ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يرضى وأحد من أمته فى النار ، وذلك مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام : من قال لا اله الا الله دخل الجنة .

وعلى هامش المعراج سأل بعض المشككين أستاذنا الشيخ محمد على منصور الأقدمى قائلا له : ألم يكن الله قادرا على أن يجعل نبيه يراه وهو على الأرض ؟ فما الحاجة الى صعوده الى السماء ؟ فأجابه بقوله : بلى ، الله قادر على ذلك ، ولكنه أرسله الى السماء ارسال تشريف كما أرسله الى الأرض ارسال تكليف ولكى تطأ قدمه الشريفة فوق كل قدم . ألم تسمع أن جبريل فى صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم وقف عند حد معلوم لا يتخطاه ، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أفى هذا المكان يترك الخليل خليله ؟ فقال جبريل : لو خطوت خطوة لاحترقت ، وما منا الا له مقام معلوم .

كان من المتوقع أن يقابل المشركون حدث الاسراء والمعراج بالتكذيب ، فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن دليل يثبت زيارته لبيت المقدس وأن يصفه ان كان قد رآه حقا ، فوصفه لهم بدقة بالغة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه جابر : لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه .

وحين أعجزهم بذلك الوصف الدقيق سألوه أن يخبرهم عن عـيرهم القادمة من الشام ، فأخبرهم بعدد جمالها وحدد لهم يوم قدومهـا وساعة وصولها يتقدمها جمـل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد اقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ، وكان قد أخبرهم أنهـا ستقدم مع شروق الشمس . ولكن ذلك اليوم لم يزدهم الا عنادا وكفرا .

لقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة كثيرا من آيات ربه الكبرى ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم ، وكانت رحلة ميمونة طمأنت قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم وسرت عنه بعد تلك الأحداث الطويلة القاسية التى مرت وفى عام أطلق عليه عام الحزن لشدة ما انتابه من غم لتمرد قومه واصرارهم على الكفر وهو يريد بهم الخير والهدى والرشاد .

وجاءت هـذه الرحلة على مشارف مرحلة حاسمة فى طريق الدعوة فكانتها المقدمة الكبرى للانطـلاق الكبير نحو ذيوع الاسلام وانتشاره خارج حدود هـذا البلد الذى أغلق مسامعه عن الدعوة وحاول أن يصـد عنها كل مقبـل عليها .

وفى صبيحة تلك الليلة المباركة جاء جبريل عليه السلام ليعلم النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة كما فرضها الله ويبين له أوقاتها ، وعلم النبى صلى الله عليـه وسلم أصحابه قائلا لهم : صلوا كما رأيتمونى أصلى ، وقد جعل الله قرة عين نبيه فى الصلاة ، وكان اذا حزبه أمر قام الى الصلاة ، وكان يقول لبـلال حين يجىء وقت الأذان : أرحنا بهـا يا بلال ، كيف لا والقرآن يقول : **((يأيهـا الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصـلاة ان الله مع الصـابرين))** ؟ البقرة ١٥٣ .

خطوات على الطريق الى يثرب :

استمر هذا الأذى ، بل اشتد ، والنبى صلى الله عليه وسلم مثابر على أداء رسالته ، ولم ييأس من الموقف الذى تعرض له فى ثقيف وما لقيه من قومه عقب ذلك ، بل زاده ذلك اصرارا على تبليغ أمر الله ، فمن صور الأذى ما يرويه الطبرى من أن النبى صلى الله عليه وسلم بعـد أن أجابه

المطعم بن عدى بعد عودته من ثقيف ، دخل المسجد الحرام يوما والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف — كأنه يتهكم منه لأنه احتاج الى جوار ولم تمنعه الملائكة — فرد عليه عتبة بن ربيعة : وما ينكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسؤال أبى جهل ورد عتبة عليه . قال : أما أنت يا عتبة فما حميت لله وانما حميت لنفسك — ذلك أنه قالها من موقع العصبية الجاهلية وليس حدبا وحماية للنبى صلى الله عليه وسلم — وأما انت يا أبا جهل فوالله لا يأتى عليك غير بعيد حتى تضحك قليلا وتبكى كثيرا ، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتى عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون .

وفى هذا الرد المحمدى ما يفيد ثبات النبى صلى الله عليه وسلم وثقته بربه ووعده الذى وعده بظهور دينه .

أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل الوافدة الى مكة فى المواسم ، وكانت قريش قد أعدت نفسها لمثل ذلك ، فكانت تندب من يتبعه ليكذب ما يقوله للقبائل ، وكثيرا ما كان أبو لهب يندب نفسه للقيام بهذه المهمة ، فاذا قال النبى صلى الله عليه وسلم للناس : قولوا لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بهــا العرب وتذل لكم العجم واذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة ، قال أبو لهب وراءه : لا تطيعوه فانه صــابىء كاذب ، فتنصرف القبائل عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد أوشك بنو عامر بن صعصعة أن يستجيبوا لما دعاهم له ، ولكنهم اشترطوا أن يكون لهم الأمر من بعده ، فقال لهم : ان الأمر لله يضعه حيث يشــاء ، فقالوا : أفتهدف غورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنــا بأمرك .

وقد كان هينا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يقبل شرطهم لو أنه كان مغامرا نهازا للفرص ، ولكنه كان رسول الله وصفيه لا يقبــل الزيف والبهتان ولا يحب الا أن يكون واضحا ، على الذى يبايعــه أن يبايعــه على أن يتحمل فى سبيل اسلامه المشقة ويتحمل الغرم ، أما الغنم فهو بيد

الله يمنحه من يشاء من عباده ، ولقد آمن به من آمن فضرب وأوذي ومع ذلك فقد كان يجد في هذا العذاب والأذي لذة لا تدانيها لذة .

بيعة العقبة الأولى :

حتى جاءت السنة الحادية عشرة من البعثة وأراد الله لأهل يثرب من العزة والكرامة ما لم يرده لأهل مكة ، فبينما هو عند العقبة لقى جماعة من الخزرج ، ستة رجال هم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه ، فدعاهم للاسلام وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله انه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه وكان اليهود فى يثرب أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكان اليهود قد عزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .

فأجاب هؤلاء النفر الستة النبى صلى الله عليه وسلم فيما دعاهم اليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم مؤمنين مصدقين ، وفى المدينة دعوا قومهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار الا وفيها ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى العام التالى وفد الى النبى صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ، ولقيهم عند العقبة فبايعهم على الايمان والتمسك بفضائل الأعمال ، وكانت هذه هى بيعة العقبة الأولى التى يقول فيها عبادة ابن الصامت رضى الله عنه أحد أفراد هذا الوفد « بايعنا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتـــان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف » قال عليه الصلاة والسلام : « ان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة لها ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة فأمركم الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر » .

ما أروع الاسلام وما أجله ؟ ماذا ينتظر ذوو العقل افضل من هذا ؟ وعلام يعادى هؤلاء المشركون الدين الذى يدعو الى فضـــــائل الأعمال ؟ أوليس ذلك دليلا على نقصان العقول وضلال الأحلام ؟ لقد أضاع القرشيون أوقاتهم فى نصب وبددوا جهودهم فى ضياع ، وكتبوا على أنفســـــهم طول الشقاء وخزى الأبد . وفاز بالسعادة أولئك الذين فتحوا عقولهم وقلوبهم لدعوة الاسلام ..

كان هذا الوفد يضم اسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وأخاه معاذا ، وذكوان بن قيس ، وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة وأبا الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة ورافع بن مالك وقطبة وعقبة ابنى عامـــر ..

وعاد الوفد وفى صحبته أول سفير فى الاسلام مصعب بن عمير وهو من أوائل السابقين الى الاسلام والمعذبين فيه ، ومعه عبد الله بن أم مكتوم الذى عاتب الله فيه نبيه بقوله تعالى « **عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى** » وهو ابن خالة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها .

وكانت مهمة مصعب وعبد الله أن يعلما من أسـلم القرآن ويفقهاه فى الدين ويدعوا الى دين الله ، وبينما هو فى بستان مضيفه ذات يوم اذ قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لأسيد بن حضير وهو ابن عم أسعد بن زرارة ، قال له : ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما ، فقام أسيد بحربته .

وحين رآه أسعد مقبلا قال لمصعب : هذا سيد قومه فأصدق الله فيه.

فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما حاجة . فقال مصعب : أونجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته وان كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فقرأ مصعب القرآن ، فاستحسن أسيد دين الاسلام ، وهداه الله اليه فأعلن اسلامه ، ورجع الى سعد فسأله عما فعله فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا ، فغيظ سعد وقام اليهما ، ففعل مصعب معه ما فعله مع أسيد ، فهداه الله الى الاسلام فأسلم ، ورجع الى قومه يقول لهم : ما تعدونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا ، فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الاشهل الا أجابه ، وانتشر الاسلام انتشارا عظيما ، حتى لم يعد هناك حديث فى يثرب الا عن الاسلام .

البيعة الثانية :

وحين جاء موسم الحج فى العام التالى قدم مكة كثيرون من أهل يثرب يريدون الحج وبينهم كثيرون من المسلمين ، وقابل وفد من المسلمين اليثربيين رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدهم اللقاء ليلا عند العقبة ، وأمرهم الا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا ، فاخذوا يقبلون على موعدهم متسللين بعد ان مضى من الليل ثلثه ، حتى بلغ عددهم ثلاثا وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج واحد عشر من الاوس ، ومعهم امرأتان هما نسيبه بنت كعب واسماء بنت عمرو ، وحضر مع النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس — وهو على دينه لم يسلم بعد — وقد أراد ان يستوثق لابن أخيه .

وحين توافى الجمع قال العباس : ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وانه قد ابى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الان فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

قال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . » . فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

فاعترض القول والبراء يتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم اختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

وبلغ خبر هذه البيعة مشركى قريش ، فقالوا للأنصار : بلغنا انكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فصار المشركون من أهل يثرب يقسمون على أنه لم يحدث شىء فى ليلتهم ، وجعل عبد الله ابن أبى كبير الخزرج يقول : ما كان قومى ليفتاتوا على بشىء من ذلك .

وكذلك أراد الله بالأنصار خيرا ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدى هذا الحى من العرب وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى فى نصرة الاسلام ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد والتوحد ، ومحا ما كان بينهم من العداء والتنافر ، فلطالما سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج وكان آخر يوم شهدوه هو يوم بعاث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالاتهم ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة التى تسيل ضمانا لسيادتهم وابتزازا لأموال المتحاربين عن طريق بيعهم الأسلحة وما تحتاج اليه الحروب .

لقد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبى صلى الله عليه وسلم ، كما اشترط أبو الهيثم لقومه ، وبذلك لم تكن البيعة

قائمة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف والنظرة البعيدة للمستقبل .

وتجلت حكمة النبى صلى الله عليه وسلم حين طلب من الأنصار أن يكتموا امرهم حين يتوافدون اليه فى المكان الذى واعدهم فيه ، فلم يوقظوا نائما ولم ينتظروا غائبا ، ذلك أنه كان يراقبهم فى هذا الموسم من لم يدخل نور الاسلام فى قلبه . فقد تولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد على مشركى قريش حين عاتبوا اليثربيين على مبايعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلم الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب ان أنكروا .

حول البيعتين :

كلف النبى صلى الله عليه وسلم فى البيعة الأولى اثنين من أصحابه الأخيار مرافقة الوفد الأنصارى ليقوما بمهمة الارشاد والتعليم والدعوة ، وفى ذلك تعويد للمسلمين وتشريع لهم فى مستقبلهم الا يكفوا عن الدعوة الاسلامية وحملها الى مختلف البقاع حتى يعم النور وينتشر الضياء ، ان الاسلام هو الحياة وبدونه تصبح النفوس مجدبة عديمة الجدوى ، ولقد أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يعلمنا أن من واجب الشعور بالمسئولية أن يأخذ الناجى بيد الضال ويهديه ما وسعه الى سواء السبيل ، وذلك مصداق لقوله تعالى ((**ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**)) آل عمران ١٠٤ واختيار النبى صلى الله عليه وسلم للمرافقين يدل على وجوب حسن الاختيار للمكلفين تبعة الدعوة ، فيكونون ممن فقهوا فى الدين واتسموا بالبراعة والحكمة فى نقل الدعوة والتبشير بها ، وقد مر بنا كيف صنع مصعب مع زعيمين من زعماء الأنصار ، حتى استطاع أن يجذبهما الى الاسلام ، وباسلامهما أسلم خلق كثير .

وتوقفنا أخبار البيعة الثانية التى لقبت بالبيعة الكبرى على موقف حميد للمرأة المسلمة ، فقد شهدتها امرأتان هما نسيبة بنت كعب وأسماء

بنت عمرو ، ومن هنا نتعلم أن الاسلام رفع من شأن المرأة وأعلى مكانتها ، ولم يضن عليها بالاشتراك فى كبريات الأمور ، وتجلى بعد نظر الاسلام فى ذلك حين رأينا للنساء مواقف نبيلة أغنت فيهـا بعقلها ورأيها وشـجاعتها وحسن تصرفها ، ونسيبة بنت كعب بالذات كان لها فى موقعة أحد غنـاء ما أغناه كثير من الرجال ولقد جرحت دون النبى صلى الله عليه وسـلم بجراحات غائرة وهى تصد عنه بسيفها ، حتى أغمى عليها من كثرة ما نزفت من دماء ، وحتى قال لها النبى صلى الله عليه وسلم : « من يطيق ماتطيقين يا أم عمارة ؟ وحين أفاقت من غشيتها لم يكن همها الا السؤال عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم تسأل عن زوجها وولديها الذين كانوا معهـا فى المعـركة .

انه الايمان العميق الذى يملى ارادته على المؤمن فلا يكون فى النفس حب الا لله تعالي ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

ولو تأملنا هاتين البيعتين لأدركنا كيف يفعل الايمان فى النفوس وكيف يحولها الى طاقات من الخير والنور تتحدى الظلام ولا تخشى الشر المتربص، فالبراء بن معرور رضى الله عنه يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا .

هو الايمان الذى أشربته القلوب وهو الحب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم الذى خالط أرواح هؤلاء الانصار فبادلهم النبى حبا بحب وايثارا بايثار ، ولقد كشف حب النبى صلى الله عليه وسـلم للأنصار فى مواقف عديدة وسأعرض بتوفيق الله بعض صور منها فيما بعد .

كان لابد من هاتين البيعتين لتنفتح الطريق الى يثرب أمام المهاجرين من المسلمين .

وبدأ المسلمون ينطلقون بعد أن أذن النبى لهم أفرادا وجماعات الى دار الهجرة حيث وجدوا فى رحاب المدينة المنورة متنفسـا لهم وحرية كاملة يمارسون فى ظلالها شعائر دينهم ومن ثم يسـتطيعون الانطلاق بدعوتهم الكريمة الى الآفاق ؛ ليسعدوا بها البشرية ويطلعوا نورها على البرية .

وعلى الدرب الذى سار فيه من قبل الأنبياء مهاجرين الى الله ســـار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهاجرا الى ربه وتاركا وراءه بلده الذى قال فيه : انك أحب البلاد الى ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت .

وفى سبيل الله يهون كل شىء . يهون الوطن والنفس والمال والأهل .

ويشاء الله أن يجعل كل نبى غريبا فى وطنه ، وصدق الذى قال من الحكماء : لا كرامة لنبى فى وطنه .

ما الحكمة فى ذلك ؟ انها لحكمة عليا تجل على الأفهـــام ، وربما يدل ذلك على عظمة الحق وجلاله الذى يشبه الشمس فى قوتها فتعشـــو عن ادراكها الأنظار القريبة منها ..

ومهما حاول المبطلون طمس الحقيقة وحجب الشمس فهى لا شــك ساطعة وبالغة منتهاها الى أهلها الجديرين بها مهما بعدت الشـــقة وطال الزمن ..

انطـــلاق النـــور

الهجرة الى يثرب :

أخذ الاسلام ينتشر فى المدينة بسرعة خارقة ، وقابل ذلك رد فعل فى مكة ، فقد ضيق المشركون فيها الخناق على المسلمين بعد أن نما الى علمهم ما حدث ليلة العقبة ، وقد وقع فى روعهم أن النبى صلى الله عليه وســلم وصحبه موشـــكون على منطلق جديد يجدون فيه أمنهم ، ويجدون فيــه دعوتهم ، فليأخذوا عليهم الطريق ..

ولم يكن هناك بد من أن يأمر النبى صلى الله عليه وســـلم صحبه بالهجرة الى المدينة ، فاخذوا يتسللون خفية حتى لا يحبسهم المشركون ، وآثروا الفرار بدينهم على أهلهم وديارهم وأموالهم ، ولم يجرؤ على الهجرة علنا الا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى تحدى قريشا بهجرته ، فانطلق الى الكعبة فطاف بها ، ثم نظر الى وجوه المشركين فى نواديهم بالمســجد الحرام ، فقال : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه أو ترمل زوجته أو ييتم ولده فليتبعنى خلف هذا الوادى .. فلم يتبعه أحد .

ولم تخل هجرة المسلمين من مغامرات تذكر لهم بالخير وتتحدث عنها الأجيال بالفخر والاجلال .

ففى هجرة أبى سلمة وزوجه مثل للمصابرة وحسن البلاء . حدث ابن اسحاق قائلا : لما اجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة رحل بعيره ليحمــل عليه زوجه ومعها ابنهما سلمة ، فلما رآته رجال بنى المغيرة قالوا : هــذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيتك صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تســـير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده ، فأنزلوا امرأته أم سلمة ، وغضــب لذلك رهط أبى ســلمة ، فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، فأخذوا يتجاذبون الطفل الصغير « سلمة » بينهم حتى خلعوا ذراعه ، وانطلق به بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة ، وحبس بنو المغيرة عندهم أم سلمة ، وبذلك فرق المشركون بينها وبين زوجها وابنها ، فما زالت

أم سلمة تبكي سنة أو قريبا منها حتى رق لها رجل من بنى عمهـا ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة التى فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ فقالوا لها : الحقى بزوجك ، ورد عليها بنو الأسد ابنها ، فخرجت وحدها فى الطريق الى المدينة ، ولكن الله لم يرد أن يتركها وحدها فى هذا الطريق فقيض لها من يصحبها . قالت : لقيت عثمان بن طلحة ، فقال لى : الى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أوما معك أحد ؟ فقالت : لا والله الا الله وبنى هذا ، قال : والله ما لك من متزك ، وصحبها . قالت امسلمة : فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان اكرم منه . وكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة. وقد أصبحت أم سلمة زوجة لرسول الله بعد استشهاد زوجها ...

وهكذا تتابع المسلمون فى الهجرة حتى لم يبق بمكة مع النبى صلى الله عليه وسـلم الا أبو بكر وعلى وصـهيب وزيد بن حارثة وقليلون منهـم المستضعفون الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا ..

هجرة النبى صلى الله عليه وسلم :

وتآمر المشركون على النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ، بعد أن أيقنوا أنه لابد من أن يلحق بأصحابه الذين وجدوا فى المدينة الصـدر الرحب والمستقر الأمين . واتفق المشركون الذين زين لهم الشـيطان ذلك على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدا فيضربوا النبى صلى الله عليه وسلم بسـيوفهم ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يكون لبنى عبد المطلب قدرة على المطالبة بثأره ، وهذا ما يشـير اليه قوله تعالى « **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » الأنفال ٣٠ .

لقد أوحى الله الى عبده بالهجرة ، فأسر بذلك الى أبى بكر الذى كان قد أعد للأمر عدته ، وفى الليلة المشهودة أمر النبى صلى الله عليه وسـلم عليا بأن ينام فى فراشه ويتغطى ببرده ، ثم يلحق به بعد أن يرد الودائع الى أهلهـا .

واجتمع القرشيون حول الدار ينظرون من خصاص الباب فيرون النائم فيظنونه محمدا فيطمئنون ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد خرج على أعينهم يتلو قوله تعالى من أول سورة يس « **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** » ولم يروه .. وبلغ النبى خارج مكة فلقى أبا بكر الذى كان ينتظره ، ويمما معا شطر غار ثور فاختفيا فيه عن الأنظار حتى يسكن الطلب .

واقتحم المشركون الدار فلم يجدوا الا عليا ، فانطلقوا الى بيت أبى بكر فلم يجدوه أيضا ، فسألوا عنه ابنته أسماء ، فقالت : لا أدرى ، فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها ..

آية الاعجاز فى الهجرة :

وقد ظهرت آية الاعجاز واضحة فى هذه المسيرة ، على الرغم مما ينكره البعض من معجزات ، لأنهم يرجعون عادة الأحداث الى الأسباب والمسببات ، ويربطون بين الأمور بروابط مادية تقوم على المقدمات والنتائج ، ولكنهم يغفلون فى كثير من الأحيان عن تصاريف الأقدار التى يقف العقل أمامها عاجزا لا يقدر على التفكير ولا يستطيع التدبير ، كما يغفلون أحيانا عن ألطاف الله الخفية التى تصاحب الأقدار فتخفف من وقعها وتعين على تحملها ، وتلفت نظر الناس الى رحمة الله الواسعة .

وبذلك المقياس المادى حاول كثير من المؤرخين أن يقيسوا خطوات الهجرة الشريفة ، قائلين : أنها تمت على أساس من الترتيب العقلى والتخطيط السياسى البارع الذى يدل على عبقرية فريدة وبعد نظر جديرين بتلك الشخصية الفذة شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهم فى ذلك يحاولون أن يجعلوا شخصية الرسول كغيره من البشر الا أن الله اختصه من بينهم بالعقل المستنير والقدرة على التصرف السليم فى الوقت المناسب وبالصورة المناسبة ، فما يصدر منه من تصرفات لا ينبغى أن يكون لجوانب أخرى غير منظورة دخل فيه ، وهذا فى نظرهم قمة الكمال البشرى والرسول صلى الله عليه وسلم بشر لا شك فى ذلك « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى** » ولكن هذا الوحى هو الميزة الكبرى التى اختص الله بها نبيه

وأمدته بصلاحيات خاصة رفعته فوق ســـائر البشر فجعلته يرى الملائكة ويكلمهم ويسمع منهم ويتلقى عنهم الوحى ، فهو بذلك متفرد بصفة متميزة لا يشركه فيها سوى اخوانه من الأنبياء وفضلته عليهم فقد أسرى به ليـــلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم عرج به الى السموات العلا .

أجل لقد أنعم الله على النبى صلى الله عليه وسلم بنعمة العقل الكبرى التى تجلت فى مقدرته على أن يسع أفكار الناس جميعا ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولكن العناية الالهية لم تتخل عنه الى جانب ذلك فى أى لحظـــة من لحظات حياته ، وكان يدعو الله دائما ألا يكله الى نفسه طرفة عين .

وفى حادث الهجرة صاحبته هذه العناية فأمدته بخوارق كثيرة وقفت أمامها عقول الكفار من قريش ذاهلة مشـــدوهة ، وليس فى ذلك طعن فى مقدرته على التصرف السليم والتخطيط البارع الحكيم ، فلم يدخر النبى صلى الله عليه وسلم وسعا فى الاعداد للهجرة والتخطيط لها ، فجعل أصـــحابه يسبقونه الى المدينة بعد أن مهد للاسلام فيها ووطد أركانه من جوانبها وأثار شوق أهلها للقاء اخوانهم المهاجرين ، واستبقى صديقه أبا بكر وأمره أن يعد الرواحل والدليل والعيون التى ترقب الطريق وتأتى بالأخبار وتحمـــل الزاد وتعفى على الآثار ، وانتقى الفدائى الذى ينام على الفراش فيعمى الطلب ويؤخره حتى يبلغ الركب مأمنه ، الى غير ذلك مما قام به من اعداد يشهد بدقة التفكير وقوة الملاحظة وبعد النظر والتعرض لكافة الاحتمالات .

وبذلك ترتفع هذه الشخصية الفريدة فى نظر المفـــكرين المحدثين الى القمة الشامخة التى تتطامن دونها القمم وتتخاذل دونها الهمم ، وهذا يكفى عند هؤلاء لأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قوة لها خطرها وشأنها بغض النظر عما يورده رواة الســـيرة وكتاب التاريخ من معجزات خارقة صاحبت موكب الهجرة من بدئها الى منتهاها .

الاعجاز لا يعارض التفوق البشرى :

ولا ينافى الاعجاز الذى أحاط بالنبى صلى الله عليه وســـلم فى هجرته كماله البشرى وقدرته العقلية وبراعته فى قياس الأمور وتقـــدير الأحوال

والظروف ، بل الكمال كل الكمال أن يوهب النبى صلى الله عليه وسلم كل ذلك ويمنح الى جانبه العناية التى تحبط كل كيد وتتحدى كل شر لا يقع فى مقدور البشر توقعه أو صده .

ليس هناك غضاضة فى أن ترقب السماء خطوات النبى صلى الله عليه وسلم فى طريقه الى يثرب وهو الذى بعثه بالحق ليوطد الدين الذى لا يرضى الله بغيره من الناس وبخاصة بين قوم لا يريدون الاعتراف بغير الخوارق والمعجزات . ولئن كان القرآن الكريم أراد أن يرد الناس الى صوابهم ويطلب منهم أن يحكموا العقل فى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم فيؤمنوا بها لأنها دعوة الفطرة ورسالة النور وطلب من النبى أن يوضح لهم أنه بشر كغيره فان ذلك لا يجافى أن يكون للرسول معجزاته التى تؤيد الحق الذى جاء به فهذا وحده — فى أغلب الأحيان — الذى يبهر العقول ويذل الجبابرة ويكبح جماح المعارضين .

يروى لنا الثقات أن النبى صلى الله عليه وسلم صاحبته معجزاته الشريفة فى الهجرة كما صاحبته فى غيرها فالاسراء والمعراج وانشقاق القمر وغيرها معجزات ، وجاء فى سيرة ابن هشام : لما نزلت آية ((**فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين**)) . أتى جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم والمشركون يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه ، فمر به الأسود بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، ومر به الأسود بن يغوث فأشار الى بطنه فاستسقى فى بطنه فمات به ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار الى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بسنين وليس بشىء ، فانتقض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل فأشار الى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فألقاه على شبرقة — نبات ذى شوك — فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته ، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار الى رأسه فامتخض قيحا فمات ، وهؤلاء هم رأس الكفر والشقاق والمستهزئون بالنبى صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما رواه ابن هشام أيضا : كان ركانة بن عبد يزيد بن هشام

ابن المطلب أشد قريش فخلا يوم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله : يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما دعوتك اليه ؟ فقال : لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أفرأيت ان صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم مرتين . قال ركانة : يا محمد والله ان هذا للعجب أتصرعنى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعجب من ذلك أن أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى . قال ركانة : فادعها فدعاها ، فأقبلت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ارجعى الى مكانك ، فرجعت .

وليس غريبا هذا ، فالقرآن الكريم وهو أصدق الحديث يقص علينا أن الملائكة نزلت تقاتل فى صفوف المسلمين فى بدر وحنين ، وليس هذا الا الاعجاز الذى لا يكون الا لنبى أيده الله بالحق .

ولا شك أن نزول الملائكة ليحاربوا مع المسلمين لا ينافى الاستعداد الذى استعده النبى والمسلمون للمعركة . يقول الأستاذ سعيد حوا فى كتابه « الرسول » : عندما تدرس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تجدك دائما أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التى لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبدا أن تجد تعليلا لما تراه أو نقل اليك نقلا صحيحا ، الا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ما تقوم به الحجة على الكافر ويزداد به المؤمن يقينا ويخرج به الشاك من شكه وهذا هو سر المعجزة .

معجزات صاحب الهجرة :

جاء فى سيرة ابن هشام : لما اجتمع المشركون وفيهم أبو جهل بن هشام فقال — وهم على باب النبى صلى الله عليه وسلم — : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وان لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها ، وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال :

نعم أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو الآيات من أول سورة يس حتى قوله تعالى : ((**فأغشيناهم فهم لا يبصرون**)) ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمد ، قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته . وحين قصوا أثره ووقفوا عند الغار أعمى الله أبصارهم عن النظر داخله وأوقع الله فى روعهم أن هذا النسيج على فم الغار من فعل العنكبوت أقدم من ميلاد محمد ، ولو أن أحدا ساورته نفسه أن يقتحم الغار لتحول هذا النسيج الواهن الى حراب طاعنة .

وفى الطريق الى المدينة مر الركب الميمون بخيمة أم معبد ، وهى عاتكة بنت خالد من خزاعة ، فطلب النبى صلى الله عليه وسلم منها لبنا أو لحما يشترونه ، فلم يجدوا عندها شيئا ، فنظر الى شاة فى كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها النبى صلى الله عليه وسلم : هل بها من لبن ؟ فقالت : هى أجهد من ذلك ، فقال ، أتاذنين لى أن أحلبها ؟ فقالت : بأبى أنت وأمى ، ان رأيت أن بها حلبا فاحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها فدرت واجترت ، ودعا باناء يشبع الرهط فحلب فيه حتى ملأه وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرى عللا بعد نهل ، ثم غادره عندها ، وذهبوا فجاء أبو معبد ، فلما رأى اللبن قال : ما هذا يا أم معبد ؟ أنى لك هذا والشاة عازب حيال ولا حلوبة بالبيت ؟ فقالت : لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك ، فقال : صفيه فوصفته له ، فقال : هذا والله صاحب قريش ، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن ان وجدت سبيلا . قال ابن الأثير فى أسد الغابة : وأسلم وشهد الفتح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد فيه . ومن تمام هذه المعجزة أن أصبح أهل مكة يسمعون صوتا عاليا ولا يرون صاحبه يصيح قائلا :

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلا خيمتى أم معبد

همـــا نزلا بالبر ثـم تروحـــا
فأفلح من أمسى رفيـــق محمـــد
ليهـــين بنى كعب مـكان فتـــاتهم
ومقعـــدها للمؤمنين بمرصـــد ...

ولم يزدْ خروج النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة قريشا الا امعانا فى الكيد واجماعا على الشر ، لقد غاظها ذلك الخروج غيظا شديدا اذ باء تدبيرها بالخسران ، فاتفقـــوا على أن يجعـــلوا مائة ناقـــة لمن يستطيع أن يرده اليهم .

حدث سراقة بن مالك بن جعشم قائلا : لما خرج رسول الله صلى الله عليـــه وسلم من مكة مهاجرا الى المدينـــة جعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم ، فبينما أنا جالس فى نادى قومى اذ اقبل رجـــل منا حتى وقف علينا فقـــال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا ، انى لأراهم محمـــدا وأصحابه . قال : فأومأت اليه بعينى أن أسكته ، ثم قلت : انهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم . قال : لعله ، ثم سكت .

قال : ثم انى مكثت قليـــلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى الى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى ، ثم اخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ، قال : وكنت أرجو أن أرده الى قريش فآخذ المائة ناقة .

قال : فركبت على اثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بهـــا فخرج السهم الذى أكره ، قال : فأبيت الا أن اتبعه ، فركبت فى اثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنـــه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالاعصار ، قال : فعرفت حين ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر . فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم لأبى بكر ، قل له : وما تبغى منا ؟ فقـــال لى ذلك أبو بكر ،

فقلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك ، قال : اكتب له يا ابا بكر ، فكتب لى فى عظم أو فى رقعة . ثم القاه الى فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئا مما كان .

قال : حتى اذا كان فتح مكة وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لالقاه ، فلقيته بالجعرانة ، فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : اليك اليك ماذا تريد ؟ قال : فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته والله لكأنى أنظر الى ساقه فى غرزه كالجمارة ، فرفعت يدى بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى أنا سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئا أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره الا أنى قلت : يا رسول الله ، الضالة من الابل تغشى حياضى وقد ملأتها لابلى هل لى من أجر فى أن أسقها ؟ قال : نعم .

هذه بعض معجزات صاحبت النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلته تلك التى فرق الله بها بين الحق والباطل ، وكانت ايذانا بظهور هذا الدين الذي عم نوره الآفاق وتطهرت به الدنيا من أرجاسها .

النبى فى المدينة :

تسامع أهل المدينة بخروج النبى صلى الله عليه وسلم اليهم فكانوا يخرجون كل يوم الى الحرة ينتظرون على شوق مقدمه السعيد ، ولا يعودون حتى يمسهم حر الظهيرة ، الى أن كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتظروا حتى غلبتهم الشمس فعادوا ، فما أن دخلوا بيوتهم حتى سمعوا يهوديا — وكان يرى ما يصنعون كل يوم — ينادى بأعلى صوته : يا بنى قيلة — جدة الأنصار التى ينسبون اليها — هذا جدكم — حظكم السعيد — قد جاء ، فخرجوا يهرعون يتلقونه بأرواحهم ويحوطونه بقلوبهم وقد ملأت العبرات عيونهم ، وود كل منهم لو استطاع أن يضم النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه بين جوانحه ، انه الحب الكبير الذى تشربته قلوبهم وانطوت عليه أفئدتهم ، وانه الايمان العظيم بالله ورسوله

الذى عبر عنه القرآن أروع تعبير وصوره أجمل تصوير « **والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » الحشر ٩ .

ووقفت الفتيات — فى رواية — يضربن بالدفوف ويوقعن أجمل نشيد من الأعماق :

طلع البـــدر علينـــا من ثنيـــات الوداع
وجب الشــكر علينـــا مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعـــوث فينـــا جئت بالأمـــر المطـــاع

وكان اول نزوله فى قباء حيث أقام فيهـــا عدة أيام ، نازلا على كلثوم ابن هـــدم ، وأسس مسجد قباء الذى أثنى الله عليـــه فى كتابه الكريم : « **لمسجد اسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** » التوبة ١٠٨ .

واهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بالمسجد فى أثناء اقامته القصيرة بقباء يدل على أهمية الصلاة والاجتماع عليها .

واستقبل النبى صلى الله عليه وسلم بقباء على بن أبى طالب الذى قدم المدينة بعد أن أدى عن النبى صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده لأصحابها .

ثم واصل النبى صلى الله عليه وسلم رحلته الى المدينة حيث استقر بها المقام فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول فى العام الهجرى الأول .

وكان الأنصار يلتفون حول ناقتـــه ، كل منهم يتطلع بشوق وحرص شديدين على أن يشرف بنزول النبى صلى الله عليه وسلم عنده ، ويحاولون تجاذب زمام الناقة طمعا فى ذلك ، ولكن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قال لهم : خلوا زمام الناقة فانها مأمورة .. وهذا دليل على أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بيده ، ولكنه بيد ربه الذى يرقب خطواته

ويهيىء له الأمور ، وكان النبى صلى الله عليـــه وســـلم يردد قول ربه : **« رب ادخلنى مدخل صـــدق واخرجنى مخرج صـــدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً » .**

وسارت الراحلة المباركة فى فجاج يثرب وطرقاتها فى يوم من أســـعد أيامها تلتقى فيـــه الأرض بالســـماء ، وتحرس الملائكة خطوات الراحلة ، والقلوب تهفو من حولها والأرواح تود لو أنها حملت الناقة ومن عليهـــا . حتى بركت الناقة أمام دار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنـــه ، فى مربد لغلامين يتيمين .. وخرجت جوار من بنى النجار ينشدن :

نحن جوار من بنى النجار　　　يا حبذا محمـــد من جار

فقال لهن النبى صلى الله عليه وسلم : أتحببننى ؟ فقلن : نعم : فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكن .

واحتمل أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه رحل النبى صلى الله عليه وسلم وأدخله بيته ... ونزل لديه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتخذ المربد مسجدا بعد أن اشتراه من صاحبه .

وقد اشترك النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه فى بنـــاء المسجد ، حتى كان الصحابة يرتجزون بذلك وهم يشيدون المسجد قائلين :

لئن قعـــدنا والنبى يعمـــــل

لذاك منـــا العمـــل المضـــلل

ويقولون :

لا عيش الا عيش الآخـــــرة

اللهم ارحم الأنصـــار والمهـــاجرة

ونسب ابن هشام هذا القول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا دليل آخر على أهمية المسجد وأهمية الصلاة ، فقد عمل فيـــه النبى صلى الله عليـــه وسلم بنفسه ، فالمساجد لله وما أشرف العمـــل فى مسجد يرفع فيه اسم الله ، وما كانت الرسالة التى جاء بها الا لتحقيق

هذا الهدف الأسمى ، ولم يستوح النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء مسجده الا روح الاسلام الذى يتسم بالبساطة واليسر والبعد عن الغلو والزينة .

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون مساجدنا تأسيا بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . ان المسجد — كما يقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه المساجد — مجرد مكان طاهر يلتقى فيه العبد بالخالق ، فهو مساحة نظيفة مستوية مطهرة يحيط بها سور ، وظيفته تعيين حدود ذلك المكان المطهر المخصص للصلاة ، ولم تكن هناك حاجة الى تغطية هذه المساحة بسقف ، فاكتفى النبى صلى الله عليه وسلم بتسقيف جزء منها فى مقدمتها على نحو بسيط جدا ، جذوع نخل نصبت صفين بموازاة الجدار الشمالى ، ثم غطى ما فوقها بعريش من خشب وسعف وغصون شجر ، ولم تكن به فرش ، ولكنه فرش فيما بعد . ولكن هذا البناء المتواضع جدا هو الذى تخرج فيه جنود الاسلام وعباقرته ، فقد كان للمسجد رسالته السامية ، كان بيتا للعبادة ومدرسة للتعليم وملتقى كريما للنبى بأصحابه حيث أشربوا تعاليمه وحملوا رسالته وخرجوا بها الى الآفاق .

ولأن المسجد له حرمته واحترامه سن للمسلم أن يحييه عند دخوله بصلاة ركعتين ، وحذر النبى صلى الله عليه وسلم من أن ينخذ مكانا للرقود أو يضع فيه المسلم رجلا على أخرى وهو مستلق على ظهره ، ومن الآداب التى يجب أن تراعى فى المسجد ما رواه ابن ماجه : خصال لا تنبغى فى المسجد ، لا يتخذ طريقا ولا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم نيىء ولا يضرب فيه حد ولا يقتضى فيه من أحد ولا يتخذ سوقا .

الا وان المساجد حارسة عالم الاسلام وهى مظهر قوته ومجده ، فعلى المسلمين الاكثار منها وتشييدها وتعميرها امتثالا لقول الحق : **« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »** التوبة ١٨ .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب أصحابه فى جمعهم ، كما كان يخطبهم فى مختلف المناسبات والظروف ومن نماذج خطبه فى جمعه ما رواه

ابن اسحاق : « ان الحمد لله وحده ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . ان احسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، وقد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكس عهده . والسلام عليكم » .

كلمات قلائل ولكنها جماع المعانى الجمة التى لا تحصى ولا تعد ، فهى أصل من أصول الحكمة ، ولعل الصوفية الأوائل استقوا من هذا الحديث معانى الحب لله والفناء فيه ، نهدى هذه الخطبة الجامعة الى خطباء مساجدنا اليوم الذين يحلو لهم أن يطيلوا فيبدئوا ويعيدوا حتى تمل الأسماع وتنصرف الاذهان ويخرج الناس من صلاة الجمعة ولم يستفيدوا من خطبة الامام الطويلة شيئا .

الأذان :

ولتكتمل للصلاة أهميتها كان لابد من الاعلام بها حين يدخل وقتها ، وكان المسلمون قد تشاوروا فى ذلك ، فمنهم من أشار باتخاذ الناقوس ، وبعضهم أشار بالبوق وبعضهم أشار بالنار ، ولكن ذلك رفض كله ، وكانوا يجتمعون لوقتها بغير شارة تتخذ لذلك حتى تشاوروا ... ورأى عبد الله بن ثعلبة بن عبد ربه فى منامه رؤيا تعلم منها الأذان بصيغته المعروفة ، فأخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : انها رؤيا حق علمه بلالا فانه أندى منك صوتا ، فلما أذن بلال سمعه عمر وهو فى بيته فجاء يقول : يا نبى الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله على ذلك .

ولعـل الحكمة فى أن الأذان جاء عن طريق صحابيين جليلين لتتسع حركة التشريع فيما بعد على يد المجتهدين والفقهاء من أمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد ورد فى فضل الصحابة ما يرفعهم الى منزلة من الشفافيه العليا والحدس الصادق والرؤى الحقة التى هى جزء من النبوة ، ومن ذلك ما يروى : « ان من أمتى محدثين منهم عمر بن الخطاب » ولقد ورد القرآن موافقا لرأى عمر فى بعض المواقف ..

ويمكننا أن نفهم من الحديث تفضيل ذى الصـوت الحسن فى ابلاغ الناس بوقت صلاتهم .

النبى فى بيت أبى أيوب :

وما أسعد ابا ايوب الأنصارى رضى الله عنه — وهو خالد بن يزيد — ما أسعده بضيافته للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الله له الخير كله ، وأصبح بيته قبله المسلمين جميعا يؤمونه ليلتقوا فيه بحبيبهم فى غير اوقات الصلاه ، وقد آثر النبى صلى الله عليه وسلم ان يكون مقامه فى بيت مضيفه فى الطابق الأول لانه ارفق به وبمن يزورونه . قال أبو أيوب وهو يحـدث عن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته قائلا : « لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى اسفل البيت وأنا وأم ايوب فى العلو ، فقلت له : يا نبى الله بابى انت وامى انى لاكره وأعظم أن اكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر انت فكن فى الاعلى ، وننزل نحن نكون فى السفل ، فقال : يا ابا ايوب ، ان الارفق بنا وبمن يغشانا ان نكون فى اسفل البيت . قال : فكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى سفله وكنا فوقه فى المسـكن ولقد انكسرت لنا جرة فيها ماء يوما فقمت انا وأم ايوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحافه غيرها ننشف بها الماء تخوفا ان يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء يؤذيه ، فنزلت اليه وانا مشفق فلم ازل استعطفه حتى انتقل الى العلو . قال : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به اليه ، فاذا رد علينـا فضله تيممت أنا وأم ايوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى البركة ، حتى بعثنا اليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له بصلا وثوما ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثر ، فجئته فزعا فقلت : يا رسول الله بأبى أنت

وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة فقال : انى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ، ثم لم نضع فى طعامه شيئا من الثوم أو البصل بعد » .

ان أبا أيوب رضى الله عنه ينقل لنا فى هذا الحديث الشريف صورة كاملة من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فى تواضعه ورفقه ورحمته وكياسته ، ومن أخلاق الأنصار الذين تفانوا فى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وايثارهم له ولاخوانهم المهاجرين .

ولقد تجلى ايثارهم فى حرص أبى أيوب على راحة النبى صلى الله عليه وسلم ورغبته فى التبرك به والانتفاع بفضله وأثره ، لقد كان يتيمم أثر أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم فيأكل مما مسته عسى أن تناله البركة ويمسه الخير والفضل .. وعلى هذا فالتبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه وآثار الصالحين من أمته أمر مشروع غير مستنكر ، والتوسل كذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ليس أمرا مستنكرا بل هو أمر مشروع ، وكيف لا يتوسل الانسان بجاهه صلى الله عليه وسلم وجاهه عند الله عظيم ؟ وان كان فى الحقيقة لا فرق بين التبرك والتوسل . وقال الدكتور محمد سعيد البوطى : « ولا يذهب بك الوهم أن تقيس التوسل على التبرك وأن المسألة لا تعدو وأن تكون استدلالا بالقياس فان التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد ، وهو التماس الخير والبركة عن طريق التوسل به ، وكل من المتوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم والمتوسل بآثاره أو ثيابه أفراد أو جزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذى ثبت حكمه بالاحاديث الصحيحة ، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى بتنقيح المناط عند علماء الأصول » ولقد قال الدكتور البوطى ذلك بعد أن ساق بعض الآثار النقلية التى تثبت حرص الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم على التبرك بآثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل فى باب طيب عرقه صلى الله عليه وسلم : « انه عليه الصلاة والسلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها ، وليست هى فى البيت ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها ،

فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت عتيدتها (العتيدة صندوق صغير نحفظ فيه المرأة ما يعز من متاعها) فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره فى قواريرها ، فأفاق النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا ، قال : أصبت » .

وليس العقل المستنير يمنع التبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم حيا وميتا فهو أقرب الخلق الى الله وأحبهم اليه وأفضلهم عنده ، وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه كان يحتفظ بشعرات من ناصية الرسول صلى الله عليه وسلم فى قلنسوته يخوض بها معاركه ويتفاءل بها فى اكتسابه النصر الذى يتحقق له دائما .

تنظيم الأوضاع بالمدينة :

أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يضع قواعد تضمن الاستقرار فى المدينة وتنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ولذلك عقد معاهدة تضمن عدم الاعتداء بين المسلمين واليهود ؛ ذلك أن المدينة كان يقيم بها طوائف من اليهود يعيشون على افساد العلاقات بين العرب ، ويثيرون الخلافات بينهم ، وتعد هذه المعاهدة نموذجا فريدا فى حسن التنظيم والتعامل بين الناس ، فقد نصت على أن المسلمين جميعا أمة واحدة مهاجريهم وأنصارهم متكافلون فيما بينهم وهم يد على من سواهم ، وعلى أن اليهود احرار فى دينهم ، ويضمن لهم المسلمون حريتهم فى ذلك بل يدفعون عنهم عدوهم ما داموا محترمين لحق الجوار وغير مسيئين للمسلمين .

وقد وضعت صحيفة المعاهدة شروطا والتزامات يجب الوفاء بها ، كما وضعت محذورات يجب تجنبها والاحتراز منها . وكان لابد من هذه الوثيقة حتى يضمن المسلمون الاستقرار والهدوء ويتمكنوا من اعلان دينهم والتبشير به فى الآفاق دون خوف أو قلق ، وحتى تقطع الطريق على قوم عرفوا منذ أقدم العصور بالشقاق والفساد والعدوان .

كان لابد من هذه الوثيقة المكتوبة بين المسلمين واليهود الذين نفسوا

على الأنصار اسلامهم وأخذوا يبثون أحقادهم وينشرون سمومهم مستظهرين في ذلك ببعض المنافقين الذين أظهروا الاسلام وأخفوا الكفر .

ولقد أسلم من اليهود بعضهم ، منهم عبد الله بن سلام وكان حبرا عالما ، وحين أسلم طلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يخفيه ويستدعى اليهود فيسألهم عنه ، فلما جاءوا قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : أى رجل الحصين (عبد الله) بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم فقال لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله انكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، وانى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأومن به وأصدقه وأعرفه . فقالوا : كذبت ثم وقعوا به . فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : الم أخبرك يا رسول الله انهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟.

وأظهر عبد الله بن سلام اسلامه واسلام أهل بيته ، وكذلك أسلمت عمته خالدة بنت الحارث وحسن اسلامها .

ومنهم مخيريق — وكان عالما حبرا من أحبارهم — تيقن أن النبى صلى الله عليه وسلم هو ما أثبتت صفته التوراة ، فأسلم يوم أحد وقاتل مع المسلمين حتى قتل ، وكان قد أوصى بكل ماله للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء ، فوضعه فى سبيل الله .

ولكن أغلبهم على رغم علمهم بصدق النبى صلى الله عليه وسلم فقد استمروا فى عداوته بغيا وحسدا ووصفوا من آمن منهم بأنهم شرارهم . قال ابن اسحاق : ولما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيه وأخوه أسيد وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم قالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد ولا اتبعه الا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره ، فأنزل الله قوله تعالى : ((**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الله وهم يسجدون**)) آل عمران ١١٣ .

وفى قمة العمل التنظيمى كانت المؤاخاة التى عقدها النبي صلي الله

عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار قائلا لهم : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فجعل حمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وأبا بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان ابن مالك أخوين ، وأبا عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين ، وآخى صلى الله عليه وسلم بينه وبين على بن أبى طالب قائلا له : أنت أخى فى الدنيا والآخرة .

وبهذه الأخوة التى أصبحت مثلا أعلى فى الوفاء والايثار سار المسلمون على طريق الله ورسوله يوطد الحب مكانه فى قلوبهم ، وحلت هذه الأخوة محل القرابة والرحم وبمقتضاها كان التوارث بينهم حتى نزل قوله تعالى : ((**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله**)) الأنفال ٧٥ .

واصبحت هذه الأخوة منطلقا عاما بين المسلمين جميعهم ، فلم تعد منحصرة فى حدود الاثنينية بل شملت أفراد المسلمين جميعا ، وبذلك نادى القرآن الكريم حيث ذكرهم فى معرض النعمة قائلا لهم : ((**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا**)) آل عمران ١٠٣ — ونادى بها النبى صلى الله عليه وسلم داعيا أمته قائلا لهم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ويقول لهم فى وصاياه : « وكونوا عباد الله اخوانا » .

ولقد أصبحت هذه الأخوة مسئولية كبرى يحرص عليها كل مسلم ويعمل على صيانتها بكل ما يملك من قوة ، لأنها هى الأساس المتين الذى ترسى عليه قواعد الأمة الاسلامية الكبرى وتستمر بعد ذلك ، وما تأخرت الدولة الاسلامية الا حين فرطت فى هذا الشعار العظيم ، فحل الجفاء محل الوفاء ، وجاء الخلاف مكان الوفاق .

بهذين العملين الكبيرين : الاخاء والمعاهدة سار المسلمون آمنين فيما بينهم من الخلافات ، وفيما بينهم وبين غيرهم ، وأصبح المسلمون يظللهم الايثار والمودة ويحرسهم الوفاء والألفة . آمنين من جهة اليهود الذين كبلتهم المعاهدة فلم يستطيعوا — الى حين — أن ينغصوا على المسلمين حياتهم أو يضعوا العراقيل فى طريقهم .

المنـــافقون :

ولكن الله ابتلى المسلمين فى المدينة بطائفة جاحدة كانت اشق عليهم من مشركى مكة ، هى طائفة المنافقين ، ولقد ظل هؤلاء المنافقون — الذين انزل الله فى شأنهم سورة برمتها فى القرآن الكريم عدا ما تناثر فى ســوره من آيات بينــات تفضـــح شأنهم وتدمغ خبثهم — مثار متاعب للمسلمين ، وكان رأس النفاق فى المدينة عبـــد الله بن أبى بن سلول . كان المنافقون يتواثقون سرا مع اليهــود ويتضامنون معهم ضـــد المسلمين ، ولكن الله كان ينجى نبيه وأصحابه منهم .

وقد خذل الله المنافقين واليهود بخطوة النبى الجريئة حين أجلى اليهود عن المدينة بعد نقضهم المعاهدة التى أبرمها معهم ، ولعلنا نستفيد من قصص هؤلاء المنافقين وجوب التنبه لهم فى حياتنا وتطهير صفوفنا منهم وهم — لحكمة يعلمها الله — موجودون فى كل زمان ومكان ، وهم الســـوس الذى ينخر فى جسم أى دولة . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله » .

هذه حكمة الله العالية التى أشار اليها القرآن الكريم : **« وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون »** الأنعــام ١٢٣ .

ذلك نوع من البـــلاء الذى يبتلى الله به الأمم لتظهر عن طريقه قوة العزائم وصدق المخلصين وجلال الاخلاص وجمال النقاء .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف هؤلاء المنافقين واحدا واحدا ، ولكنه كان يكل سرائرهم الى الله محافظة على وحـــدة المسلمين واحتراما لمشاعر من حسن اسلامه من ذويهم ، الا أنه كان يضطر كثيرا الى مواجهتهم بالشدة حين يحتاج الأمر الى ذلك ، وبخاصة حين ينزل القـــرآن فاضحا نياتهم وكاشفا خباياهم ، ولقد اضطر الى طردهم مرة من المسجد حين رآهم يتحدثون سرا فيما بينهم وقد لصق بعضهم ببعض ..

تحـــويل القبـــلة :

وظهر عداء اليهـــود واضحا فى أمر تحويل القبلة من بيت المقـــدس الى الكعبة المشرفة ، وكان ذلك فى منتصف شعبان بعـــد مرور ثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتوق الى ذلك ويردد نظره الى السماء طالبا من الله تحويل القبلة ، فاستجاب الله اليه ، فقال اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وظاهرهم المنافقون حتى لقد ارتد بعض من أظهر اسلامه ، ونزل فى شـــأن تحويل القبلة قوله تعـــالى من سورة البقرة : ((**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ...**)) الى آخر الآيات الواردة فى ذلك . آيات من ١٤٢ : ١٥٠ .

صـــوم رمضان وفرض الزكاة :

وفى الشهر الذى حولت فيه القبلة أوجب الله رمضان شهرا يصوم فيه المسلمون ، ولا يجهل أحد حكمة الصيام ، ففيه صحة للبدن والروح ، وفيه تحقيق للتقوى التى أراد الله أن يربى عليها عباده المؤمنين ، ولذلك قال تعالى : ((**يايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**)) البقرة ١٨٣ ، ولعل السر فى اختيار هذا الشهر هو نزول القرآن فيه فأراد الله أن يربط بين الناس وبين قرآنهم حين يصومون عن الشهوات ويتجردون عن المطامع ويقطعون أوقاتهم بمطالعة قرآنهم فيكتسبون بذلك صفاء ويزدادون من الله قربا فيناجونه ويتضرعون اليه ، مصداقا لقوله تعالى : ((**واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**)) البقرة ١٨٦ — وقد رشد حقا من استعان بربه واستهداه سواء السبيل .

ويكمل صوم الانسان بصدقة الفطر التى شرعها الله للمسلمين جميعا يخرجونها بسخاء نفس وطيب قلب ، وتمت نعمة الله على عباده فى تقريبه لهم وتعريفهم بابه الذى يلجون اليه منه بفرضية الزكاة التى تخلص النفوس من أثرتها وتطهرها من أرجاسها مصداقا لقول الحق تعالى : ((**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بهـــا**)) التوبة ١٠٣ ، وقد جعـــل الله لهذه الزكاة مصارف جمعها قوله تعالى : ((**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين**

عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » التوبة ٦٠ .

وقد فرضت الزكاة فى العام نفسه الذى فرض فيه الصوم .

الكفاح العملى :

باستقرار المسلمين فى المدينة انتقلوا الى مرحلة جديدة فعلا ، فقد شعروا بأنهم اصبحوا قوة لها وزنها ، وأصبحوا فى عزة ومنعة تمكنهم من اعلاء كلمة الله واظهارها ، وقد اذن الله لهم فى الجهاد والدفاع عن أنفسهم بعد أن كان الله يأمرهم بالصبر والاحتساب .

لقد مكثت الدعوة الاسلامية فى مكة ثلاث عشرة سنة ربى النبى صلى الله عليه وسلم فى خلالها رجالا يستطيعون الانتصار على أنفسهم ويرتفعون فوق الاستفزازات ، كان فى مقدور المسلمين فى مكة أن يدفع الواحد منهم عن نفسه ويرد السيئة بمثلها — وقد أودع الله فى العرب أنفة وحمية — ولكنه كان يتوقع حين يدفع أن يقتل ، وبذلك توءد الدعوة فى مهدها ولا يمر طويل من الزمن حتى يكون عدد المسلمين قد نفد أو كاد ، ولذلك أمرهم الله بالصبر عن طريق الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم « **واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا** » الطور ٤٨ « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** » الأحقاف ٣٥ ، الى غير ذلك من الآيات .

لقد كان هم النبى صلى الله عليه وسلم أولا تربية الرجال واعداد الأبطال ، واستغرقت هذه التربية طوال ثلاثة عشر عاما هى فترة الدعوة فى مكة ، وبناء الرجال ليس أمرا سهلا ولكنه أمر أصعب من بناء القلاع ، وفتح النفوس والعقول أشد من فتح المدن والبلاد .

فى خلال هذه المدة كان المسلمون يتعلمون من نبيهم صلى الله عليه وسلم ضبط النفس وقوة الاحتمال والعفو عند المقدرة ودرء السيئة بالحسنة وغيرها من الصفات المثلى والأخلاق العليا التى تمكنت فيهم ، واجتمعت لهم منها قوة الشكيمة والارادة .

نزلت أولى آيات الجهاد بعد الهجرة « **اذن للذين يقاتلون بأنهم**

ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » الحج ٢٩ ، ثم تتابع نزول الآيات التى تأمر المسلمين بالدفاع عن أنفسهم **« وقاتلوا فى سـبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ... »** البقرة ١٩٠ ، ثم بعد ذلك بتأديب المشركين وتطهير الأرض من رجسهم فى كل مكان جزاء لبغيهم **« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »** التوبة ٣٦ .

مشروعية الجهاد :

ولم يشرع الجهاد فى الاسلام للعدوان ، ولكنه شرع لحكمة عليا وغاية سامية ، ويكفى فى الرد على من يزعم أن الجهاد شرع للعدوان قوله تعالى : **« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »** البقرة ١٩٠ . لقد شرع الله الجهاد دفاعا عن النفس وقضاء على الفتن وتأديبا لأولئك الذين يصدون عن سبيل الله ، ومنذ أن استشعر المسلمون حلاوة الايمان وجمال الهداية وأصبحوا واثقين من قدرتهم على انقاذ الناس مما هم فيه من عمى وضلال أصبح من واجب الالتزام الأدبى الأخذ بأيديهم الى طريق النور والهداية .

لقد انبعث الجهاد من منطلق الرحمة ، فمن الرحمة تقليم أظافر البغى والظلم والشرك ، ولا يستطيع أن يقول أحد أن قتل الذى يعيث فى الأرض فسادا مجانب للرحمة ، وما يفعله الكافرون والمشركون انما هو من هذا القبيل ، انها الفتنة التى يقول الله فيها : **« والفتنة أشد من القتل »** البقرة ١٩١ .

ولقد حمل المسلمون السيف وساروا به من هذا المنطلق ، ولم يكن السيف وسيلة انتشار الاسلام فقد انتشر الاسلام بروحه وتعاليمه وأخلاق ذويه ، ولو انتشر الاسلام بالسيف لترك الناس الاسلام بعد وضع السيف ولكن الملاحظ أن البلاد التى فتحها المسلمون حملت لواء الاسلام والدفاع عنه والاجتهاد فيه والتبريز فى علومه . قال العقاد فى كتابه عبقرية محمد : « أى ارهاب ؟ وأى سيف ؟ ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمئات والألوف ، وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون

عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره ، فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السـيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهـاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يسـتطيلوا على الناس بالسلطان ، فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجـوم ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع » .

وقد كان الاذن بالقتال فى الثانى عشر من صفر فى السنة الثامنة من الهجرة ، وفى ضوء ما نزل من آيات كريمة تدعو الى الدفاع والجهاد وضعت مبادىء توضح حدود ذلك أشار اليها الشيخ محمد الخضرى فى كتابه نور اليقين :

١ — اعتبار مشركى قريش محاربين لأنهم بدءوا بالعدوان فصـار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هـدنة وقتية بين الطرفين .

٢ — متى رئى من اليهـود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفى أو القتل مصداقا لقوله تعالى ((**واما تخافن من قوم خيـانة فانبذ اليهم على سواء**)) الأنفال ٥٨ .

٣ — متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشـا قوتلت حتى تدين بالاسلام .

٤ — كل من بادأ بعدوان من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن للاسلام أو يعطى الجزية .

٥ — كل من أسلم فقد عصم دمه وماله الا بحقه ، والاسلام يقطـع ما قبله .

الغـــزوات والســـــرايا

غزوة ودان :

(ودان قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ســـتة أميال). يقول علماء السيرة أن الغزوة ما قام النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه فيهـــا ، والسرية ما كلف احد قواده القيام بها .

وأول غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وســـــلم هى غزوة ودان ، وكانت فى شهر صفر على رأس اثنى عشر شهرا من هجرته صلى الله عليه وســـــلم ، وكان يريد قريشا وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف من كنانة ، فوادعته ضمرة ، وعاد ولم يلق كيدا .

غزوة بواط :

وكانت فى ربيع الأول من السنة الثانية عقب عودته من غزوة ودان ، فقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن عيرا لقريش بقيادة أمية بن خلف آيبة من الشام ، فسار اليها فى مائتين من المهاجرين ، وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص ، ولكن العيرنجت فرجع ، فقد كان المشركون يأخذون جانب الحذر خوفا من اعتراض المسلمين . وبواط جبلان من جبال جهينة ، وهما فرعان لأصل واحد على مسافة أبراد من المدينة جهة ينبع .

غزوة العشيرة :

وكانت فى جمادى الأولى من السنة نفسها ، فقد خرجت قريش الى الشام فى اعظم تجارة لها جمعت فيها كل أموالها برئاسة أبى ســـفيان بن حرب ، فخرج لها النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن العير كانت قد مضت فى طريقها ، فعاد النبى صلى الله عليه وســـــلم — وقـــد حالف بنى مدلج وحلفاءهم — منتظرا عودة العير من الشام ، والعشيرة بالتصغير مكان فى بطن ينبع .

سرية عبد الله بن جحش :

وكانت فى رجب ، وعدد جنودها ثمانية يقودهم عبد الله بن جحش ،

أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم كتابا وأمره الا يفضه الا بعد مسيرة يومين ، وبعد اليومين فتحه فاذا فيه : اذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل « نخلة » — مكان — فترصد بها قريشا وتعلم لنا من اخبارهم .

وظهرت حكمة الرسول واضحة فى اخفاء خبر الكُتاب حتى لا يعلم أحد من المنافقين أو اليهود وجهة الحملة فيخبروا قريشا .

وسار عبد الله بمن معه ، وفى أثناء سيره اضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا يطلبانه .

ونزل عبد الله بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة ، فاجمع أمر المسلمين على قتال القرشيين فحملوا عليهم وقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وافلت واحد منهم ، وعاد عبد الله بن جحش بالاسيرين والعير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وشاع فى المدينة أن المسلمين قاتلوا فى الاشهر الحرم ، وقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : ما أمرتكم بالقتال فى الأشهر الحرم ، فندم عبد الله وصحبه على ما حدث ، ولكن الله انزل قوله تعالى « **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل** » البقرة ٢١٧ . فكان ذلك تسرية لهم ، وأراد القرشيون فداء أسيريهما فتريث النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يعود سعد وعتبة ، فلما عادا قبل الفدية فى الأسيرين ، فأما الحكم فأسلم ، وأما عثمان فعاد كافرا الى مكة .

غزوة بدر الكبرى :

كانت فى رمضان من السنة الثانية ، وقد نزل فى شأنها آيات مبينات منها : « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** » آل عمران ١٢٣ ولئن كانت هذه الآية قد نزلت فى موقعة أحد لتذكر المؤمنين بمنة الله عليهم فى بدر فهناك آيات كثيرة أخرى تحدثت عن نعمة الله الكبرى على المؤمنين ونصره الذى منحهم اياه فى أول مجابهة مسلحة بينهم وبين

أعدائهم ، وكان للمشتركين فى هذه الغزوة من المسلمين منزلة سامية عند الله حتى قال النبى صلى الله عليـه وسـلم : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة .

ترصد النبى صلى الله عليه وسلم عير قريش وهى راجعة من الشام وحين علم برجوعها قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : هذه عـير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها .

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم لثلاث ليال خلون من رمضان ، وقد ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، معهم فرسـان وسبعون بعيرا يعتقبونها ، وحمل اللواء مصعب بن عمير .

وحين علم أبو سفيان بخروج المسلمين للقائه استأجر رجلا ليستنفر قريشا لانقاذ عيرها ، فاقبل هذا الرجـل على أعلى مكان يشرف على مكة ويقول : يا معشر قريش ، اللطيمـة اللطيمـة ، وأخبرهم الخبر ، فثاروا وأجمعوا على أن يسيروا الى النبى صلى الله عليه وسلم بقضهم وقضيضهم . فى الوقت الذى تمكن فيه أبو سفيان أن يخالف عن الطريق ويعود سـالما بالعـير .

ولكن عودته سـالما لم تحل دون انفاذ قريش ثورتها ، حتى قال أبو جهل : والله لا نعود حتى نأتى ماء بدر — قرية على مسافة ١٥٠ كم بين المدينة وساحل البحر — ونقيم أياما فننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان ، ولا تزال العرب تسمع بخروجنا هذا فتظل تهابنا وتحترمنا .

وخرج المشركون فى عدة سابغة وزهو كبير وجيش يقدر بتسـعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس وسـبعمائة بعير ، وكان النبى صلى الله عليه وسـلم قد وصل الى بدر قبلهم وعلم فوات القافلة وخروج قريش بجموعها له ، فاستشار أصحابه فأجمعوا على الثبات وعدم التراجع على رغم قلة عددهم وضعف عدتهم ، قال المقداد بن عمر : والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقـاتلا انا ههنـا قاعدون ، ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون .

وسر النبى صلى الله عليه وسلم من قول المقداد ودعا له بخير ، ولكنه عاد يقول : أشيروا على أيها الناس ، فقام سيد الأنصار سعد بن معاذ وقال : لكأنك تعنينا يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، انا لصبر فى الحرب صدق عنداللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ..

الاستعداد للمعركة :

سر النبى صلى الله عليه وسلم من قول سعد وأخذ يستعد للقاء ، وكان الحباب بن المنذر حين رأى مكان المسلمين قد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل هذا منزل أنزلكه الله ؟ أم انها الحرب والرأى والمشورة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل هى الحرب والرأى والمشورة . فقال الحباب : اذن علينا أن نقترب من مكان الماء وهناك نقيم حوضا نحجزه فيه ونمنع قريشا منه فنشرب ولا يشربون ونستسقى ولا يسقون ، فاستحسن النبى صلى الله عليه وسلم رأيه وفعل بما أشار .

المعركة :

واشتد الظمأ بقريش فأقسم الأسود بن عبد الأسد المخزومى أن يأتى الحوض ويشرب منه أو يهدمه أو يموت دونه ، واندفع بفرسه حتى دنا من الحوض ، فخرج اليه حمزة بن عبد المطلب وجندله بسيفه ، فالتهبت حماسة المشركين حين رأوا صاحبهم يشخب دمه ، فخرج ثلاثة منهم هم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة طالبين من يبارزهم ، فخرج اليهم عبدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فقتلوا هؤلاء المشركين .

وحين رأى المشركون ما حل بفرسانهم أخذوا يرشقون المسلمين

بسهامهم ، فصنع المسلمون للنبى عريشا لا تلحقه سهام المشركين ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يناجى ربه قائلا : اللهم هذه قريش قد أتت اليك بخيلها وخيلائها تريد تكذيب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض .

واستمر النبى صلى الله عليه وسلم فى مناجاته وعيناه مغرورقتان بالدموع ، حتى قال له ابو بكر رضى الله عنه : بعض مناشدتك ربك فان الله منجزك ما وعدك .

نصر الله :

وهنا يهبط عليه الوحى يبشره بالنصر ، فأخذ يتوجه الى صفوف المسلمين يحرضهم على القتال ، يقول لهم : والله لا يقاتلهم اليوم مقاتل مقبلا غير مدبر فيقتل الا أدخله الله الجنة .

واشتد حماس المسلمين وأمدهم الله بالملائكة يحاربون فى صفوفهم ويثبتونهم فى قتالهم كما اخبر الله فى كتابه الكريم بقوله تعالى « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » الانفال ١٢ .

وظهرت بطولة المسلمين واضحة وتجلى ايمانهم واستبسالهم وتشوقهم الى الجنة ، وما هى الا جولة حتى انكشف المشركون وولوا الادبار تاركين خلفهم قتلاهم وأسلابهم وأمتعتهم ، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون ، واستطاعوا ان يقتلوا منهم سبعين ويأسروا سبعين آخرين .

وحفر لقتلى المشركين قليب ألقوا فيه ، ووقف النبى صلى الله عليه وسلم على شفة القليب يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم قائلا : يا فلان بن فلان . أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ؟ فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قال عمر : يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

عودة مظفرة :

وكان المنافقون واليهود قد أرجفوا برسول الله صلى الله عليه وسلم كعادتهم فى كل زمان ومكان ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة من يبشرهم بالنصر المظفر ، فوصلت البشرى وقد فرغ المسلمون فى المدينة لتوهم من دفن ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم رقية زوج عثمان ابن عفان رضى الله عنه . فخذل الله المنافقين واليهود وأخزاهم بنصر المسلمين ، وعاد النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة شاكرا نعمة ربه الذى وهبه النصر على عدوه ، واستقبلته الولائد بما استقبلته به يوم هجرته الى المدينة ، حيث أخذن ينقرن على الدفوف وينشدن :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

ووزع النبى صلى الله عليه وسلم الغنائم على حسب ما نزل من قرآن كريم فى سورة الأنفال ، وهدأت نفوس المسلمين واطمأنت قلوبهم وهدأت خواطرهم بما أسعدهم الله به من نصر وبما وضعه لهم من حدود وتشريعات فى أمر الفىء والغنائم .

الأسرى :

واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى أمر الأسرى ، فأشار عمر بن الخطاب بقتلهم لأنهم قاتلوا رسول الله وآذوه وأخرجوه من بلده ، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، والذى كان لا يخير بين أمرين الا اختار أرفقهما وأيسرهما مال الى رأى أبى بكر الذى قال له : يا رسول الله ، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقهم وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضدا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ان الله ليلين قلوب أقوام حتى

تكون ألين من اللين وان الله ليشـــدد قلوب أقوام حتى تكون أشـــد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ، وان مثلك يا عمر كمثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .

وقبل النبى صلى الله عليه وسلم الفداء فى الأسرى ، فى كل أســير اربعـــة آلاف درهم ، ومن لم يكن له مال فعليه أن يعلم عشرة من غلمان المسلمين يعلمهم القراءة والكتابة ان كان يحسن ذلك .

عظة وعبرة :

ومن خـــلال عرض هـــذه الغزوة تتجلى لنا مواقف غاية فى الحـــكمة وحافلة بالعبرة منها ..

ـــ حين خرج المسلمون الى هذه الغزوة لم يكن هدفهم القتال ، ولكن كان هدفهم الاستيلاء على العير باعتبار أن قريشا كانت قد صادرت أموال المهاجرين وديارهم ، فالاستيلاء على العير انما هو جزء مما للمســـلمين فى ديار الكافرين ، ولأن المسلمين لم يكن فى اعتقادهم القتال تخلف كثير منهم، حتى قال فى ذلك بعض المسلمين حين بدأ القتال : يا رســـول الله نبنى لك عريشا بعيدا عن مرمى سهام المشركين حتى لا نطالك ، فان فى المدينة من المســــلمين من هم بحاجة اليك ولو علموا أن فى الأمر حربا ما تخلفوا عن الخروج معنا ، فان كان النصر حليفنا كان الغرض المنشـــود وان كانت الهزيمة لحقت بالمدينة والمسلمين بها .

ـــ وتجلى حب المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفدائيتهم واستبسالهم فى القتال ورغبتهم فى الاستشهاد ، فحين قال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صـــابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ، قال عمير بن الحمام ـــ وبيده تمرات يأكلها ـــ بخ بخ ما بينى وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف بالتمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل .

ـــ وفى نزول الملائكة تقاتل فى صفوف المسلمين وفى هطول الأمطـــار

معجزة كبرى للنبى صلى الله عليه وسلم أخبر عنها القرآن الكريم **((اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام))** الأنفال ٩ : ١١ . نزل الماء فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى واغتسلوا وتوضأوا وملأوا الأسقية ولبدت الأرض ، وبقدر ما كان المطر نعمة على المؤمنين كان نقمة على الكافرين .

— ولقد تجلت وداعة النبى صلى الله عليه وسلم وسعة صدره وحكمته فى استشارة أصحابه ، فلم يكن مستبدا بالأمر ، بل كان عطوفا ودودا لبيبا حصيف الرأى يقبل المشورة من أصحابه ، ولقد نزل على رأى أصحابه حين رأى الصواب فى رأيهم ، وقد وصفه القرآن الكريم فأحسن وصفه حين قال : **((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر))** آل عمران ١٥٩ .

— وظهرت حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى استيثاقه من أصحابه حين قال : أشيروا على أيها الناس : فلم يقنع بما أشير به أولا من وجوب لقاء العدو بل استزاد فى طلب المشورة حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعنينا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يريد من الأنصار الوفاء بالمبايعة التى بايعوها اياه ليلة العقبة ، وفى ذلك تأكيد على وجوب الالتزام بالعهود والمواثيق .

— وان هذه الغزوة تعلمنا الوثوق بالله واللجوء اليه فى كل آن وطلب النصر منه ، فما النصر الا من عند الله ، وعلى المجاهد ألا يركن الى قوته فحسب ، فقد تخون المجاهد عدته ، وقد يتخلى عنه حظه وشجاعته وقد يأتيه عدوه من حيث لا يحتسب ، فعليه بجانب استعداده لعدوه واخذ الحيطة له أن يستعين بالله ويحسن التوكل عليه ويكثر من التضرع له ومناجاته كما حدث من النبى صلى الله عليه وسلم فى مناجاته ربه حتى سقط رداءه عن منكبه فسواه له أبو بكر وقال له : بعض مناشدتك ربك يا رسول الله فان ربك منجزك ما وعدك .

— وفى الغزوة دليل على أن المسلمين لا يقاتلون عدوهم بكثرتهم ولكنهم يقاتلونهم بايمانهم ، فالعدد بين المسلمين وعدوهم متفاوت تفاوتا بينا ، ولكن الايمان هو الذى يشد القلوب ويقوى العزائم ، وهو الذى ببركته يوقع الله الرعب فى القلوب ، وبذلك انتصر المسلمون قليلو العدد على المشركين الذين يفوقونهم أضعافا مضاعفة ، ((**وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله**)) .

— وان خطاب النبى صلى الله عليه وسلم لقتلى قريش دليل على أن أهل القبور يسمعون ما يدور حولهم ولكنهم لا ينطقون ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن قال له . اتخاطب قوما قد جيفوا ؟ قال : ما أنتم باسمع لما اقول منهم . واذا كان هذا فى حق الكفار فما بالك اذا كان هؤلاء الموتى من المؤمنين . وقد قال النبى صلى الله عليهم فى شأن قتلى أحد من المسلمين : زوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده ما يسلم عليهم مسلم الى يوم القيامه الا ردوا عليه السلام .

— وفى استقبال الولائد للنبى صلى الله عليه وسلم بالغناء دليل على جواز الانشاد والغناء ما دامت المعانى نبيلة لا تهدف الى فجور أو فحش أو اثارة غرائز ، وخلاصه ما قاله العلماء فى ذلك : الغناء كالشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ولا يغفل أحد عن دور الانشاد الجيد فى اثارة المشاعر الطيبة وتغذية العواطف الكريمة ، ولا سيما فى مواقف البطوله والتضحية والفداء .

— أما قصة فداء الأسرى فهى تدلنا على صفة النبى الرحمة الذى يقول الله فى حقه ((**وما ارسلناك الا رحمة للعالمين**)) الانبياء ١٠٧ ، ولم يكن نزول القرآن موافقا لراى عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم أخطأ ، فقد استشار واجتهد وتصرف فى حدود ما اشير به عليه بما يوافق ما ركب فى طبعه من الرحمه والعفو والتسامح ، ولقد أباح القرآن ما قبلوه من فداء حيث قال ((**فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا**)) الانفال ٦٩ .

غزوات أخرى :

بعد غزوه بدر حدثت غزوات لم يلق فيها النبى صلى الله عليه وسلم كيدا ، منها غزوه بنى سليم بالكدر ، وكانت بعد غزوة بدر بسبع ليال ،

ثم غزوة السويق ، وكانت فى غرة ذى الحجة أراد ابو ســـفيان فيها أن يحقق نصرا ، فقدم الى المدينة مستظهر ببنى النضير ، وأشعل النار فى نخل خارجها وقتل رجلا من الأنصار وعاد موليا الأدبار ، انه أراد بذلك أن يحقق نصرا فات قومه ولكنه لم يفلح وكان فعله هذا أشبه بفعل قطاع الطريق لا فعل المحاربين ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم خلفه يريد أن يلحقه ولكنه استطاع أن يفلت بعد أن تخفف من أزواره وازوار من معه ، وكانت هذه الأزوار سويقا ، فسميت الغزوة باسمها . ثم غزوة ذى أمر بنجد ، وكانت فى صفر ، كان النبى صلى الله عليه وســـلم يريد غطفان ولكنه لم يلقهم بها فعاد ، ثم غزوة الفرع من بحران ، وكانت فى شهر ربيع الآخــر ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يريد بها قريشا ، والفرع قرية ناحيـــة المدينة . ولكن هناك غزوة ذات بال حدثت هى غزوة بنى قينقاع .

غزوة بنى قينقاع :

بنو قينقاع قوم من أكثر اليهود غنى وأوسعهم ثراء ، كانت صناعتهم صياغة الذهب والفضـــة والجواهر ويحتكرون هذه الصـــناعة . وكانوا يقيمون فى ضاحية من ضواحى المدينة ، وفى حى شيدوه وأحكموه حتى كان حصنا قويا اذا أغلقوه لم يستطع أحد اقتحامه .

وقد عرفنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أبرم معـــاهدة بين المسلمين واليهود ، وطلب من الجميع احترامها ، ولكن اليهود أهل غـــدر ونفاق فى كل زمان ومكان ، ولا يحسنون الاصطياد الا فى الماء العكر ، وقد ساءهم جدا الوفاق الذى حدث بين الأوس والخزرج . وكانوا يرتزقون من خلافاتهم ، كما ساءهم أكثر انتصار المسلمين فى بدر ، وكان النبى صـــلى الله عليه وسلم شديد الحذر منهم لاطلاعه على خبايا نفوسهم وما تنطوى عليه من حقد وحسد وعداء ، وبخاصة بعد أن جاءت نتيجة غزوة بدر على غير ما يشتهون — فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر — كما صورهم القرآن الكريم .

وانتهزوا فرصة ذهاب احدى العربيات الى سوق المدينة وهى زوجة أنصارى مسلم ، فباعت بعض ما تملك من ابل وغنم ، ثم ذهبت الى صائغ

يهودى من بنى قينقاع لتشترى بعض الحلى ، فتجمع حولها بعض اليهود ، يريدونها على أن ترفع حجابها ساخرين منها مستهزئين بها ، لكنها رفضت فغافلها أحدهم وربط طرف ثوبها الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

وحين وصل الأمر الى النبى صلى الله عليه وسلم نهض للأمر ، فدعا رؤساءهم وحذرهم من عاقبة البغى ونقض العهد ، فأغلظوا عليه فى الرد. وكان مما قالوا : يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن انا نحن الناس .

لقد قالوا ذلك من واقع الغرور الذى كانوا يعيشون فيه ، فقد كانوا أشجع يهود وأغناهم ، وظهر واضحا ما فى نفوسهم من شر يستفحل وتسوء مغبته لو ترك ، وكان الله قد أنذرهم فأنزل فى شأنهم فى مطلع سورة آل عمران « **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » آل عمران ١٢ ، ١٣ .

كما نزل فى حقهم قوله تعالى « **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين** » الانفال ٥٨ .

الغزوة :

وضرب النبى صلى الله عليه وسلم عليهم الحصار الذى دام خمسة عشر يوما ، واشتد الحصار عليهم وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وجاء عبد الله بن أبى بن أبى سلول ليستشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد احتفظ بحلفهم فى الوقت الذى تخلى فيه عنهم عبادة بن الصامت بعد أن علم غدرهم وسوء نياتهم .

قال عبد الله بن أبى للنبى صلى الله عليه وسلم : أحسن فى موالى ،

فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسـلم المرة بعد المرة ، ولكن عبد الله ادخل يده فى جيب قميص الرسول على هيئة الرجاء والتشفع ، فغضـب النبى وقال : ويحك أرسلنى ، ولم يكن غضبه من الرجاء نفسه ، فكم قبل النبى صلى الله عليه وسلم من رجاء وكان حليما عفوا ، ولكنه غضب لنفاق عبد الله الذى أبى أن يستجيب لما نزل من قرآن فى شأن هؤلاء القوم كمـا فعل عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، لقد استظهر عبد الله بالناس ونسى الله واعتقد أن اليهود نافعوه ، وانما النافع والضار هو الله .

قال عبد الله : والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى فانهم أعزتى ، اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع وقد منعونى من الأحمر والأسود وتحصدهم فى غداة واحدة ؟ انى والله امرؤ أخشى الدوائر .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم ، خذهم لا بارك الله فيهم .

وأصدر النبى صلى الله عليه وسلم قرارا باجلائهم عن المدينة فى خلال ثلاثة أيام ، بعد أن يتركوا أموالهم وأسلحتهم ، وأشرف على تنفيـذ ذلك عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، فخرجوا سراعا لا يصدقون بالنجاة ، وغنم المسلمون ما تركوه من مال وسـلاح وديار ، ولاحقتهم دعـوة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يمض عام على نزولهم أذرعات التى خرجوا اليها حتى هلكوا جميعا ..

وكذلك نصر الله المسلمين وأراحهم من شر هؤلاء اليهود الذين دأبوا على الشقاق ، كما أخزى الله المنافقين الذين كانوا يمالئونهم ويدافعون عنهم .

وقد نزل فى شأن عبـد الله بن أبى الذى والى اليهـود ودافع عنهم قوله تعالى : ((**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ...**)) الى آخـر الآيات ، كما نزل فى شأن عبادة بن الصامت قوله تعالى : ((**ومن يتول الله ورسـوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون**)) اقرأ الآيات فى سورة المائدة من ٥١ : ٥٦ .

مقتل كعب بن الأشرف :

وتيقظ المسلمون لأعـــدائهم من المشركين واليهـــود ومن يمالئونهم ، وحاولوا أن ينبعوا مع المشركين ما يسمى اليوم بحرب الاستنزاف عن طريق الترصد لعيرهم الذاهبة والآتية من الشام ، ولعل فى ذلك ما يرهق أعصابهم ويصيبهم بمختلف الخسائر والفزع ، فمن ذلك سرية زيد بن حارثة التى خرج فيهـــا على رأس فرقة من المسلمين ، فلقى عـــيرا لقريش فى مكان اســـمه « القردة » وهو ماء من مياه نجد ، فأصاب تلك العير وهرب الرجال .

كما حاولوا أيضا أن يتخلصوا من قادة الكفر من اليهـــود الذى ثبت بالدليل القاطع ما يعـــدونه للمسلمين من اذى وما يقومون به من تحريض صريح وهجاء قبيح . فقـــد كان كعب بن الأشرف رجـــلا من طيىء وامه من بنى النضير وكان شاعرا طالما هجا المسلمين بشـــعره وهيـــج عليهم الكفار ، وغاظه ما حاق بقريش فى موقعة بدر فأخذ يرثى من قتل منهم ويحرض على الأخذ بثأرهم ، ولم يكتف بذلك بل ازداد سفها وعتدا حين أخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فندب له النبى صلى الله عليه وسلم محمـــد ابن مسلمة وجماعة من المسلمين ، فقتلوه وخلصوا المسلمين من شره ، وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة .

ويستفاد من هذا الحدث جواز التخلص من أعداء الله ما داموا يعيثون فى الأرض فســـادا مصداقا لقوله تعـــالى : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فســـادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** » المائدة ٣٣ .

غـــزوة غطفـــان :

تهيأت قبيلتان من قبائل نجد هما بنو ثعلبة وبنو محارب للانقضاض على المدينة بقيادة فارس من فرسانهم اسمه « دعثور » ونما الخبر الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج اليهم فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول فى العام الثالث ليفاجئهم قبل أن يفاجئوه ، ولكنهم حين سمعوا بمسيره اليهم هربوا الى رءوس الجبـــال ، وعسكر المسلمون عند ماء يسمى « ذا أمر »

وهطل المطر غزيرا حتى بلل ثياب النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وخلع النبى صلى الله عليه وسلم ثوبه وعلقه فى شجرة جلس تحتها حتى يجف ، وتفرق المسلمون بعد أن علموا أن القوم فروا من وجوههم ، وابصر دعثور من مرقبه المرتفع فوق الجبل بالنبى صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وحده فأراد أن يهتبلها فرصة ، وجاء وحده فى خفيته شاهرا سيفه حتى وقف على النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ما يمنعك منى ؟ فقال : الله ، فارتعدت فرائص الرجل وسقط السيف من يده . فتناوله النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : من يمنعك منى ؟ قال الرجل فى وجل : لا احد ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فاسلم دعثور ودعا قومه الى الاسلام فاسلموا ، وتحولوا من أعداء الى أنصار .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد ظفر برجل منهم فى الطريق اليهم ، وهو الذى أنبأه بتفرق القوم وفرارهم ، ودعاه النبى صلى الله عليه وسلم للاسلام فاسلم وترك معه بلال بن رباح يعلمه الاسلام .

لقد كان الرعب احد جنود النبى صلى الله عليه وسلم يبثه الله فى قلوب اعدائه فلا يثبتون أمامه أو يذعنون لما يريد ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : نصرت بالرعب ، كما تجلت رحمة النبى وعفوه عند المقدرة فى تصرفه مع دعثور ، وكان فى امكانه أن يقتله ، ولكن حلمه الواسع هو الذى كان سببا فى اسلام الرجل وقومه ، وهكذا تكون الأخلاق الفاضلة التى أثنى عليها الله جل وعلا فى كتابه الكريم .

غزوة احـد :

أصرت قريش على الأخذ بثأرها لما أصابها فى بدر ، واستعدوا لحرب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورصدوا لذلك ربحهم من التجارة التى سلمت من المسلمين حينما تعرضوا لها فى بدر ، وكان ربحها يقرب من خمسين ألف دينار .

وتجمع ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم حلفاؤهم من الأحابيش وأبو عامر الراهب الأوسى الذى ترك المدينة كراهية لمجاورة المسلمين بها ، وشاركهم

أيضا جماعات من أعراب كنانة وتهامة ، لقد استنفرت قريش للقتال كل من يقدر عليه وحشدت من السلاح كل ما يقدر عليه .

واستشار النبى صلى الله عليه وسلم — وقد أبلغه عمه العباس بنبأ خروج قريش له — أصحابه ، وكان رأيه البقاء بالمدينة حتى يحضر القوم ، فان أقاموا بمكانهم أقاموا بشر مقام ، وان دخلوا المدينة قاتلوهم ، ووافق الشيوخ من المهاجرين والأنصار على ذلك الرأى ، ولكن الشباب تحمسوا للخروج ، وما زالوا بالرسول حتى قبل رأيهم ، فدخل ليلبس لباس الحرب .

ولما رأى ذوو الرأى من الأنصار أن الأحداث استكرهوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وجهوا اليهم اللوم وقالوا لهم : اتركوا الأمر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما خرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله نتبع رأيك ، فقال : ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

الخروج للمعركة :

وخرج النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه للقتال ، وقد عقد الألوية للمقاتلين ، فجعل لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب ابن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن حضير ، وكان عدد المسلمين ألف رجل وقبل سبعمائة وأراد اليهود مشاركته فى القتال فرفض ، وقال : لا نستعين بالمشركين على المشركين . والذى قال : ان عدد المسلمين كان ألفا قاله على اعتبار العدد قبل أن ينسلخ عبد الله بن أبى بن سلول بثلاثمائة من أصحابه راجعا بهم الى المدينة ، وكان انسلاخه هذا دليلا على استبطان الكفر فى قلبه وتمكن النفاق منه ، وقد حاول عبد الله بن عمرو والد جابر اثناء ابن سلول عن رجوعه قائلا له ولمن معه : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، ولكن عبد الله بن أبى رد عليه قائلا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، وكان يرد : عصانى — يقصد النبى صلى الله عليه وسلم — وأطاع الولدان ، فعلام نقتل أنفسنا ؟ .

ولقد همت طائفتان من المسلمين أن يتبعوا هؤلاء المنسحبين ولكن الله عصمهما ، وقد نزل فى ذلك قوله تعالى : ((**اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا**

والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » آل عمران ١٢٢ ، وقوله تعالى : « **وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »** آل عمران ١٦٧ وغير ذلك من الآيات .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى الى الجبل ، فجعل ظهر عسكره الى أحد ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وعبأ الرسول الجيش للقتال ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وكانوا خمسين راميا ، وقال له : انضح الخيل عنا بالنبل ، ولا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، ودفع اللواء الى مصعب بن عمير .

المعركة :

وعبأت قريش رجالها الثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس قد جنبوها وعلى ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يشجع المسلمين ويحضهم على الثبات وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ قالوا : وما حقه ؟ قال — وقد أمسك أبو دجانة بالسيف من رسول الله — : ان تضرب به العدو حتى ينحنى . فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه له ، وكان أبو دجانة شجاعا يختال عند الحرب ، وعصب رأسه بعصابة حمراء وأخذ يتبختر بين الصفين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن .

وكان أول من بدأ القتال أبو عامر الراهب الذى أطلق عليه الرسول لقب الفاسق ، فقد طلب المبارزة فرضخوه بالحجارة احتقارا لشأنه فولى

مدبرا ، ثم اخذت نساء قريش تثير الحماس في نفوس المشركين ، يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار .

وبدات المعركة بالمبارزه فأخذ المسلمون يجندلون الكفار واحدا بعد الآخر ، وازدادت المعركة تسعرا والمشركون يصرعون ، حتى قتل لطلحة ابن ابى طلحة أربعة أولاد ساوبوا لواء المشركين واحدا واحدا .

وحملت خيالة المشركين على المسلمين فرماها الرماة بنبالهم فتقهقرت ثلاث مرات .

وهتف النبى صلى الله عليه وسلم بربه قائلا : اللهم بك أجول وبك أصول وفيك اقاتل حسبى الله ونعم الوكيل ، ولم يلبث أن ولى المشركون الادبار تاركين خلفهم أسلابهم وأمتعتهم ، وتبع المسلمون المشركين يجمعون هذه الغنائم .

ولما رأى الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين ذلك تركوا أماكنهم ونزلوا يشتركون مع المسلمين فى جمع الغنائم ، ولكن رئيسهم عبد الله بن جبير قد نهاهم عن ذلك امتثالا لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوصاه بالثبات فى مكانه هو ومن معه ، ولكنهم لم يقدروا الموقف حق التقدير فانطلقوا من أماكنهم ، فاهتبل خالد بن الوليد هذه الفرصة وانقض بمن معه على مؤخرة الجيش الاسلامى وقتل من ثبت من الرماة وفيهم عبد الله بن جبير ، واخذ يعمل سيفه فى المسلمين المشغولين بجمع حطام الدنيا .

وتغير وجه المعركة ورد للمشركين روحهم بعد أن ارتبكت صفوف المسلمين ، ففر منهم من فر وقتل من قتل ، وزاد الموقف تعقيدا ارجاف المشركين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بطولة :

وثبت النبى صلى الله عليه وسلم فى موقفه ثباتا عظيما وحوله قلة من اصحابه الشجعان الذين تجلت بسالتهم وتضحيتهم . منهم أبو طلحة

الأنصارى الذى استمر بين يدى الرسول يرمى بجحفته وكان راميا شديد الرمى ونثر كنانته وصار يقول : وجهى لوجهك فداء ، وكل من يمر ومعــه كنانته يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : أنثرها لأبى طلحة .

وجعل النبى صلى الله عليه وســلم ينظر ليرى القوم ماذا يفعلون ، فيقول له أبو طلحة : يا نبى الله بأبى أنت وأمي لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك .

وكان ممن ثبت سعد بى أبى وقاص رضى الله عنه ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يشجعه قائلا : ارم سعد فداك ابى وأمى .

ومنهم سهل بن حنيف ويكنى أبا سعد وهو من أهل بدر ، كان راميــا ماهرا نضح عن النبى صلى الله عليه وسلم حتى انفرج عنه الناس .

ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى تترس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه .

ومنهم زيادة بن الحارث الذى ظل يقاتل دون رســول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت مقاتله ، فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات .

ومنهم نسيبة بنت كعب التى ألقت ما فى يدها من ســقاء وضماد واخترطت سيفا وقاتلت حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحا غائرا وحتى أغمى عليها من كثرة ما نزفت من دماء .

وفى هذه اللحظة اقبل أبى بن خلف يريد قتل النبى صلى الله عليــه وسلم ، فأخذ النبى حربة ممن كانوا معه ، وقال : خلوا طريقه ، فلما قرب منه ضربه ضربة أودت بحياته .

وحين رأى المشركون صمود المسلمين وانهم لم يستطيعوا أن يحققوا نصرا حاسما ارتضوا بما حدث ورجعوا من حيث أتوا .

درس بالغ :

وعلى الرغم مما أصاب النبى صلى الله عليه وسلم من جراح جعلت الدماء تسيل من وجهه الشريف حتى قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجــه

نبيهم بالدم ؟ على الرغم من ذلك فقد أخذ يستعرض شهداء ذلك اليوم ويتفقد أصحابه ، وبكى على الشهداء وبخاصة حينما رأى جسد عمه حمزة الملقب بأسد الله وقد مثل به الأعداء، بعد أن قتله وحشى العبد الحبشى الذى حرضته هند بنت عتبة على قتله ثأرا لأخويها وقبل حرضه جبير بن مطعم .

لقد استشهد فى هذه المعركة سبعون من خيرة الصحابة الأجلاء من بينهم غير حمزة ، مصعب بن عمير رضى الله عنه حامل اللواء الذي قطعت يده اليمنى فحمل اللواء باليسرى ، وحين قطعت اليسرى ضم على اللواء بعضديه ولم يتركه يسقط .

وأمر الرسول بالشهداء فدفنوا دون أن يغسلوا أو يكفنوا .

ولقد ظهر اخلاص المسلمين واضحا فى هذه المعركة ، فعلى الرغم من مخالفة أكثر الرماة وتركهم أماكنهم الا أنهم استشعروا الندم الشديد وأحسوا بالألم البالغ ، ولئن كانت المفاجأة غير المتوقعة قد أذهلت بعض المسلمين وأصابتهم بالذعر ، وبخاصة حين سرت شائعة وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن كثيرا منهم التفوا بالرسول وصانوه بأنفسهم حتى استشهد بعضهم دفاعا عنه — كما رأينا — .

افتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن الربيع فبعث من يبحث عنه ، فجاء من يخبره بأنه وجده فيه رمق فأخبره بسؤال الرسول عنه فقال . قل لقومى يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندى عذر .

وحين سمع أنس بن النضر — عم أنس بن مالك — بشائعة قتل الرسول قال : يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده ؟ موتوا على ما مات عليه اخوانكم ، ولم يزل يقاتل حتى قتل .

هذه الفدائية المستبسلة هى التى حالت بين اتمام النصر لقريش ، وهى التى جعلتهم يفكرون فى العودة سراعا قبل أن تتحول هذه الفدائية الى ضرام يقضى عليهم . وعلى ذلك فلا يحق القول بأن المسلمين انهزموا فى

هذه المعركة ، ولو أن المشركين انتصروا لما توقفوا دون اقتحـــام المدينة ليستأصلوا شأفة المسلمين فيها .

الى حمــراء الأســد :

وحتى يقطع النبى صلى الله عليه وسلم على المشركين خط الرجعـة ويقتلع من نفوسهم ما تخيلوه نصرا ويعمق فى نفوس المسلمين شعور الثقة بالنفس ويرفع روحهم المعنوية نادى فى أصحابه عقب عودته الى المدينـة مباشرة بالخروج خلف العـدو ، وأمر ألا يخرج الا من كان معه بالأمس ، فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصـابهم القرح ، فضـمدوا جراحاتهم واللواء معقود لم يحل ، وحمله على بن أبى طالب ، وســار الجيش حتى وصل الى حمراء الأسد .

وقد كان ما ظنه الرسول صلى الله عليه وسلم حقا من تفكير قريش بعد اغترارها بمزاعم النصر فى الاغارة على المدينة ، ولكنهم ما ان علموا بخروج النبى صلى الله عليه وسلم فى أثرهم حتى اعتقدوا بأنه قد أعد لهم ما لا قبل لهم به ، وأن من لم يصحبه من المسلمين فى المرة الأولى قد صحبه فى هذه المرة وأوقع الله الرعب فى قلوبهم ، وقيض الله المســلمين من يبلغ قريشا استعدادهم لها وعزمهم على القضاء عليها .

ذلك أن معبد بن أبى معبد الخزاعى — وكان يومئذ مشركا ولكنه كان يميل هو وقبيلته خزاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم وينصحون له — لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجوع الى رســول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه أبو سفيان قال له : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليـكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليـكم شىء لم أر مثله قط . قال أبو ســفيان : ويحـك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصى الخيـل . قال أبو سفيان : وانا قد أجمعنا الكرة عليهم ، قال : فانى أنهاك عن ذلك ، ولقد قلت فى ذلك شعرا .وأخذ ينشد :

كادت تهد من الأصوات راحلتى
اذ سالت الأرض بالجرد (١) الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة
عند اللقاء ولا ميل معازيل (٢)
فظلت أعدو أظن الأرض مائلة
لما سموا برئيس غير مخزول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
اذا تغطمطت البطحاء بالجيل (٣)
انى نذير لأهل البسل ضاحية
لكل ذى اربة منهم ومعقول (٤)
من جيش أحمد لا وحش تنابلة
ولا يوصف ما أنذرت بالقيل (٥)

والشعر منذ أقدم العصور العربية سلاح لا يفل ، فما أن سمع أبو سفيان هذه الأبيات حتى امتلأ رعبا هو ومن معه ، فعادوا الى مكة مسرعين .

أبو عزة الشاعر :

وفى الطريق الى حمراء الأسد ظفر النبى صلى الله عليه وسلم بأبى عزة الشاعر ، وقد كان أسيرا فى بدر واستعطف النبى صلى عليه وسلم فمن عليه ولم يقتله ولم يأخذ منه فدية ، وتعهد أمام النبى بألا يسىء الى المسلمين فى شعره ، ولكنه بعد أن عاد الى مكة أغراه أبو سفيان وما زال به حتى نقض عهده مع النبى وأخذ يحرض المشركين ضد المسلمين كما أخذ ينال منهم فى شعره . فلما وقعت أحد كان مع المشركين فيها .

---

(١) الجرد : العتاق من الخيل ، والأبابيل الجماعات ـ (٢) تردى : تسرع ، التنابلة : القصار ، الميل الذين لا رماح لهم ، العزل : الخالون من السلاح . (٣) تغطمطت : اهتزت ، الجيل : الصنف من الناس . (٤) أهل البسل : قريش ، الضاحية : الظاهرة للشمس ، الاربة : العقل . (٥) الوحش رذلة الناس .

وساقه قدره الى الوقوع فى قبضة النبى صلى الله عليه وسلم فى حمراء الأسد فأمر بقتله ، فذهب يستعطف النبى صلى الله عليه وسلم مرة أخرى قائلا له : دعنى لبناتى وأعطيك عهدا الا أعود لمثل ما فعلت . فقال له النبى : لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، اضرب عنقه يا زبير فضرب عنقه .

ايجابيات احد :

ولا يمكن أن يحدث شيء بدون قضاء الله وقدره ، ولقد كانت نتائج هذه المعركة من قضاء الله وقدره ، وتم ما فيها بناء على حكمة علوية سامية اشار اليها الحق سبحانه وتعالى بقوله : ((**ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**)) آل عمران ١٤٠ : ١٤٢ .

حقا لقد تميز موقف المؤمنين عن موقف المنافقين ، وظهر النفاق مكشوف الوجه يظهر عليه خبث الطوية كأنما الأعين تراه ، ففى الوقت الذى ينسحب هؤلاء المنافقون بعيدا عن المعركة بأعذار واهية يقبل المؤمنون على الموت بقلوب راضية ونفوس مطمئنة وشوق لا مثيل له ، انها الشهادة التى يطلبونها ويحرصون عليها ، ولقد أثنى الله على الشهداء خيرا فقال فى حقهم ((**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ويستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين**)) آل عمران ١٦٩ ـ ١٧١ .

لقد عودت هذه الغزوة المؤمنين الا يغتروا بالنصر ويفرحوا به ، بل عليهم أن يحمدوا الله فى السراء ويصبروا على الضراء ، فالأيام دول ومن سره زمن ساءته أزمان كما يقول الحكماء ، والدهر يومان ، يوم لك ويوم عليك ، ولكن العاقل هو الذى يستفيد من اليوم الذى عليه ويستثمر اليوم الذى له ..

وان كانت هنـــاك من فائدة جلى حققها المؤمنون فى أحـــد فتلك التى حذرتهم من فتنة الدنيا ، وقد رأوا ذلك فى تجربة عملية قاسية وحذرتهم من عاقبة عصيان الرسول وقد رأوا مثبة ذلك فى وضوح ، كما ألهمتهم بواجبهم الذى عليهم ان يلتزموا به فى غيبة القائد الأعلى حين أرجف المرجفون بوفاة النبى صلى الله عليه عليه وســـــلم ، فالصادقون من المؤمنين لم يفت فى عضدهم ذلك بل قالوا لبعضهم موتوا على ما مات عليه رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، وقد ظهرت ثمرة هذا الدرس جلية حين التحق بالرفيـــق الاعلى بعد ذلك بسنين ، عندئذ تليت الآية الكريمة « **وما محمد الآ رســـول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** (١) فثـــاب المسلمون الى رشدهم ومضوا برايتهم الخفاقة فى ثبات وشجاعة ويقين ..

وفى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشجاعة الفائقة والحكمة العالية ما يلفت أنظار القواد فى عصرنا بان يضربوا المثل لجنودهم فى الثبات وحسن التخطيط ، وعلى القائد ان يعرف أنه ليس بمنجاة عما يصيب جنوده فى المعركه ، وعليه أن يثير فى نفوسهم الحمية ويعلمهم رباطة الجأش ويرفع روحهم المعنوية ، وهذا الموقف نستشفه بوضوح فى اصرار النبى صلى الله عليه وسلم على الخروج بمن معه فى تعقب جيش قريش ، ورفضه فى أن يأخذ معه أحدا ممن لم يكن معه فى أحد ، ومضى حتى عسكر فى حمراء الأسد على النحو الذى تقدم .

لقد اســـتطاع بذلك أن يكفكف من غلواء قريش وأن يعيد للمسلمين الثقة فى النفس وأن يبدل الشعور من النقيض الى النقيض . وهكذا يمضى التاريخ ليثبت جلال شخصية المصطفى الفريدة وعبقريته الخارقة .

غـــدر وخيـــانة :

شهداء الرجيع وبئر معونة :

لم يأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جهدا فى المضى برســـالة ربه قدما ولم يقصر فى ابلاغها بشتى الوســـائل ، ولم يترك فرصة مواتية تفلت

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

منه دون أن يستثمرها لصالح الدعوة ، وقد أعانه على ذلك أصحابه الأبطال رضوان الله عليهم مضحين بأنفسهم وأموالهم حبا لله ورسوله ورغبة فى نشر دين الله ..

وفى الوقت الذى كان المسلمون يبذلون أرواحهم رخيصة فى ذات الله كان المشركون يلجأون للغدر والخيانة يعوضون بهما ما فاتهم من نصر حقيقى فى ساحة الشرف والكرامة .

فى سنة ثلاث من الهجرة جاء وفد من « عضل والقارة » لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون له : يا رسول الله ان فينا اسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الاسلام ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبعث منهم نفرا ستة من أصحابه هم : مرثد بن أبى مرثد الغنورى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ابن معاوية ، وعبد الله بن طارق .

وأمر عليهم النبى صلى الله عليه وسلم مرثدا ، حتى اذا وصلوا الى الرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز غدر القوم بهؤلاء المسلمين ، بأن استصرخوا عليهم هذيلا ، فأقبلت هذيل بسيوفها من كل جانب فأحاطت المسلمين الستة ، فجرد المسلمون على قتلهم أمام هذا العدد الضخم سيوفهم ، فقالوا لهم : انا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقاتلكم .

فأما مرثد وخالد وعاصم فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

وقاتلوا القوم حتى قتلوا . وحين قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد ، وقد نذرت — حين أصاب عاصم ولديها يوم أحد — لئن ظفرت برأسه لتشربن فيها الخمر . ولكن الله أرسل الدبر — الزنابير — تحمى عاصما من أعدائه حتى لا يحزوا رأسه ، فقالوا : اذا امسينا ذهبت الدبر ، فلما جاء المساء أرسل الله السيل فحمل عاصما

أنى حيث يعلم الله ، فقيل عنه : حمى الدبر . ان الله يعلمنا كيف يحفظ أولياءه ويبر قسمهم ، وكان عاصم قد اقسم الا يمسه مشرك ولا يمس مشركا فى حياته ، فمنعه الله بعد وفاته أيضا .

وتمكن المشركون من الثلاثة الباقين « زيد وخبيب وعبد الله » فأسروهم وحملوهم الى مكة ليبيعوهم بها ، وحين وصلوا « الظهران » استطاع عبد الله بن طارق أن يفلت من القيد ويأخذ سيفه ولكن القوم تأخروا عنه ورموه بالحجارة حتى قتلوه ودفن مكانه .

وفى مكة اشترى « حجير بن اهاب التميمى » خبيبا فقتله بأبيه ، واشترى « صفوان بن أمية » زيدا ليقتله بأبيه أمية بن خلف .

ولقد رأت قريش من هذين الشهيدين عجبا ما زال أثره باقيا يحدث الناس بما تفعله كرامة الله بالمؤمنين .

حدثت ماوية مولاة حجير — وكان خبيب محبوسا عندها — قالت : اطلعت عليه يوما وان فى يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل .

وحين حضره القتل طلب حديدة — موسى — يتطهر بها للقتل ، فبعثوا بها له مع غلام كان فى امكانه أن يقتله بنفسه ولكنه رفض الغدر ، وقبل وفاته صلى ركعتين ، ثم التفت الى المشركين يقول لهم : أما والله لولا أن تظنوا أنى انما أطلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، وحين رفعوه ليصلبوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا . ثم أنشد :

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

وعندما أراد المشركون قتل زيد بن الدثنة قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وانت فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

هذه موازنة ناطقة بين موقف المسلمين فى برهم ووفائهم وبطولتهم واستشهادهم ، وبين موقف الكفار الغادر الذى لا يستطيع مجابهة الحق فى لقاء واضح صريح .

هذا ما حدث يوم الرجيع ، وهناك موقف آخر للخيانة فى بئر معونة ، وهذه قصته :

استجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة حين طلب منه ارسال وفد ينشر الاسلام بين قبائل نجد ، وقد تحسب النبى صلى الله عليه وسلم أن يصيب أصحابه ما أصابهم فى الرجيع ، فقال أبو براء: أنا لهم جار .

وخرج سبعون مجاهدا من خيرة المسلمين يعرفون بالقراء ، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، وكان هذا دأبهم وهم فى طريقهم الى أداء رسالتهم . ولكن رأسا من رءوس الكفر اسمه عامر بن الطفيل ألب عليهم قبائل سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة ، فخرجوا عليهم غدرا ، يريدون استحضارهم بسيوفهم ، ولكن هؤلاء المجاهدين أبلوا فى الدفاع عن أنفسهم بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعا عدا اثنين منهم لم يشهدا الموقعة لأنهما كانا فى سرح القوم ، هما عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن محمد بن عقبة ، أنبأتهما الطير تحوم فوق جثث القتلى بما حدث ، فانطلقا نحو ما رأيا ، فاذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقاتل المنذر حتى قتل ، وتمكن الثانى من الافلات بعد ما أسر ، وفى طريقه لاخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث لقى رجلين ظنهما من القوم الذين قتلوا أصحابه فقتلهما ، ولكنه تبين بعد ذلك أنهما ليسا منهم بل من قوم آخرين

كان الرسول قد أجارهم فعزم رسول الله صلى الله عليـــه وسلم على أن يؤدى دينهما .

وقد تأثر النبى صلى الله عليه وسلم لمقتل أصحابه ، وظل شهرا كاملا يقنت فى صلاة الصبح يدعو على هؤلاء المعتدين .

ولئن دلت هذه الحوادث على شىء فانها تدل على حرص النبى صلى الله عليـــه وسلم على تبليغ رسالة ربه وانتهـــاز الفرص المكنة لذلك ، ولقـــد نظر النبى صلى الله عليه وسلم الى ظواهر القوم وترك سرائرهم الى الله ، والدعوة لابد أن تبلغ على الرغم مما يعترضـــها من صـــعوبات وما تحتاج اليه من تضحيات ، ولئن استراب النبى صلى الله عليـــه وسلم بمن جاءه يطلب الهداية فلم يرسل معهم من يعلمهم بناء على ما ظنـــه فيهم من سوء النية ليوشكن ذلك أن يصبح تشريعا يعمل به الناس بعده ويترتب على ذلك شر مستطير وقد يفوت به خير كثير ، والنبى صلى الله عليه وسلم هو صاحب هـــذه الكلمة المستنيرة : أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر . ومع ذلك لم يفته أن يستوثق لأصحابه ، ولكن هناك ما هو أعظم من الاســـتيثاق وهو القضاء والقدر فهما يغلبـــان كل تدبير واحتيـــاط ، وقد احتاط النبى صلى الله عليه وسلم جهده ، ولكن الله أراد لهؤلاء الشهادة ، وأراد لهم أن يضربوا المثل العليا فى التضحية والفداء وأن يكونوا علامات بارزة على الطريق يضيئون للناس طريق الجهاد لمن يجىء بعدهم ، وليبينوا للناس أن كلمة الاسلام يجب على المسلمين أن يحملوها عبر الآفاق مهما كلفهم ذلك من ثمن ، ان على المسلمين أن ينظروا الى تاريخهم المشرق فيدركوا كم بذل الأوائل فى سبيل نشر الدعوة حتى وصلت الينـــا فأخذناها ســـهلة ميسورة دون أن نكلف أنفسنا عناء المحافظة عليها . انها ثروة رائعة صيغت بالدماء والتضحيات والعرق والسهر والدموع ، ونحن الآن نبددها دون وازع من ضمير أو دين ، ودون خجل أو حياء .

بنـــو النضـــير :

وكان اجلاء بنى النضير فى شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة ، أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يستعين ببنى النضير — وهم يهـــود

يقيمون فى المدينـــة — فى اداء ديتى القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أميـــة الضمرى خطأ وهو فى أثناء رجوعه لابلاغ النبى أمر شهداء بئر معونة .

فحين أتاهم فى ديارهم رحبوا به وقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك بما أحببت مما استعنت بنا عليـــه . ثم خـــلا بعضهم الى بعض فقالوا : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله الى جنب جـــدار من بيوتهم — فليصل رجل منا هذا البيت فيلقى عليه صخرة ونستريح منه ، وتطوع لهذا العمل الغادر عمرو بن جحاش بن كعب ، وهم بما أرادوا .

لولا أن الغدر طبيعة فى اليهود لقلت ان عدوى الغـــدر سرت اليهم ممن غـــدروا بالمسلمين فى الرجيع وبئر معونة . ولكن الله شـــاء أن يبتلى المسلمون بذلك ليتنبهوا له وليعرفوا أنه من أسلحة الجبناء فى كل زمان ومكان وله صور مختلفة بعدد نفوس أصحابه وان كان معناه واحدا وهدفه كذلك .

ولكن الله فى علاه أراد أن ينجى رسوله وصفيه من هذا الفعل الغادر فأوحى اليه بما هم به القوم فقام مسرعا من مكانه وكر راجعا الى المدينة ، ثم قام أصحابه من بعده ، حتى لحقوه ، فأخبرهم بما كان اليهود عازمين عليه من غدر ، وتهيأ الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم ، وســـار اليهم ، وحاصرهم ست ليـــال .

وحين لجأوا الى حصونهم ليمتنعوا عليه فيها أمر عليه الصلاة والسلام بقطع نخيلهم واحراقها ؛ ليغيظهم بذلك ، فنادوه من الحصون : يا محمـــد قد كنت تنهانا عن الفساد وتعيب على من يصنعه ، فما بال قطع النخـــل وتحريقها ؟ ويبدو أن بعض المسلمين وقع فى نفوسهم شىء من ذلك ، فنزل قوله تعالى : ((**ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين**)) الحشر ٥ .

وكان المنافقون قد أرسلوا الى بنى النضـــير أن اثبتوا ونحن معكم ولا نسلمكم بل نقاتل معكم ان قوتلتم ونخرج معكم ان خرجتم ، ولكن الله قذف فى قلوب هؤلاء وهؤلاء الرعب ، وطلب اليهود من الرسول صلى الله

عليه وسلم أن يتركهم يجلون ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة — السلاح — فوافق .

وخرجوا الى خيبر ، ومنهم من سار الى الشام ، وقد حكى الله قصتهم في سورة الحشر ، التى جاء فى مطلعها قوله تعالى يمن على المؤمنين : **((هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار — ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار — ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ...))** .

وكان جلاء بنى النضير جزاء وفاقا لغدرهم وخيانتهم التى تعودوها وأصبحت جزءا من طبيعتهم حتى أصبحوا لا يستطيعون الحياة الا بها ، وهذا هو الذى تجده فى كل زمان ومكان .

ولقد أبان موقف النبى صلى الله عليه وسلم من بنى النضير عن نفسية المنافقين المظلمة وعقيدتهم الزائفة حيث خالفوا الباطل على الحق ، وظاهروا العدو على أهلهم فكان حقا على الله أن يفضح نواياهم الخبيثة وطواياهم السيئة حيث دمغهم بقوله تعالى : **((الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ...))** الحشر ١١ : ١٤ .

لقد أبانت الآيات الواردة فى هذه المناسبة جبن اليهود الذى يبدو فى عدم قدرتهم على مجابهتهم لعدوهم ، بل يلقونه دائما وأبدا من خلف جدر ، هذا هو المشاهد فى اتخاذهم الخطوط والاستحكامات ولا يعتمدون على المشاة غالبا فى حروبهم ، ولكن الله حين يريد هزيمتهم لا تغنى عنهم خطوط ولا حصون ولا تفيدهم استحكامات وتدبيرات .

غزوة ذات الرقاع :

كانت فى السنة الرابعة للهجرة فى اواخر ربيع الثانى .

والهدف منها الأخذ بثأر شهداء بئر معونة ، فبعد الانتهاء من بنى النضير

بشهر ونصف تقريبا ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى أربعمائة جندى من أصحابه البواسل متجهين الى نجد .

ووصلوا الى مكان به شجرة كبيرة كان يقدسها الأعراب اسمها « ذات الرقاع » فأقام النبى صلى الله عليه وسلم بمن معه فى هذا الموضع ، لذلك سميت الغزوة بذات الرقاع ، وقيل : انهـا سميت بذلك لأن أقدام بعض المسلمين قد نقبت من كثرة المشى فكانوا يلفونها بالرقاع .

وحين سمع الأعراب الغادرون بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى الأرض فلم يعثر لهم على أثر ، فواصل النبى صلى الله عليه وسلم مسيره حتى بلغ موضعا يقال له « نخل » من أرض نجد ، وهناك وجد نساء من بنى محارب وبنى ثعلبة فأمر بأسرهن ، ليستثير بذلك الرجال ويجبرهم على لقـائه .

ولكن هذا الأسر لم يزد ذويهن الا امعانا فى الهروب نحو الهضـاب ورءوس الجبال خوفا وفرقا . ثم حاول هؤلاء الهاربون أن يستنفروا حلفاءهم ليقاتلوا معهم المسـلمين ، ولكن الذين تجمعـوا من وراء هـذه المحاولة لم يستطيعوا الثبات أمام المسلمين .

كان المسلمون فى منتهى الحذر تحسبا للمفاجآت حتى شرع الله لهم صلاة الخوف فى هذه الغزوة ..

وهبت ريح باردة فانحاز النبى صلى الله عليه وسلم حين جاء الغروب الى أحد الشعاب الوعرة للاحتماء به من شدة البرد والرياح ، واختـار عبـاد بن بشر وعمار بن ياسر رضى الله عنهما ليقوما بحراسة الشعب من مباغتة العـدو .

واقتسم الصحابيان الحراسة ، فاختار عباد أول الليل ، ونام عمار فى انتظار نوبته ، وقام عباد على فم الشعب يصلى ، فجاء أحد الأعراب له زوجة أسيرة فى يد المسلمين متسللا محاولا أن يصيب من المسلمين غرة ، فلما وجد عبادا قائما يصلى ظن أنه ربيئة المسلمين فرماه بسهم فتحامل عباد

وانتزعه من ظهره ومضى فى صلاته ، فقذفه بسهم آخر فأخرجه أيضا ومضى فى صلاته ، ولكنه حين رماه بالسهم الثالث أيقظ عمارا ليتولى الحراسة مكانه . . .

وحين رأى عمار الدم ينزف بغزارة منه قال له : لماذا لم توقظنى حين أصبت أول مرة ؟ قال : كنت فى سورة من القرآن ولم أرد أن أقطعها ، ولولا أنى خشيت أن أضيع ثغرا أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ما انصرفت ولو أتى على نفسى .

وانصرف هذا الرجل المهاجم بدون فائدة ، كما لم يجد العدو من محاولته التجمع فى اليوم التالى شيئا ، فقد انهزم أمام قوة المسلمين واصرارهم ، ثم لم يجد هؤلاء الأعداء بدا من قبول الاسلام حتى يستردوا نساءهم وذراريهم ويظفروا بعفو النبى صلى الله عليه وسلم عنهم .

وعاد النبى صلى الله عليه وسلم منتصرا مع أصحابه . ويقص علينا جابر بن عبد الله رضى الله عنه هذه القصة التى كشف فيها طرفا شائقا من علاقة النبى بأصحابه وحسن معشره معهم ، وذلك فى أثناء العودة الى المدينة .

قال جابر : لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعلت الرفاق تمضى وجعلت أتخلف حتى أدركنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا . قال : أنخه ، فأنخته وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أعطنى هذه العصا من يدك ففعلت ، فنخسه بها نخسات ، ثم قال : اركب ، فركبت فخرج والذى بعثه بالحق يواهق — يسابق — ناقته مواهقة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتبيعنى جملك هذا يا جابر ؟ قلت : بل أهبه لك يا رسول الله . قال : لا ولكن بعنيه ، فقلت : فسمنيه يا رسول الله . قال : قد أخذته بدرهم . قلت : اذن تغبننى يا رسول الله . قال : فبدرهمين ، قلت : لا ، فلم يزل يرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأوقية ، فقلت : قد رضيت يا رسول الله . ثم قال : يا جابر هل تزوجت بعد ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : أثيبا أم بكرا ؟ قلت : لا بل ثيبا . قال :

أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ قالت : يا رسول الله ان أبى أصيب يوم أحــد وترك بنات له سبعا فنكحت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن ، قال : أصبت ان شاء الله ، أما انا لو قد جئنا صرارا — موضع قرب المدينة — أمرنا بجزور فنحرت وأقمنــا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها — حشاياها — قلت : يا رسول الله ما لنا نمارق ، قال : انهــا ستكون ، فاذا أنت قدمت فاعمل عملا كيسا .

فلما جئنا صرارا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا ، فحدثت المرأة الحديث ، فلما أصبحت أخذت برأس الجمــل حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، ثم جلست فى المسجد قريبا منه ، فلما خرج رأى الجمل ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فدعيت له ، فقال : يابن أخى خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال : اذهب بجابر فاعطه أوقية ، فاعطانى أوقية وزادنى شيئا يسيرا ، فوالله ما زال ينمى عندى ويرى مكانه فى بيتنــا ..

معــان نبيــلة :

ولقد رأينا ما تهديه لنا هذه الغزوة والقصة معا من مثل كريمة :

— منها تحمل المسلمين المشاق فى سبيل الله حتى أن أقدامهم دميت فلفوا عليها الرقاع ، وتلبيتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سراعا ، وهم على ما هم عليــه من جهــد ومشقة لا يترددون فى التلبية ، وهم على ما أصابهم من جهــد وما أصابوا من بلاء حسن لا يفاخرون بما صنعوا ، حتى ان أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه الذى ورد عنه حديث لف الرقاع على قدميه يقول : لقد ندمت على ما أفشيت من عمل أحتسب أجره عند الله ، ومن هنا يستحب اخفاء الأعمال الصالحة .

— ومنها حب المسلمين للعبادة وتفانيهم فيها وصبرهم عليها وتلذذهم بها ، حتى لقد أصيب عباد بن بشر وهو قائم يصلى يقرأ القرآن ولم يقطع صلاته الا بعد أن جهد وخشى أن يغلبه العدو على مكانه فأيقظ رفيقه عمارا .

ـ وفى هذه الغزوة اراد احد المشركين اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله عصمه منه ، ومع ذلك فقد عفا عنه النبي صلى الله عليـــه وسلم .

ـ وانظر الى اخـــلاق النبى صلى الله عليـــه وسلم مع أصحابه ، فهو فى غاية من الرقة والرحمـــة والتواضـــع ، فمن عادته أنه كان يتأخر فى القفول عن أصحابه حتى يتفقدهم، وقد عرف ما بجابر ورق له، وأكرم الله جابرا برسول الله صلى الله عليـــه وسلم حيث كان سببا فى نهوض جمله الضعيف وتقدمه بعد أن كان متأخرا .

ثم أخذ يداعب جابرا ويحادثه ، وكانت مساومته له على جمله طريقا غير مباشر لمساعدة جابر بعد أن أدرك حالته وضيق ذات يده . ان القصة تخبر عن لطف معشر النبى صلى الله عليه وسلم وحسن معاملته لأصحابه الذين بادلوه حبا بحب ووفاء بوفاء وآثروه على أنفسهم وافتدوه وقت الشدة بأرواحهم وصـــدق الله العظيم اذ يقول له : ((**ولو كنت فظـــا غليظ القلب لانفضوا من حولك**)) آل عمران ١٥٩ .

وهكذا يجب أن يكون القادة فى معاملتهم لرعاياهم ، ولا يغض من شأن الشريف أن يكون لين الجانب يأنس اليه أصحابه ، ويجدون فى صدره الرحب ملاذا لهم وأمنا ، فهو يدنو منهم ويداعبهم فى مزاح لطيف ويهش لهم ويضحك معهم ، وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم على امى فوجد اخى ابا عمير حزينا ، فقال : يا أم سليم ما بال ابى عمير حزينا ؟ فقالت : يا رسول الله مات نغيره ـ طير كان يلعب به ـ فقال صلى الله عليـــه وســـلم : أبا عمير ما فعـــل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك .

ويعلق العقاد رحمه الله على هذه القصة قائلا : وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها ، فالسيد يزور خادمه فى بيته ، ويسأل امه عن حزن أخيـــه ويواسيه فى موت طائر ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه ، ومثل هذا عطفه على الضعف البشرى فى رجل مثل عبد الله الخمار

الذى لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحده فى الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه .

غزوة بدر الآخرة :

وكانت فى شعبان من العام الرابع ، ولم يحدث فيها لقاء بين المسلمين وأعدائهم ، ذلك أن أبا سفيان عقب أحد قال للمسلمين : موعدنا معكم بدر العام المقبل ، فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم وفاء بالوعد ، ولكن قريشا كانت مجدبة فى هذا العام ، ولم يكن لديهـا استعداد للقتال ، فأرسل أبو سفيان نعيم بن مسعود الى المدينة يرجف بما أعد القرشيون للمسلمين فى هذا اللقاء من عدة حتى يثبط من عزيمتهم فلا يخرجون وينسب الخلف لهم .

وجاء نعيم الى المدينة يقول : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، ولكن هذا الارجاف لم يزد النبى صلى الله عليه وسلم الا عزما على الخروج ، فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه الى بدر فلم يجد أحدا ، وأقاموا فى هذا المكان وكان سوقا للتجارة يجتمع اليه الناس فى شعبان من كل عام .

وعاد المسلمون وقد غنموا سمعتهم الطيبة ومحافظتهم على وعودهم والاعلان بحسن استعدادهم ، وخذل عدوهم . وفى هذه الغزوة نزل قوله تعالى : « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل — فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** » آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤ .

غزوة دومة الجندل :

وفى ربيع الأول من العام الخامس نما الى علم النبى صلى الله عليه وسلم أن الأعراب من دومة الجندل ، وكانوا ظالمين يريدون غزو المدينة ، فسار اليهم فى ألف من أصحابه يسير بهم ليلا ويكمن نهارا حتى يفاجئهم ، وحين قرب منهم بلغهم الخبر ففروا تاركين وراءهم ماشيتهم ومتاعهم ، فغنم المسلمون ما وجدوه .

غزوة الخنــدق :

كانت فى شوال سنة خمس ، وتسمى غزوة الأحزاب لاجتماع الأحزاب فيها من قريش وغطفان وبنى مره وبنى أشـــجع وبنى سليم وبنى أســـد فى عشرة آلاف مقاتل يريدون المدينة على زعم استئصال شأفة المسلمين فيها . وقد حرض هؤلاء على ذلك يهود بنى النضير الذين أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن المدينة ، وظاهرهم على ذلك من داخل المدينة يهود بنى قريظة الذين ظلوا محافظين على عهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم حتى زين لهم بنو النضير الغدر فغدروا .

واستشار النبى صلى الله عليه وسلم — كعادته — أصحابه فى هذا الأمر ، فأشـــار سلمان الفارسى بحفر الخندق ، وهو أمر لم يكن العرب يعرفونه ، فحفروه فى الجهة الغربية التى تؤتى المدينة من قبلها ، وعمل فيه النبى صلى الله عليه وسلم بيده ترغيبا للمسلمين فى الأجر ، وكان المنافقون يتسللون لواذا دون اذن حتى لا يعملوا فيه .

وحدث ابن اسحاق أنه اذا اشتدت على المسلمين وهم يحفرون كدية — صخرة — شكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا باناء فيه ماء فتفل فيه ثم دعا الله بما شاء ثم نضـــح هـذا الماء على تلك الكدية فتنهال كالكثيب لا ترد فأسا ولا مسحاة .

وقال سلمان الفارسى : غلظت على صخرة ورسول الله قريب منى ، فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب ثانية فلمعت برقة أخرى ، ثم ضرب الثالثة فلمعت برقة أخـــرى ، فقلت : يا رسول الله ما هذا الذى لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أما الأولى فان الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانيـــة فان الله فتح على بهـــا الشام والمغرب ، وأما الثالثة فان الله فتح على بها المشرق .

قال ابن اسحاق راويا عن أبى هريرة قال — حين فتحت الأمصار فى عهد عمر وعثمان بعده — : افتحوا ما بدا لكم فوالذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها الى يوم القيامة الا وقد أعطى الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك .

وحين فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق اقبلت قريش ومن معها بخيلائها ، فأحاطوا بالمدينة ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة آلاف من المقاتلين كانت ظهورهم الى جبل سلع ، ولواء المهاجرين بيد زيد بن حارثه ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة .

وحين رأى المشركون الخندق هالهم ذلك ، وأخذوا يتحينون فرصة لاقتحامه ، وسولت لعمرو بن ود العامرى نفسه فعبر بفرسه الخندق طالبا المبارزة فخرج له على بن أبى طالب ، وقد لبس درع النبى صلى الله عليه وسلم وتقلد بسيفه ، وحين التقيا قال عمرو لعلى : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب ، فاستصغر شأنه وقال له : انى والله يابن أخى غير حريص على قتلك فارجع الى أهلك ، فقال له على : ولكنى حريص على قتلك ، وما هى الا جولة أو اثنتان حتى تمكن على من قتله بحول الله ، وصرع الفارس المغرور ، وهلل المسلمون وكبروا .

ولم يستطع المشركون أن يفعلوا شيئا ، ولم يحدث بين الطرفين سوى تراشق بالسهام لم يحسم المعركة .

دور نعيم بن مسعود :

وكان نعيم بن مسعود مشركا ، ولكن الله أراد له الهدى فاستنار قلبه بالايمان ، وعزم على أن يفعل شيئا لصالح المسلمين ، فتسلل فى خفية ، وأتم الله عليه نعمته فمكنه من أن يصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم على يديه ، وقال : يا رسول الله مرنى بما شئت . فقال له : انما أنت فرد واحد ، فخذل عنا ما استطعت فانما الحرب خدعة .

وكان يهود بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن زين لهم ذلك بنو النضير بزعامة حيى بن أخطب ، كانوا يثقون بنعيم بن مسعود ، فانطلق اليهم ودخل على زعيمهم كعب بن أسد وهو يظن أن نعيما ما زال على شركه ، فأحسن استقباله ، وما زال نعيم به حتى أقنعه بأن قريشا ومن معهم سوف يتخلون عنهم ويتركونهم وشأنهم مع محمد الذى سينفرد بهم بعد جلاء الأحزاب ، وأسقط فى يد كعب واحتار كيف

يصنع ، فاقترح عليه نعيم أن يطلب سبعين شخصا من رءوس الأحزاب ليكونوا رهائن فى يد بنى قريظة حتى يضمنوا استمرار حصار المدينــة . واقتنع كعب بن أسد برأى نعيم فهو عنده غير متهم .

وتركه نعيم فى طريقه الى أبى سفيان ، وأسر اليه أن بنى قريظــة ندموا على نقضهم العهد الذى كان بينهم وبين محمد ، وليبينوا له توبتهم عن ذلك عزموا على أن يسلموه سبعين رأسا من رءوسكم وسوف يحصلون على ذلك منكم عن طريق مخادعتكم .

وعجب أبو سفيان لهذا الخبر ولكنه أراد أن يستوثق منــه ، فوجه هو ومن معه من قادة الأحزاب الى بنى قريظة رسولا يخبرهم بأن الأحزاب قد قرروا بدء القتال صباح اليوم التالى ، فعلى اليهود أن يقوموا بتعهداتهم وينفذوا وعودهم .

فاعتذر اليهود بأن اليوم التالى هو يوم سبت وهم لا يحاربون فيه ، وهم يريدون أيضا ان يستوثقوا من صدق الأحزاب فى موقفهم مع اليهود ، فعليهم أن يسلموا لهم سبعين رجلا ليكونوا رهينة فى أيديهم ، حتى لا يتخلى عنهم الأحزاب ويتركوهم فريسة لمحمد .

وكان هــذا الرد كافيا لأن يزعزع ثقة الأحزاب فى اليهود ، كما كان امتناع الأحزاب عن تسليم الرهائن كافيا أن يثير ريبة اليهود فى الأحزاب . وبذلك نجح نعيم بن مسعود فى تفريق شمل الحليفين بل وفى زرع العداوة بينهما .

وأصبح الأحزاب منذ هذه اللحظة مستريبين فى نصرهم ، بل اعتقدوا أن اليهود سوف يعينون المسلمين عليهم ، وحين بدأ الشك يدب فى صفوفهم أخذت بعض القبائل تتخلى عن مواقعها ، وبدت من أبى سفيان وهو القائد الأعلى للأحزاب رغبة فى العودة ، فقد بات الأمل فى كسب المعركة ضــد المسلمين بعيدا ان لم يكن مستحيلا .

ولكن الله أراد أن ينزع الثقة من نفوسهم تماما ، وأن يوقع الرعب فى نفوسهم ، وأن ينزل بهم هزيمة ساحقة بغير سيوف المسلمين ، فأرسل

عليهم ريحا صرصرا عاتية قلعت خيامهم وكفأت قدورهم وأعمت أبصارهم ، فاضطربوا اضطرابا شديدا ، حتى أخذ بعضهم يضرب بعضا استرابة فيه وظنا أنه من المسلمين ، ولم يجدوا بدا من الفرار نجاة بأنفسهم ..

ولقد توقع المسلمون هذه النهاية المثيرة لهم ، فحين بدأ البرد يزحف على جبهة القتال أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يستطلع خبر المهاجمين ، فأرسل حذيفة بن اليمان ليقوم بهذه المهمة ، فخرج وهو لا يكاد يتماسك من شدة البرد ، واستطاع أن يتسلل الى صفوف المشركين وأن يجلس بينهم دون أن يفطنوا له ، وقد تبين من أحاديثهم عزمهم على الرجوع بعد أن أصبحت مواقعهم ليست بدار مقام ، ثم تسلل عائدا ليخبر النبى صلى الله عليه وسلم بمدى الانهيار النفسى الذى أصاب المشركين .

وهكذا انسحب المشركون مخذولين وقد تفلتت من أيديهم الفرصة التى حلموا بها طويلا ، وأعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، وصدق الله حيث صور هذه المعركة وحالة المؤمنين حين نقض اليهود العهد وحين تخلى المنافقون عن تأييدهم للمسلمين ، فأصبحوا بين عدوين ، ولكن الله هو الذى تولى نصرهم وتأييدهم وقال فى ذلك : ((**يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ــ اذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ــ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ...**)) الى أن قال : ((**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا**)) الأحزاب ٩ : ٢٥ .

دروس نافعة :

ولقد تعلمنا من هذه الغزوة درسا آخر فى نقض العهود من اليهود وعدم محافظتهم عليها وغدرهم المتواصل ، وهم لا يحافظون على هذه العهود الا خوفا فاذا أمكنتهم الفرصة لم يلبثوا أن يغدروا . وهم لا ينسون العداوة مطلقا ، فهذا حيى بن أخطب زعيم بنى النضير الذين أجلوا عن المدينة لم ينس عداوته ، ولم يأخذ عبرة مما أصابه ، فمشى الى المشركين حتى

أذعرهم على النبى صلى الله عليه وسلم أولا فجمعوا ما جمعوا ، ثم مشى الى غيرهم بعد ذلك حتى الب الحرب عليهم ، ثم ما زال ببنى قريظة حتى جعلهم ينكثون بعدهم ويغدرون ، ثم ان هؤلاء ما كان لهم أن يغدروا لولا أنهم تيقنوا بأن المسلمين فى موقف حرج وان الدائرة ستدور عليهم فهذه فرصة لابد أن يغتنموها . وغدرهم هذا هو الذى جعل ظهر المسلمين ينكشف ويصيبهم بذلك أضطراب شديد . هذا درس للمسلمين يتعلمون منه أنه لا ثقة بكافر ..

. وتعلمنا أيضا وجوب اتخاذ ما يلزم من أسلحة لمواجهة العدو ، والتجديد فى وسائل الحرب والاحتياط لدرء الخطر وكسب النصر ، وبث العيون والارصاد واستطلاع الاخبار واستعمال الكنى فى الابلاغ وهو ما يسمى الآن بالشفرة ، وقد استعملها النبى صلى الله عليه وسلم ، فحين أراد أن يستوثق من غدر بنى قريظة أرسل سعد بن معاذ ليتحقق من الخبر . وأوصاه بأن يلحن — يكنى — له باشارة يفهمها ان كان الخبر صحيحا ، وأن يجهر ان كان كذبا ، حتى لا يفت ذلك عضد المسلمين ، فحين استوثق من صحة الخبر عاد يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله عضل والقارة ، فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أبشروا بالنصر . واراد سعد بكلمة عضل والقارة أن اليهود غدروا كغدر هاتين القبيلتين : عضل والقارة .

ونتعلم أيضا امكانية استعمال الحيلة والدهاء فالحرب خدعة كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد تمكن نعيم بن مسعود بحيلته ودهائه أن يحبط التحالف بين المشركين واليهود ، مما أربك خطط العدو وكان سببا من أسباب تراجعهم قبل أن تدهمهم الريح العاصفة والبرد الشديد .

ونتعلم كذلك وجوب تكاتف المسلمين وتضامنهم وحبهم الشديد لنبيهم حتى تفانوا فى اتمام الخندق فى مدة قياسية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قدوة لهم فى الدأب والجد والعمل ، يشجعهم ويعمل بيده معهم ، وقد أصابهم فى ذلك الجهد الشديد والارهاق البالغ بالاضافة الى الجوع الذى تعرضوا له ، ولم يفت ذلك فى عضدهم .

من معجزات الرســول :

ومما يدل على مدى الجهــد الذى كانوا فيــه ما يرويه ابن اسحاق فى سيرته عن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان قالت : دعتنى أمى فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى وقالت : اذهبى الى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما ، فمررت برسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فقال لى : تعالى يا بنية ما معك ؟ فقلت : تمر بعثتنى به أمى الى أبى وخالى ، قال : هاتيه : فصببته فى كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأتهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا — ألقى — بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لانسان عنده : اصرخ فى أهل الخندق أن هلم الى الغداء ، فاجتمع الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وانه ليسقط من أطراف الثوب .

كما روى عن جابر بن عبد الله قال : عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخندق ، فكانت عندى شويهة غير جــد سمينة ، فقلت : لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأمرت امرأتى فطحنت لنــا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزا وذبحت لنا تلك الشاة .

قال : فلما أمسينا قلت : يا رسول الله ، انى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز هــذا الشعير ، فأحب أن تنصرف معى الى منزلى — وانما أريد أن ينصرف معى وحده — فلما قلت له ذلك ، قال : انا لله وانا اليه راجعون .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى الله ، ثم أكل وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها .

وفى رواية البخارى لهذه القصة : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره (أى جابرا) ألا ينزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى يأتى ، وذلك بعــد أن أخبره جابر بأن ما صنعه من طعام يكفيه ويكفى معه رجلا أو رجلين ، وحين جاء القوم الى الطعام جعل النبى صلى الله عليه وسلم يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرده — أى يغطيها — والتنور اذا أخذ منه ،

حتى فرغ القوم وبقى بقية ، فقال لامرأة جابر : كلى واهدى فان النـــاس اصابتهم مجاعة .

ما أعظم هذه البركة ، وما أجدر هذه القصة أن ترد على هؤلاء القوم الذين يقولون : ان المعجزات الحسية لا مكان لها فى حياة الرسول .

لقد حفلت هـــذه الغزوة بالمعانى والعبر كما حفـــل غيرها بذلك ، وان قليلا منهـــا ليكفى أن يضيف الى معيار هـــذه الشخصية الجليلة كثيرا من مواطن العظمة والاعجاب فما بالك بكل ما تفيض به من المعانى والمثل ؟.

غزوة بنى قريظـــة :

وكان من الطبيعى أن يهبط الوحى على النبى صلى الله عليـــه وسلم آمرا له بالتوجه الى بنى قريظة ، هؤلاء الذين نقضـــوا عهـــدهم وتخلوا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وقت الشدة بل وظاهروا عدوه عليه .

فقد ورد فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليـــه وسلم حين رجـــع من الخندق ووضع الســـلاح واغتسل أتاه جبريل عليه الصـــلاة والسلام فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه فاخرج اليهم ، قال : الى أين ؟ قال : ههنا ، وأشار الى بنى قريظة . فخرج النبى صلى الله عليه وسلم اليهـــم .

ونادى منادى النبى صلى الله عليه وسلم فى الناس : لا يصلين أحد العصر الا فى بنى قريظة ، وحاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم خمســـا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار ، والقى الله الرعب فى قلوبهم فبدأوا يفكرون فى المفاوضة .

وخاطبهم زعيمهم — وقـــد أدرك دقـــة الموقف وخطورته — قائلا : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، فقالوا : ما هى ؟ قال : اما أن نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، فان أبيتم فلنقتل نساءنا وأبناءنا ونخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم

الله بيننا وبين محمد ، فان أبيتم هذه أيضا فان الليلة ليــلة سبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قــد أمنونا فيهــا فانزلوا لعلنا نصيب من محمــد وأصحابه غرة .

ولكنهم رفضوا هذه الاقتراحات بشدة وانفقوا على ملازمة حصونهم ، ثم انهم بعد أن خامرهم اليأس لم يجدوا بدا من النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحب النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل الحكم فيهم الى سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس التى كانت حليفة لبنى قريظة ، فوافقوا على ذلك .

وكان سعد بن معاذ قد أصيب بسهم فى الخنــدق وكان يعالج منه ، وقد دعا الله ألا يموت من جرحه هذا حتى يشفى الله نفسه من بنى قريظة ، فاستدعاه النبى صلى الله عليــه وسلم ، فقدم على حمار ، فلما دنا قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : قوموا لسيدكم ، ثم قال : ان هؤلاء نزلوا على حكمك . فحكم عليهم سعد بأن تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله تعالى . وانفجر جرح سعد عقب هذا الحكم فكان سبب موته .

واستنزل اليهود من حصونهم حيث لقوا المصير الذى اســــتحقوه بغدرهم وخيانتهم ، وضرب معهم عنق حيى بن أخطب زعيم بنى النضــير الذى زين لهم السوء وحرضهم على الغدر والخيانة .

وانتهت صفحة من صفحات الختل والمكر والخسة ، ولو قدر لهم أن ينجوا أو أن يلقوا مصيرا مشابها لمصائر السابقين لهم للقى المسلمون منهم الكثير من الكيد والدس والايذاء ، ماذا يصنع النبى صلى الله عليه وسلم مع قوم يتيقنون من نبوته ومع ذلك يلجــــون فى عداوته ويقفون فى طريق دعوته ويحرضون عليه أعداءه ؟

انهم لم يؤمنوا مكابرة وعنادا وحسدا من عند أنفســـهم ومثل هؤلاء لا علاج لهم الا التخلص منهم اتقاء لشرهم وحفاظا على دار الهجرة من أن تظل مكانا للدسيسة والوقيعة بين المسلمين ، أو أن يظل فيها مكان يطعن

فيه المسلمون من الخلف ، وقد جرب المسلمون الاجلاء فلم يزد على أن جعل هؤلاء المطرودين يملأون الجزيرة فسادا وكيدا ، فكان لابد من هذا الاجراء الحاسم الجرىء .

وفى أمر النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالقيام لسعد بن معاذ دلالة على مشروعية القيام للقادم تكريما له ، وبالقياس عليه وجوب تكريم أولى الفضل من المسلمين ، وانما القيام المنهى عنه هو أن يظل المرء جالسا والناس حوله قياما لا يستطيعون الجلوس ، وقد ورد فى ذلك حديث شريف : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » .

ان الاسلام هو دين التواضع ، وهو كذلك دين التراحم والمروءة ومعرفة أقدار الناس ، فما علينا أن نكرم ذوى الفضل ، ولكن الذى يرى لنفسه موضعا يجب أن يكرمه الناس من أجله فهذا هو المنهى عنه .

واننا لندرك من حديث النبى صلى الله عليه وسلم بخصوص سعد معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أقدارهم ومنازلهم .

غـزوة بنى المصطلق :

كانت فى شعبان فى العام السادس الهجرى فيما يرويه ابن اسحاق فى سيرته ، وان كان بعض كتاب السيرة الأفاضل يرون أنها كانت فى العام الخامس قبل غزوة الخندق .

وقد ذكر ابن اسحاق غزوتين قبل غزوة بنى المصطلق ، وهاتان الغزوتان هما غزوة بنى لحيان وغزوة ذى قرد . وبنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وأصحابه .

أما غزوة بنى لحيان فكانت بهدف الثأر لأصحاب الرجيع ، ولكنه ما ان بلغهم خروج النبى صلى الله عليه وسلم لهم حتى تفرقوا فى رءوس الجبال ، ولم يظفر بهم ، وكان ذلك فى جمادى الأولى من العام السادس .

ثم بعد عودته الى المدينة لم يقم بها الا ليالى قلائل حتى أغار عيينة ابن حصن الفزارى فى خيل من غطفان على لقاح لرسول الله صلى الله

عليه وسلم بالغابة ، وقتلوا رجلا وأسروا امراته ، فبلغ الخبر النبى صلى الله عليه وسلم فتبعهم واستنقذ السرح منهم وقتل من قتل ، وكان ذلك فى مكان اسمه : ذو قرد .

وأما غزوة بنى المصطلق فقصتها أن بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة جمعوا بقيادة الحارث بن أبى ضرار وهو أبو جويرية بنت الحارث التى تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك . جمعوا جندا غفيرا أعدوه لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع الرسول بذلك خرج اليهم حتى لقيهم على ماء اسمه المريسيع وكان لخزاعة ، واقتتل الجيشان ، فهزم الله بنى المصطلق وغنم المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وقد حدث فى هذه الغزوة أمور تستدعى الاشارة اليها بل الوقوف عندها .

ذلك أن المنافقين اشتركوا فى هذه الغزوة طمعا فى الغنائم بعد أن علموا اطراد النصر للمسلمين ، وكان اشتراكهم هذه المرة مدعاة لحدوث فتنة كاد يترتب عليها شر كبير بين المهاجرين والأنصار ، فقد تنازع غلام لعمر بن الخطاب اسمه « جهجاه بن سعيد الغفارى » مع «سنان بن وبر الجهنى » عند الماء وكادا يقتتلان ، فصاح الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصاح جهجاه : يا معشر المهاجرين .

واهتبل عبد الله بن أبى بن سلول الفرصة فأراد أن يشعلها نارا ، وقال لمن معه : أوفعلوها ، لقد نافرونا وكاثرونا فى دارنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش — يقصد المهاجرين — الا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ونقل الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار عمر رضى الله عنه بقتل ابن أبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟

وأمر صلى الله عليه وسلم بأن يؤذن فى الناس بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم التالى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما . ولقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبى يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يقتل أباه بنفسه ان كان لابد من قتله ، حتى لا ينظر الى قاتل أبيه فيجد عليه فى نفسه فيقتله بأبيه ، فيكون قد قتل مسلما بكافر . هكذا قال للنبى صلى الله عليه وسلم . ولكن النبى ترفق به فقال له : لا تقتله ، ولكن نحسن صحبته ما بقى معنا .

وأخذ أصحاب عبد الله بن أبى بعد ذلك يعنفونه على ما قال . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له انف لو أمرتها بقتله اليوم لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

هذا أمر ، وهناك أمر آخر هو حديث الافك ، وهذه قصته : فى أثناء انصراف المسلمين فى هذه الغزوة كانت السيدة عائشة رضى الله عنها فى بعض شأنها فانفلت عقد من صدرها فراحت تلتمسه ، فحين أذن بالرحيل لم تسمع ، وجاء القوم فاحتملوا الهودج الخاص بها على اعتبار أنها فيه ، وعادت فلم تجد أحدا فجلست فى مكانها ، وجاء صفوان بن المعطل ، الذى تخلف وراء الجيش ليتفقد ماعساهم أن يتركوه ، فوجدها جالسة — وكان قد رآها قبل نزول آيات الحجاب — فقال : انا لله وانا اليه راجعون ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأناخ راحلته واستأخر عنها حتى ركبت ، وانطلق يقود الراحلة حتى لحق بالجيش ، فلم تنج رضى الله عنها من لسان عبد الله بن أبى بن سلول وبعضهم ، وحدث أن مرضت عقب عودتها ولزمت الفراش ، والناس يخوضون فيما أشاعه المنافق عنها ، حتى تأذى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس قائلا : يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغ من أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ..

وحسم القرآن الموقف فنزل مبرئا ساحة أم المؤمنين رضى الله عنهـا وداعيا الي اقامة الحد على من يقذف المحصنات .

لقد تجلت حكمة النبى صلى الله عليه وسلم واضحة فى علاج المشكلات ، فان أبسط ما يأمر به اى قائد — وهو معذور فى تصرفه — تواجهه هذه المشكلة أن يأمر بقتل مثيرها . الا أن نظر النبى صلى الله عليه وسلم كان أبعد من الوقوف عند العلاج القريب الذى لا يحسم الأمور، بل في الامكان أن يوغر الصدور ويثير النفوس ويفجر الفتنة ، لقد شغل النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالسفر المتواصل الشاق ، حتى اذا بلغ منهم النصب أقصاه نزل بهم فناموا نوما عميقا ، وكان ذلك كافيا لينسى الناس ما حدث من ابن سلول .

ثم ان حديثه لابنه المؤمن بانه سيترفق بأبيه ويحسن معاملته أثلج صدر هذا الابن المؤمن الصادق الايمان ، وكانت هذه مجاملة طيبة من النبى صلى الله عليه وسلم له ، وفى الوقت نفسه كانت افساحا للمجال أمام رفقاء الأب المنافق ليكتشفوه على حقيقته فيصدوا عنه ويحتقروه ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : لو قتلناه يومذاك لأرعدت له أنوف لو أمرت بقتله اليوم لقتلته .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على حسن معاملة أصحابه طبعا لا تكلفا ، وقد بعث رحمة للعالمين ، وهو لين الجانب الى أبعد حد ، ولا يلجأ الى الشدة الا حين تستحيل نتيجة اللين عبثا عملا بقول القائل : آخر الدواء الكى .

كما كان موقف عبد الله الابن موقفا رجوليا يدل على قوة الايمان وثبات العقيدة والبر بصلة الايمان ، ولم يشأ أن يعكر ايمانه بأدنى شيء وفى سبيل ذلك أن يضحى بأقرب الناس اليه محافظة على عقيدته بيضاء ناصعة .

ولقد حدث بعض الرواة أن عبد الله الابن فى اثناء الرجوع الي المدينة بعد غزوة بنى المصطلق سبق حتى وقف على باب المدينة قبل أن يدخلها

المسلمون ، فلما جاء أبوه ليدخل منعه وقال له : والله لن تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلم من هو الأذل ومن هو الأعز ؟ ولم يدعه يدخل حتى أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فهل هناك دليل على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا ؟

ولقد أراد الله أن يختبر نبيه صلى الله عليه وسلم بحديث الافك ليظل قمة القمم فى الصبر ، ومثلا أعلى للمؤمنين فى الاحتساب ، فلم يكن هناك لون من الابتلاء يصعب على النفس البشرية تحمله الا والنبى صلى الله عليه وسلم ذاقه وصبر عليه واحتسب أجره عند الله .

لقد فقد أحب الناس اليه فصبر ، وأوذى فى جسده فصبر ، وأوذى فى عرضه فصبر واحتسب ، كان الافك محنة فصار منحة ، كان بلاء فصار وساما ، ونزلت تبرئة الزوجة العفيفة فى قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته أبد الدهر . فهل هناك تكريم لعائشة أكثر من هذا ؟ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول ((**ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم**)) النور ١١ .

كان هذا الحادث فرصة يتعلم منها المؤمنون دروسا فى التهذيب وحسن الخلق والتمسك بالفضائل ، ولقد أراد أبو بكر أن يقطع معونته عن قريب له اسمه ((مسطح)) كان يعوله ، ولكنه ضلع فى الافك ، فنزل القرآن الكريم يأمره بالاحسان الى من أساء اليه ويقول له ((**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولو القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**)) النور ٢٢ . قال أبو بكر حين نزلت هذه الآية : بلى يا رب نحب أن تغفر لنا ووصل مسطحا كما كان يصله .

وفى حديث الافك نزلت الآيات الخاصة بها فى سورة النور ، وفى فتنة المنافقين الأولى نزلت سورة ((المنافقون)) ..

ومن نوادر الحكمة العالية فى غزوة بنى المصطلق أن النبى صلى الله عليه وسلم أعتق جارية من السبى هى جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار رئيس القوم وتزوجها ، فحين فعل ذلك اطلق كل مسلم كل أسيرة فى يده من بنى المصطلق قائلين : لا يجوز لنا أن نبقى اصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فى أيدينا ، وكان هذا التصرف سببا فى اعتاق بنى المصطلق جميعا الاسلام ، حتى قالوا : ما من امراة أعظم بركة على قومها من جويرية بنت الحارث رضى الله عنها .

بين يدى الحديبية :

وقبل أن ينتقل جهاد النبى صلى الله عليه وسلم انتقالته الكبرى نحو فتح مكة حدثت عدة سرايا أعقبتها غزوة الحديبية أو صلح الحديبية .

ولا بأس من ذكر هذه السرايا على حسب ما أورده صاحب كتاب نور اليقين — رحمه الله —

— فقد كانت هناك سرية عكاشة بن محض فى أربعين راكبا للاغارة على بنى أسد الذين كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، وقد عاد الركب بعد أن استاق مائة من الابل ، ولم يلق كيدا .

— وسرية محمد بن مسلمة فى عشرة من المسلمين لتأديب الأعراب بذى القصة الذين يريدون الاغارة على نعم المسلمين ، ولم يعد من هذه السرية سوى قائدها ، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسل اليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فهرب الأعراب أمامه فاستاق نعمهم ورجع . وكانت هذه السرية فى ربيع الأول وربيع الآخر .

— وسرية زيد بن حارثة الى بنى سليم الذين اشتركوا مع الأحزاب يوم الخندق ، وعادت السرية ببعض الأسرى والغنائم ، وكانت فى ربيع الآخر أيضا .

— وسرية زيد بن حارثة أيضا لاعتراض عير قريش فى طريقها لمكة ، فغنمها زيد ، وأسر جميع من فيها ومنهم أبو العاص بن الربيع زوج

زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد استجار العاص بزينب فأجارته واحترم النبى صلى الله عليه وسلم جوارها ، فرد عليه ماله ، وحين وصل الى مكة أعلن اسلامه ورجع الى المدينة مسلما ، فرد النبى صلى الله عليه وسلم عليه زوجه .

ولم يشأ أن يعلن العاص اسلامه فى المدينة حتى لا يظن أنه أسلم طمعا فى مال القوم الذى كان معه ، ولكنه بعد أن أوفى بما عنده لأهل مكة قال لهم : هل بقى لأحد فى ذمتى شىء ؟ قالوا : لا . قال : فانى أشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، والله ما منعنى من الاسلام عنده الا تخوفى ان تظنوا أنى أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها أسلمت .

— وسرية زيد بن حارثة أيضا فى جمادى الآخرة للاغارة على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة ، فهربوا أمامه ، فاستاق نعمهم وشاءهم .

— وسرية زيد بن حارثة فى رجب للاغارة على بنى فزارة الذين كانوا قد تعرضوا لزيد وهو راجع من الشام وسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه ، وقد دهمهم زيد ورجاله فى معاقلهم ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا منهم جمعا كبيرا ، وأسروا بعضهم وفيهم امرأة افتدى بها النبى صلى الله عليه وسلم أحد الأسرى من المسلمين فى مكة .

— وسرية عبد الرحمن بن عوف فى شعبان مع سبعمائة من أصحابه لغزو بنى كلب فى دومة الجندل وكانت وصية النبى صلى الله عليه وسلم لهم : اغزوا جميعا فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم .

وحين وصلوا اليهم دعاهم عبد الرحمن الى الاسلام فأسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو وكان نصرانيا ، وأسلم معه جمع من قومه ، ورضى الباقون باعطاء الجزية .

— وفى شعبان أيضا كانت سرية على بن أبى طالب فى مائة لغزو بنى

سعد بن بكر بفدك ، لأنهم كانوا يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، وقد عاد على ومعه خمسمائة بعير وألفا شاة أما الرجال فكانوا قد تفرقوا بددا خوفا ورعبا .

— وخرج خمسة من الخزرج بقيادة عبد الله بن عتيك الى خيبر ، وتمكنوا من قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز ، وكان ذا ثروة طائلة يسيطر بها على قلوب اليهود ، ويؤلبهم على عداوة المسلمين وحربهم ، وبقتله تخلص المسلمون من عدو لدود ، وقام الخزرج بعمل عظيم يضارع عمل الأوس الذى سبق فى تخلصهم من كعب بن الأشرف ، وقد كسرت رجل ابن عتيك فى أثناء عودته من هذه المهمة ، فمسح عليها النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه لم يشتكها قط .

— وسرية عبد الله بن رواحة فى ثلاثين من الأنصار الى خيبر أيضا لاستمالة أسير بن رزام الذى تولى زعامة اليهود بعد كعب ، وكان قد بلغ المسلمين أنه يحرض غطفان عليهم ، وقبل أسير أن يسير مع المسلمين فى ثلاثين يهوديا الى النبى صلى الله عليه وسلم تائبا مما حدث حتى يأمن على أهله ودياره ، ولكنه فى الطريق غدر وأراد أن يقتل ابن رواحة فقتله عبدالله وقتل من معه .

— وفى شوال وفد جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الاسلام ، وكانوا سقاما فعالجهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يحفظوا النعمة فأغاروا على راع للمسلمين فقتلوه واستاقوا الابل ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم كرز بن جابر الفهرى بأن يلحق بهم فى عشرين فارسا ، فلحقوهم وأعادوهم الى المدينة فقتلوا جزاء خيانتهم وغدرهم ، وطبقت عليهم الآية الكريمة ((**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف**)) المائدة ٣٣ .

— وحاول أبو سفيان أن يكلف رجلا يغتال النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبى عرف ما فى ذهن الرجل حين رآه فى المسجد ، فقال له : ما شأنك ؟ فاضطرب الرجل وسقط الخنجر الذى كان يخفيه ، ثم تاب وأسلم . لقد عصمه الله كما وعده بذلك .

وأراد عمرو بن أميـــة الضمرى ومعـــه رفيق له التوجـــه الى مكة للاقتصاص من أبى سفيان جزاء عمله ، ولكن الله أراد بأبى سفيان خــيرا فنجا من الرجلين ليكون أول من يســـــلم بيده مفاتيح مكة للنبى صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن أسلم فى الطريق الى فتح النبى لها ..

هذه سرايا وأحداث كانت مقدمة لغزوة الحديبية ، فقد كانت هــذه السرايا بمثابة الاعلان الجرىء لقوة المسلمين حتى لا يعترض طريقهم أحد مسالمين أو محاربين .

غـــزوة الحديبية :

ثم جاءت غزوة الحديبية بعد تلك الأحداث ، وكانت فى ذى القعــدة سنة ست من الهجرة ، ويطلق عليها صـــلح الحديبية نظرا للنتيجة التى انتهت اليها .

وقصة هذه الغزوة ملخصة من كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أعلن انه يريد اداء العمرة ، فتبعه عدد كبير من المهاجرين والأنصار يقدر عددهم بألف وأربعمائة ، وأحرم بالعمرة فى الطريق ، وســاق أمامه الهدى دلالة على أنه لم يخرج محاربا ، بل خرج معظما لله وبيته .

وفى أثناء الطريق بلغه أن قريشا جمعت له جموعا غفيرة لتمنعه من دخول مكة ، فغير طريقه المعتاد وسار بين الشعاب الصعبة الشاقة حتى وصل الى مكان يسمى الحديبية وهناك بركت راحلته ، فقال المسلمون : لقد خلأت القصواء — أى حرنت ناقته المسماة بالقصواء وبركت بغير علة — فقال عليه الصلاة والسلام : ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبســـها حابس الفيل ، والذى نفسى بيده ما تدعونى قريش لخصـــلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها .

وكان بالمكان الذى نزلوا فيه عين تســـمى عين الحديبية وهى قليلة الماء لم يلبث المسلمون أن نزحوه فنزع النبى صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته وأمر بأن يوضع فى العين ففاض الماء وما زال يفيض حتى صدروا عنـــه .

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر معه يقول : انى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل — يقصد خرجوا ومعهم ما يحتاجون اليه — وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انا لم نجىء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس فان أظهر فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد جموا — استراحوا — وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، ولينفذن الله أمره .

فعاد بديل بذلك الى قريش . فجاء عروة بن مسعود ليفاوض النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأى ما هاله من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ومكانته بين أصحابه ، رأى قوما يتسابقون فى افتدائه بكل ما يملكون ، ويتنافسون فى التقرب اليه بكل ما يقدرون ، ولم يملك الا أن يقول لقريش حين عاد اليهم : أى قوم لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر كسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ..

وعادت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو ممثلا لها فى كتابة عهد الصلح بين المسلمين وقريش ، وكانت خلاصة هذا الصلح أن يعود المسلمون فى عامهم هذا فلا يدخلوا مكة ، ولهم أن يدخلوها فى العام القادم وليس معهم الا السيوف فى قرابها . وأنه لا يأتى رجل من المشركين الى النبى وان كان على دين الاسلام الا رده عليهم وأنهم لا يردون من يأتيهم من المسلمين ، وأن الحرب توضع بين النبى صلى الله عليه وسلم والمشركين عشر سنين ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد المسلمين دخل فيه .

فانضمت خزاعة الى عهد المسلمين وانضمت بكر الى عهد قريش .

المسلمون والصلح :

ولم يرض هذا الصلح كثيرا من المسلمين ، فانهم كانوا قد تهيئوا لدخول مكة التى يشتاقون اليها ، خاصة وأنهم سمعوا أن النبى صلى الله

عليه وسلم رأى فى منامه انه دخل مكة فتيقنوا من ذلك لأن رؤياه حق . كما أن نصوص الصلح فيها مساس — من وجهة نظرهم — بعزة هذا الدين الذى يعتنقونه حتى قال عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : الست نبى الله حقا ؟ قال : بلى . قال : الست على حق وعدونا على باطل ؟ قال : بلى . قال : اليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى . قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا اذن ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى . قال عمر : أولست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت نطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه فى عامك هذا ؟ قال عمر : لا ، قال : فانك آتيه ومطوف به .

وطلب النبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن ينحروا ويحلقوا فوجموا ، فأنكر ذلك منهم ، وخشى عليهم من غضب الله . فأشارت عليه أم سلمة رضى الله عنها قائلة : اخرج اليهم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، ففعل ذلك ، فما بقى أحد من المسلمين لا يفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بيعة الرضوان :

وحدث فى أثناء هذه الغزوة ما يطلق عليه المسلمون بيعة الرضوان التى نزلت فى شأنها قوله تعالى فى سورة الفتح « **لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة** » .

وسبب هذه البيعة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل عثمان بن عفان الى قريش قبل كتابة الصلح مفاوضا ، فاحتبسته قريش حتى أشيع أنه قتل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان ، يأخذ بيد أصحابه الواحد تلو الآخر يبايعونه على الموت ، ثم أخذ فى النهاية بيد نفسه وقال هذه عن عثمان ، ثم عرف القوم بعد ذلك أن شائعة قتل عثمان غير صحيحة .

وفى هذه الغزوة نزلت سورة الفتح التى تبشر بالنصر ، وتثنى على موقف المؤمنين الصادقين كما تنعى على المنافقين والمخلفين موقفهم وتخاذلهم ،

وتشير الى الحكمة الجليلة التى تجلت فى موقف النبى صلى الله عليه وسلم وموافقته على هذا الصلح دون دخول مكة ، وتصدق النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤياه ((**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا — هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا**)) الفتح ٢٧ ، ٢٨ .

حكمة عاليـــة :

لقد كان هذا الفتح مقدمة كبرى لفتح مكة ، وهو وان كان المسلمون لم يتنبهوا لحكمته الا مؤخرا الا أن حكمته بدأت تظهر شيئا فشيئا ، حتى ادرك المسلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم يدرك ما لا يدركون ويتوقع ما لا يتوقعون .

لقد أمن الناس منذ هذا الصلح بعضهم بعضا ، فبدأت غشاوة الكفر تزول عن قلوب الكفار فيتفهمون الاسلام على حقيقته ، لقد انهار طغيان قريش الذى كانت تتسلط به على الرقاب وتحول به بين الناس وبين مجرد التفكير ، ويكفى أن يسلم قائد عظيم كخالد بن الوليد وكعمرو بن العاص ، نتيجة لزوال الحائل البغيض الذى كان يحول بين المشركين والتدبر فى عظمة هذا الدين ، لقد كان القتال وحميته وأنفة الكفر تستولى على عقولهم ، أما الآن فقد وضعت الحرب أوزارها ، فعلى ذوى العقول أن يعيدوا النظر فى موقفهم ويناقشوا أنفسهم ويصححوا خطواتهم .

ولقد تخلى عن قريش بهذا الصلح حلفاؤها فلم يعودوا يظاهرونها على حرب المسلمين كما كانوا يفعلون .

ان النصوص التى ظنها المسلمون اجحافا بهم لم تكن فى حقيقة الأمر الا فى مصلحتهم ومسايرة لأهدافهم ، فما عليهم أن يرجعوا هـــذا العـــام الى المدينة على أن يعودوا فى العام القادم ليدخلوا مكة آمنين غير متوجسين من عدوهم أو محتسبين لغدره وحربه ، فيكمل بذلك تقربهم الى الله وتفرغهم لعبادته دون أن يشغل بالهم شىء غير ذلك .

أما موافقة النبى صلى الله عليه وسلم على البند الخاص بأن من جاء من المشركين الى المسلمين يردونه ولو كان قد أسلم ، وأما من ذهب من المسلمين الى المشركين لا يردونه ، فقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى حكمة موافقته قائلا : انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

أجل ، فما حاجة المسلمين برجل لم يتعمق الايمان فى داخله ، بل هو أقرب الى الكفر منه الى الايمان ؟ أما الذى يأتى مسلما ويرد فتلك التى تركت أثرها فى نفوس المسلمين ، وظهر هذا الأثر قويا حين أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو — وسهيل اذ ذاك سفير قريش فى كتابة الصلح — جاء أبو جندل يرسف فى أغلاله يريد أن يلحق بالمسلمين ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يسمح لأبيه سهيل أن يسترده ، فقال أبو جندل : أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا أعطينا القوم عهودا وانا لا نغدر بهم .

وابتلع المسلمون المرارة وسكتوا ، وجاء بعد ذلك الى المدينة رجل آخر من قريش اسمه أبو بصير ، فأرسلت قريش فى طلبه رجلين يستردانه ، فسلمه النبى صلى الله عليه وسلم اليهما ، ولكن المرارة فى هذه المرة أصبحت غصة .

الا أن الله أراد أن يجلى للمسلمين الحكمة العالية فى تصرف رسوله الحكيم ، فقد غافل أبو بصير أحد حارسيه فى الطريق الى مكة وأخذ منه سيفه وقتله ، وفر الآخر ، وكان ذلك فى مكان اسمه « ذو الحليفة » .

وعاد أبو بصير الى النبى صلى الله عليه وسلم ليقول له : يا نبى الله ، قد والله أوفى ذمتك ، قد رددتنى اليهم فأنجانى الله منهم ، ولحق أبو بصير بساحل البحر ولم يلبث أن لحق به أبو جندل أيضا ، وأصبح المكان الذى لجأ اليه مثابة للمسلمين من أهل مكة ، ثم أخذوا يتربصون بعير قريش يقطعون عليها الطريق ، ويقتلون من فيها ويغنمون فيها ، فاشتد الأمر بقريش حتى أرسلت الى النبى صلى الله عليه وسلم من يناشده الله والرحم

أن يقبل هؤلاء الفارين عنده حتى تسلم لها تجارتها واهلها ، وبذلك أعطت قريش بيدها وتنازلت مرغمة عن ذلك الشرط الذى نغص المسلمين .

وبذلك تنبه المسلمون الى أن نظر النبى صلى الله عليه وسلم أسبق من نظرهم وأبعد ، وأن تصرفه انما هو محروس بالعناية الالهية التى تسدده وتوجهــه .

دور كريم للمرأة :

ولقــد برز دور المرأة واضحا حين أشـــارت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها على النبى صلى الله عليه وسلم بأن ينحر هديه ويحلق رأسه ليفعــل المسلمون فعله ويحذوا حــذوه ، وكان رأيها خيرا وبركة فأذهب عن المسلمين الضراء المتوقعة لهم لاغضابهم رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، ولم تكن اشارتها رضوان الله عليها افتياتا على رأى الرسول ، ولكنه افساح منه للفرصة أمام المرأة لتقول كلمتها فى ظــل دولة سمحاء كريمة تعتز بجناحيها معا ، وقد عرف الاسلام للمرأة حقها وأنصفها وكان أول من يعتز بمشورتها فى عظائم الأمور ، تلك هى سماحة الدين وعظمته (*) .

أفسح الاسلام صدره للمرأة وأشركها فى الغزو ، الى درجة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرع بين نسائه حين يغزو ، فأيتهن أصابتها القرعة خرجت معه ، ولم يكن خروج المرأة فى الغزو سلبيا ولكن كانت تقوم بعمل ايجابى ، يدل عليه موقف نسيبة بنت كعب فى غزوة أحد ، وما يرويه الأستاذ محمود شلبى فى كتابه حياة رسول الله : من أن امرأة من بنى غفار قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من غفار ، فقلنا : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك هــذا — وهو يسير الى خيبر — فنــداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقــال : على بركة الله . قالت : فخرجنا معه .

حب كريم :

وفى حديث عروة بن مســعود لقريش ما يدل على الحب الشــديد من جانب المسلمين للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبرهم بأن المسلمين

يتنافسون فى محبته ويتسابقون الى التبرك بآثاره ، فهم يبتدرون ما تبقى من وضوئه للانتفاع ببركته . والتوسل بآثار النبى صلى الله عليه وسلم وجاهه أمر مشروع لا ينكره الا كل من سدت فى وجهه نوافذ محبة النبى صلى الله عليـــه وسلم ، وقد أورد الترمذى والنســـائى والبيهقى وغيرهم عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا أعمى جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم جلوس معه ، فشكا اليه ذهاب بصره ، فأمره بالصبر ، فقال : ليس لى قائد وقد شـــق على فقـــد بصري ، فقال : ائت الميضأة فتوضأ ، ثم صل ركعتين ، ثم قل : اللهم انى اتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد انى توجهت بك الى ربى فى حاجتى لتقضى لى ، اللهم شفعه فى . وفى بعض الروايات بزيادة : فان كان لك فمثل ذلك — أى ان كان لك حاجة — قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا — أى الرجل — فكان بصيرا (١) .

غزوة خيبر :

وهذه الغزوة التى أشار اليها القرآن الكريم بقوله فى غزوة الحديبية : **((فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)) .**

كانت فى المحرم من السنة السابعة للهجرة ، وهذا حديثها مختصرا :

كان يهود خيبر من اكثر المثيرين للأحزاب ضـــد المسلمين فى غزوة الخندق ، وظلوا يؤلبون الأعراب على حربهم ، فكان لابد من التخلص منهم . وكانوا يتحصنون فى حصون قوية متعددة تبعد عن المدينة بمائة ميل .

وقد أقبل عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فى الف وأربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل ، اخـــذوا يهاجمون الحصون التى راحت تتداعى الواحد تلو الآخر . وما بقى منها حاصره المسلمون حصارا شديدا محكما .

وطال أمد الحصار لهذه الحصون المتبقية حتى ابتنى النبى صلى الله عليـــه وسلم مسجدا اشـــعارا للمسلمين بالاســـتقرار وارهابا للعـــدو

---

(١) راجع فقه السيرة للبوطى ص ٢٥٤ هامش .

بأن المسلمين ليس فى عزمهم العودة دون فتح . وقد ابلى المسلمون فى فتح حصون خيبر بلاء حسنا على الرغم من تفانى اليهود فى الدفاع عنها .

وحين طال بالمسلمين الانتظار قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يولى الدبر يفتح الله على يديه . قال عمر — فى بعض الروايات — ما تمنيت الامارة الا فى هذه المرة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم استدعى على بن أبى طالب ، فوجد بعينيه رمدا ، فتفل صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن بهما وجع ، وأعطاه الراية والبسه درعه ودفع اليه سيفه ، ثم قال : اللهم اكفه الحر والبرد ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم ، وقاتل على رضى الله عنه حتى كان الفتح على يديه ، وغنم المسلمون كل ما فى الحصون من أموال .

روى ابن اسحاق عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده ، فتناول على عليه السلام بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وليس هذا بغريب فقد قلب الله الأعيان فى يد على استجابة لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم له ، فأصبح ما يثقل حمله فى يده خفيفا ، وتلك كرامة الله لأوليائه المخلصين .

وقال الرواة : ان حصنين هما « الوطح والسلالم » استسلما مصالحة على أن يترك أهلهما الأموال ويجلوا ، ويحقن النبى صلى الله عليه وسلم دماءهم ، فوافقهم على ذلك ، ثم سألوه أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعون أرضها ولهم شطر ما يخرج منها ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، على انه اذا شاء أن يخرجهم منها خرجوا .

وقــد سبيت فى هــذه الغــزوة صفية بنت حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، وأعتقها النبى صلى الله عليه وسلم وتزوجها .

ونجى الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى خيبر من مكيدة امرأة يهودية ، طبخت له شاة مسمومة ، وأعلمه الله بذلك ، فلم يأكل منها ، وكان صاحبه بشر بن البراء قد أكل منها فمات لوقته ، وحين أحضرت المرأة سألها النبى صلى الله عليه وسلم : لم فعلت ذلك ؟ فأجابت : قلت : ان كان نبيا فلن يضره وان كان كاذبا أراحنا الله منه ، فعفا عنها صلى الله عليه وسلم ، وقيل : انها قتلت قصاصا فى بشر بن البراء ، والأرجح أنها أسلمت فعفا عنهــا لأن الاسلام يجب ما قبله .

قدوم مهــاجرى الحبشة :

وجاء بعد انتهــاء الفتح المسلمون الباقون الذين كانوا قد هاجروا الى الحبشة ، وكانوا ستة عشر رجلا ، على رأسهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، ففرح النبى صلى الله عليه وسلم بمقدمهم وبمقدم جعفر خاصة ، حتى قال : ما أدرى بأيهما أفرح بفتــح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ وقد سر جعفر بترحيب النبى صلى الله عليه وسلم بمقدمه حتى قام يرقص طــربا .

تأملات فى الغــزوة :

لقد كانت غزوة خيبر ايذانا بالمد الاسلامى الذى بدأ يأخذ طريقــه فى الآفاق ، وانه وجب التبشير بهذا الدين حتى يظهره الله على الدين كله ، ولقد كانت هذه الغزوة من قبيل الحرب الوقائية الضرورية التى يلجأ اليها القواد تأمينا لدولهم قبل أن يفاجئهم العدو . فالمسلمون كانوا لن يهدأ لهم بال طالما اليهود شوكة فى جوانب الجزيرة العربية يؤلبون أهلها على الدعوة الاسلامية .

وفى هذه الغزوة معجزة صريحة للنبى صلى الله عليه وسلم حين تفل فى عين على رضى الله عنه فبرأت باذن الله ، وفى نجاته من الشاة المسمومة ، وليس من شك فى أن هذين دليلان على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى

أن الله مؤيده وناصره وعاصمه ، كما أن فيهما شهادة لعلى كرم الله وجهه بالكرامة ورفعة المنزلة حين قال النبى صلى الله عليه وسلم : لأسلمن الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله ، حتى لقد استشرف الصحابة جميعا لهذا التكليف الذى بنى على تقرير غاية فى الشرف والرفعة ، فكان على هو الجدير بذلك . وهذا الميدان هو الذى يجب أن يتنافس فيه النـــاس .

وفى فرح جعفر الذى جعله يتراقص طربا استدلال على جواز الاهتزاز عند غلبة الوجد بدافع الحب لله ولرسوله والتشوق اليهما ، بشرط الصدق فى ذلك وعدم الرياء ، وصدق الله تعالى اذ يقول : ((**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**)) يونس ٥٨ ، فان فرح المؤمن بالله وطربه برضاه عنه ، ولقد تنبه الى هذا الاستنتاج الامام السهيلى فى الروض الأنف ، حيث قرر أن تحجال جعفر فى حضرة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم دون انكار النبى صلى الله عليه وسلم يصلح أن يكون مستندا للذين يتواجدون حتى يحملهم ذلك الوجد على ان يرقصوا ، ومداد الأمر كما قلت هو الصدق والاخلاص وحسن النية .

وكان فتح خيبر ايذانا بفتح فدك ، وهو حصن قريب من خيبر كان يقيم به بعض اليهود ، جاء أهله الى النبى صلى الله عليه وسلم فصالحوه على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال ، وظلت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعول منها صغار بنى هاشم ويزوج أياماهم ، كما كانت أيضا ايذانا برضوخ اليهود فى تيماء لأداء الجزية على أن يظلوا فى بلادهم آمنين ، وحين رفض يهـــود وادى القرى الاستسلام كما استسلم غيرهم حاربهم النبى صلى الله عليه وسلم حتى استسلموا .

وبذلك أصبحت الجزيرة العربية وقد انقاد يهودها جميعا للمسلمين وقد أمنت من غدرهم وتربصهم ، حتى خلا الجو أمام المسلمين للانطـــلاق بدعوتهم مبشرين بدين الله .

اسـلام خالد بن الوليـد :

لقد أصبحت نفس خالد بن الوليد بعد الحديبية مهيأة تماما للاسلام ، فقـد رأى من النبى صلى الله عليـه وسلم ما ملأ نفسه اعجابا واقترابا من الدين الجـديد .

وأشرق صباح يوم واذا بخالد ينطلق فى طريقه الى المدينـة ليعلن اسلامه ، ويشـاء الله أن يلتقى برفيقين لهما هـذا الاتجـاه ، هما عمرو ابن العاص وعثمان بن أبى طلحة ، وكلاهما لا يقل عن خالد رأيا وعقـلا وفروسية ومنزلة فى قومه .

وتستقبل المدينة الفرسان الثلاثة ، فيفرح النبى صلى الله عليه وسلم بلقائهم ، ويقول للمسلمين : رمتكم مكة بأفـلاذ أكبادها ، وقال لخـالد ابن الوليد : الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك الا الى خير ، فقال خالد : يا رسـول الله ادع الله أن يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك ، فقال عليه الصلاة والسلام : الاسـلام يقطع ما قبلـه »

رحلة الاسـلام الى الخارج :

كانت أول رحلة للاسلام خارج الجزيرة العربية مصاحبة للمهاجرين الى الحبشة . وقد عاد هؤلاء المهاجرون ـ كما علمنا بعـد فتح خيبر ـ وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يعد العدة الى تبليغ رسالة ربه الى أقطار الأرض ، فاختار من أصحابه سفراء من ذوى الحكمة واللياقة ليحملوا كتبه الى الملوك والأمراء .

ومع قيام هؤلاء السفراء بمهامهم كان الجهاد ما زال قائما فى داخل الجزيرة العربية عن طريق السرايا التى يبعثها النبى صلى الله عليه وسلم لاخضاع المتمردين ، فقد قاد عمر بن الخطاب ثلاثين مقاتلا الى مكان اسمه « تربة » يقيم به جمع من هوازن يظهرون العداوة للمسلمين ، وقد هرب هذا الجمع قبل أن يصل اليهم عمر .

وقاد بشير بن سعد الأنصارى سرية لقتال بنى مرة ، ثم سار بعده

اسامة بن زيد لمحاربتهم أيضا بعد ان ظهروا على المسلمين فى المرة الأولى ، وقتل منهم من قتل وأسر من أسر ، وفى هذه السرية قتل أسامة مشركا نطق بالشهادة ، فظن أنه نطق بها تعوذا من القتل ، وقد آخذه النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الفعلة ، ونزل فيها قوله تعالى : **« ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة »** النســـاء ٩٤ .

وقاد بشير بن ســـعد ايضا سرية اخرى لمقاتلة جماعة من غطفـــان حرضهم عيينة بن حصن ولم يظفر الا برجلين أسلما ولكنه عاد بغنائم كثيرة .

هذه السرايا كانت تأديبية فى الجهات القريبة من المدينة حتى يضمن المسلمون الهدوء والأمن .

أما السفارة الى الملوك والرؤساء فقد قام بهـــا جلة من الصحابة اتسموا بالحكمة ورباطة الجأش والفصاحة وحسن التصرف مصداقا لقول الشاعر الحكيم :

اذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه

الى قيصر :

واختير دحية الكلبى رسولا الى قيصر ملك الروم ، فحمل كتاب النبى صلى الله عليـــه وسلم اليه فقرأه فى جمـــع من قومه ، وكان فى نهايته : **« يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »** وهذه آية من سورة آل عمران ختم بها النبى صلى الله عليه وسلم كتابه .

وتصادف أن كان ابو سفيان مع رهط من قريش فى تجارة الى الشام ، فاستدعاه قيصر ليسأله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ووجه اليه عدة أسئلة منهــا :

ما نسب الرجل فيكم ؟ قال ابو سفيان : هو فينا ذو نسب .

قال قيصر : هل تكلم بهذا القول احد منكم قبله ؟ قال : لا .

قال قيصر : هــل كنتم تتهمونه بالكذب قبــل ان يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : لا . قال قيصر : هل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا .

قال قيصر : هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : ضعفاؤهم.

قال قيصر : هل يزيدون أم ينقصون ؟ أجاب أبو سفيان : بل يزيدون .

قال قيصر : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال أبو سفيان : لا .

قال قيصر : هل يغدر اذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال قيصر : هل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال قيصر : فكيف حربكم معه ؟ قال : الحرب بيننا سجال .

قال قيصر : فبم يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول اعبدوا الله وحــده ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ..

وكانت اجابات أبى سفيان كافية لاقتنــاع قيصر بأن مرسل الكتاب نبى مرسل . قال ابن سعد فى طبقاته : فجمــع هرقل عظماءه وحاشيته وقال لهم : يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى ابن مريم ؟ قالوا : وماذاك أيها الملك ؟ قال : تتبعون هــذا النبى العربى . فحاصــوا حيصة حمر الوحش وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخاف على نفسه وملكه فسكتهم ، ثم قال : انما قلت لكم ما قلت لأخبركم وأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب ، فسجدوا له .

الى كسرى :

واختــار النبى صلى الله عليه وسلم عبــد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ، يدعوه فى كتاب أرسله معــه الى الاســلام ، ولكن كسرى لم يحسن استقبال الرسول ومزق الكتاب ، وحين بلغ ذلك رســول الله صلى الله عليــه وســلم قال : مزق الله ملكه ، ولم يكتف كسرى بذلك ،

بل ارسله الى عامله على اليمن « باذان » يأمره ان يبعث رجلين الى النبى صلى الله عليه وسلم ليأتياه به ، وحين قدم هذان الرجلان الى النبى صلى الله عليه وسلم وبلغاه ما امرا به تبسم وقال : ابلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ســـاعات مضت منها ، وكانت ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع ، ورجع الرســـولان الى « باذان » فأخبراه بذلك ، وحين تحقق منه أسلم هو ومن معه .

الى أمير بصرى :

وارسل عليه الصلاة والســـــلام الحارث بن عمير الأزدى الى أمير بصرى ، وفى الطريق قابله شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله بعد أن عرف وجهته ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره .

الى أمير دمشق :

وارسل النبى صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الى أمير دمشق الحارث بن أبى شمر ، وحين قرأ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم رمى به الى الأرض ، وقال : من ينزع ملكى منى ؟ وهم بارســـال جيش لمحاربة المسلمين ، ولكن قيصر ثناه عن ذلك ، فرد أمير دمشـــق « شــــجاعا » بالحســـنى .

الى ملك البحرين :

وحمل العلاء بن الحضرمى كتاب النبى صلى الله عليه وســـلم الى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وكان المنذر رشيدا موفقا ، رحب بالاسلام حين بلغه . قال له العلاء : يا منذر انك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ، ان هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا نصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ هذا هو النبى الأمى الذى والله لا يســـتطيع ذو عقل ان يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو

ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه ؛ اذ كل ذلك منه أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر .

وأسلم المنذر وعرض الاسلام على قومه فمنهم من آمن ومنهم من رفض .

الى المقوقس :

وكان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس حاكم مصر هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقد قرأ المقوقس الكتاب الذى حمله اليه ورد ردا حسنا ، وأرسل الى النبى صلى الله عليه وسلم هدية كريمة .

وحين سأل المقوقس حاطبا : ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ أجاب حاطب بقوله : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟

فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

ثم قال حاطب للمقوقس : ان هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبى ادرك قوما فهم أمته فحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به .

الى ملكى عمان :

وكان عمان يحكمها أخوان هما جيفر وعبد ابنا الجلندى ، وحمل اليهما عمرو بن العاص رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين وصل عمرو لقى عبدا أولا ، فسأله عما يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : انه يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة

الحجر والوثن والصليب ، فقال عبد : ما أحسن هذا الدين : ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به .

وما زال عمرو بن العاص بهما حتى الان الله قلبيهما للاسلام وأقرهما النبى صلى الله عليه وسلم على حكم قومهما .

الى ملك اليمامة :

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم ســـليط بن عمرو العامرى الى هوذة بن على ملك اليمامة ، فلما قرأ الكتاب قال : ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

وحين بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال : لو سألنى قطعـــة من الأمر ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه ، فلم يلبث أن مات .

ولو لم يشترط ذلك لولاه النبى صلى الله عليه وسلم على قومه فقد كان يولى على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم .

الى ملك الحبشة :

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ملك الحبشة عمرو ابن أمية الضمرى ، فاحترم كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الذى حمله اليه ، ورد عليه ردا جميلا .

ومن خلال ما مر بنا من هذه البعوث التى تبعتها بعوث أخرى كثيرة ندرك أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغ رسالة ربه كما أمره ، فقد بعثه الله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وقد أوفى ذمته وأدى أمانته ، وكمـــا رأينا فان بعض الملوك رد ردا حسنا ، وبعضهم أســـاء التصرف ورد ردا قبيحا ، كما حدث من كسرى ومن الحارث بن أبى شمر ، وبعضهم كان فى نهاية الحمق فقتل الرسول .

اننا جميعـــا نفهم من ابلاغ الدعوة الى الملوك والرؤساء فى خارج الجزيرة العربية أن دعوة الاســـلام ليست قاصرة على الجزيرة وحـــدها

ولا على العرب وحدهم ، ولكنها دعوة عامة شاملة للناس جميعا على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبلادهم ، والاسلام دعوة عالمية يفهم ذلك من تعاليمها ومبادئها الصالحة لكل زمان ومكان ، ومن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى ابلاغ الدعوة الى العالم يتخذ المسلمون فى كل زمان ومكان واجبهم فى التبشير بهذه الرسالة السامية لإنقاذ الناس من الظلمات الى النور .

عمرة القضاء :

وكانت فى ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن البيت الحرام فى العام السابق ، وخرج عليه الصلاة والسلام فى ألفين ، ولم يتخلف عنه ممن كانوا معه فى الحديبية الا من مات أو استشهد فى خيبر ، وأرجف المشركون أن المسلمين فى عسرة وجهد ، فوقفوا عند دار الندوة لينظروا اليهم شامتين ، فقال صلى الله عليه وسلم : رحم الله امرءا اراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن وهو مضطبع بردائه ، وقد أخرج عضده اليمنى وأخذ يهرول ويهرول أصحابه معه ثلاثة أشواط .

وكان ابن رواحة آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء دخوله مكة وهو ينشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير فى رسوله
يا رب انى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وقد أراد عمر رضى الله عنه أن يكفه عن متابعة القول فقال له : يابن رواحة ، أبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : خل عنه يا عمر

فانها أسرع فى نكايتهم من نضح النبل ، ثم التفت النبى صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن رواحة وقال له : قل : لا اله الا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده . فقالها ابن رواحة وقالها الناس من بعده ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبى حتى استلم الركن بمحجنه .

وبعد الفراغ من الطواف والسعى نحر النبى صلى الله عليه وسلم هديه عند المروة ، ثم حلق تتميما لأعمال العمرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد خلف مائتين من أصحابه بالسلاح عند بطن ياجج ، وأمرهم أن يكونوا متفطنين لأى غدرة من جانب قريش ، فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم عمرته أمر مائتين ممن معه أن يذهبوا الى بطن ياجج ليحلوا محل اخوانهم حتى يؤدوا المناسك كما أدوا ، ففعلوا .

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ثلاثة أيام ، وقد بهر كثيرا من المشركين نور الاسلام ، ومالت قلوبهم اليه ، حتى خشى عتاة الكفر من بقاء المسلمين أكثر من ذلك ، فطلبوا اليه الخروج فقد مضت المدة المضروبة فى الصلح .

وكانت ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب ممن شاهد المسلمين ، فداخل قلبها نور الايمان ، وأعلنت رغبتها فى اعتناق الاسلام ، بل تمنت أن تكون زوجة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأسرت بذلك الى أختها ، فكلم العباس النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فقبل ، وأصدقها أربعمائة درهم ، ولكنه لم يبن بها الا « بسرف » وهو مكان قرب التنعيم ، وقال بعض المفسرين : انها هى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فى الآية من سورة الأحزاب : **« وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى »** .

لقد أقر الله عين النبى والمسلمين بهذه العمرة ، وقد دخلوا مكة بعد طول اغتراب آمنين محلقين رءوسهم ، وتحقق وعد الله بما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى رؤياه : **« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا »** .

ســـــرايا :

وفى السنة الثامنة للهجرة بعث النبى صلى الله عليه وسلم عدة سرايا :

منهـــا سرية غالب بن عبـــد الله الليثى الى بنى الملوح الذين يقيمون بالكديد ، وتمكن غالب ومن معه أن يستاقوا نعم القوم وشاءهم ، وحين جاء الصريخ الى بنى الملوح خرجوا للمسلمين بما لا قبل لهم به ، ولكن الله أرسل سيلا عنيفا حال بين الأعداء والمسلمين ، حتى ان القوم كانوا يرون نعمهم تساق ولا يستطيعون ردها .

ثم أرسل النبى صلى الله عليه وسلم غالبا بعد عودته فى مائتى رجل لبقنص من بنى مرة بفدك الذين سبق وأصابوا سرية بشير بن ســـــعد ، واستطاع غالب أن يغلب عدوه باذن الله ، فلم يفلت منهم أحد .

وفى ربيع الأول قاد كعب بن عمير الغفـــارى سرية الى ذات أطلاح من أرض الشام ، وكان عدد السرية خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جما غفيرا دعوهم الى الاسلام فلم يستجيبوا ، واستشهد أفراد السرية جميعا ما عدا كعبا الذى عاد وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منازلهم ..

وهكذا نجد أن الجهاد لم يفتر ، وأن تبليغ الدعوة قائم وممتد وتتسع حركته لتشـــــمل أماكن نائيـــة ايذانا بانطلاقه كبرى قادمة لهـــذه الدعوة الاسلامية العالمية .

غـــزوة مـــؤتة :

وهى فى الواقع سرية ؛ لأن النبى صلى الله عليـــه وسلم لم يشترك فيها ، وقد سميت غزوة من قبيل المجاز ولكثرة المشتركين فيها ولأهميتها . وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان .

ومؤتة قريه على مشارف الشام وتسمى اليوم « الكرك » .

وكان الهدف منها الثأر ممن قتلوا رسول النبى صلى الله عليه وسلم الى ملك بصرى ، وقد ندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس لهذه المهمة ،

فاستجاب له ثلاثة آلاف رجـل ، أمر عليهم زيد بن حارثة ، وقال لهم : ان أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبـد الله بن رواحـة ، فان أصيب فليرتض المسلمون رجلا منهم .

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ من كتاب مفتوح ، فقد كان ما قال .

خرج الجمع لغايته وهم يتذكرون وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قال فيها : اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين ، فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء .

وحين وصلوا مؤتة وجدوا جمعا غفيرا من الروم قدره الرواة بمائتى ألف مقاتل نصفهم من الروم ونصفهم من العرب المتنصرة .

وتفاوض المسلمون فيما يفعلون ، أيقاتلون هـذا العـدد الضخم أم يخبرون رسول الله صلى الله عليـه وسلم بهـذا التفاوت الهائل بينهم وبين عدوهم فى العدد ؟ فما عسى أن يصنع ثلاثة آلاف أمام مائتى ألف ؟..

ثم قال عبد الله بن رواحة: يا قوم والله ان الذى تكرهون هو ماخرجتم له ، خرجتم تطلبون الشـهادة ، ونحن ما نقـاتل الناس بعـدد ولا قوة ولا كثرة ، ولكنا نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هى احدى الحسنيين . فقال الناس : صـدق ابن رواحـة ، واستقر رأيهم على اللقـاء .

وأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قتـل رضى الله عنه حميـدا شهيدا ، فحمل الراية جعفر فمضى بعده حميدا شهيدا وقد أبلى مثل صاحبه بلاء حسنا ، ثم تلقف الراية عبد الله بن رواحة ، وما زال يقاتل حتى قتـل رضى الله عنه ، واتفق رأى المسلمين على اختيار خالد بن الوليد ، فحمل اللواء وتمكن من تشتيت شمل العدو وادخال الرعب فى قلوبهم حتى ألزمهم حصونهم ، انتهز هذه الفرصة فانحاز بجيشه عائدا الى المدينة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة يتابع سير المعركة يراها رأى العين ، فنعى زيدا حين استشهد ، ونعى كذلك جعفرا وابن رواحة حين استشهد كل منهما فى وقته ، ثم قال : أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ، وكانت عيناه تذرفان ..

لقد استعمل خالد فى هذه المعركة مهارته الحربية ، فأوقع فى روع الروم وأتباعهم أن الأمداد تتوالى على المسلمين ، وذلك بما فعله من مخالفة فى ترتيب العسكر ، حيث جعل الميمنه ميسرة والميسرة ميمنة والمقدمة ساقة والساقة مقدمة ، وأمر قوما على بعد يثيرون الغبار ، ومكث يناوش الأعداء سبعة أيام ، وهو يجرهم الى الأمام لينحاز الى مؤتة ، فظنوا أنه يجرهم الى الصحراء لينفرد بهم بعيدا عن حصونهم ، فكفوا عن القتال وولوا الأدبار ، فلم يتبعهم مكتفيا بما حدث .

ولقد كان هذا نصرا عظيما وحكمة بالغة من خالد ، فقد وقر فى نفس الأعداء أنهم لن يستطيعوا مجابهة المسلمين ، وماذا يكون النصر أكثر من هذا ؟.

وقد فهم بعض المسلمين فى المدينة خطأ أن الجيش عاد منهزما فقابلوهم قائلين : يا فرار فررتم فى سبيل الله ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم صحح هذا الفهم الخاطىء قائلا : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار .

جوانب العبرة :

وان جانب العبرة فى هذه الغزوة يتجلى فى استهانة المسلمين بعدوهم ، وفى أن العدد والعدة لا تغنيان شيئا بدون الايمان ، ولقد نصر الله جنوده بايمانهم ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيره باذن الله .

ولم يكن الحافز للمسلمين فى معاركهم والدافع لهم الا طلب الشهادة فى سبيل الله أو النصر الذى يكفل رفع كلمة الله عالية فى الآفاق . لم تكن الغنائم تهم المسلمين بعد أن أخذوا فى ذلك دروسا قاسية فى أحد . فان جاءت مع النصر فهذا رزق ساقه الله اليهم وهو حق أفاءه الله عليهم .

وفى هذه الغزوة دليل على فضل خالد بن الوليد الذى لقبه النبي

صلى الله عليه وسلم بسيف الله ، ولقد ظل خالد سيفا سله الله على الكفر حتى حقق للاسلام انتصاراته الرائعة المشهودة .

وحين نعى النبى صلى الله عليه وسلم الشهداء الثلاثة كانت عيناه تذرفان دليلا على حبه الشديد لأصحابه واشفاقه عليهم وضنه بهم ، ولولا أن الشهادة مغنم عظيم كان يتمناه لنفسه ، ما رغب فى أن يفارقوه ، ولكنه الدين والجهاد فى سبيله وكلمة الله التى يجب ان تتجاوب بها الآفاق مهما بذل فى سبيل ذلك من دماء .

وحين نعى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه كان ينعاهم وهو يراهم فى مكانه بالمدينة ، بينما هم على حدود الشام ، ذلك أن الله قد زوى له الأرض فى زمان لا يعرف ما تعرفه العصور الحديثة من أجهزة تنقل الأخبار والمرئيات ، ولئن نقلتها الآن فهى لا تنقلها بالدقة التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا من معجزاته الخارقة ، ولقد كشف الله بصيرة أصحابه من بعده فأكرمهم ببعض ما أكرمه الله به ، كما حدث من عمر ابن الخطاب حين رأى وهو يخطب على المنبر بالمدينة قائده سارية بن زنيم يوشك أن يحيط به عدوه ، فصاح به عمر قائلا : يا سارية ، الجبل الجبل . وسمع سارية النداء فتنبه فانتصر ، وكان ذلك فى أثناء فتح المسلمين لمدينتى : فسا ودرابجرد فى بلاد فارس .

ان النبى صلى الله عليه وسلم عرف فضل أصحابه وعرف صدق بلائهم فى هذه الغزوة فرد عليهم اعتبارهم حين عيرهم البعض بالهزيمة فقال : ليسوا بالفرار ، بل هم الكرار ان شاء الله تعالى .

كانت هذه الغزوة أول مواجهة حاسمة بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى ، فهى تجربة عملية لما ينتظر المسلمين فى مستقبلهم من تبليغ دعوة ربهم عبر الآفاق ، ولما سيبتلون به من جهاد صادق فى ذلك له جزاؤه العظيم فى الدنيا والآخرة ، هى خبرة اكتسبها المسلمون تفيدهم فى قتالهم وتوقفهم على طريقة غيرهم فى الحروب ومدى استعداداتهم ، واكتساب الخبرة ليس شيئا هينا بل هو اضافة قوية يعمل حسابها عند احصاء ثمار النصر .

الفتـــح الأعظـم

وأخـيرا ألقت مكة مقاليدها وفتحت أبوابها ، لتستقبل بقلب مفتوح وصدر مشوق نبى الله الذى طرده أهلها ذات يوم ، ورصدوا أمامه الطرق ، وحاولوا أن يقتلوه ..

ولم يكن فتح مكة سهلا ، فقد أعد النبى صلى الله عليه وسلم له عدته ، وهيأ الله له أسباب ذلك ، حتى تم الفتح دون اراقة دماء تذكر ..

استعداد النبى صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ، وسبق الفتح سريتان بعثهما النبى صلى الله عليه وسلم ، احداهما فى جمادى الآخرة الى قضاعة فى وادى القرى ، وقد رجـع غانما . ويسميها ابن هشـام : غزوة ذات السلاسل .

والثانية فى رجب بقيادة أبى عبيـدة بن الجراح لغزو قبيلة جهينـة التى تسكن ساحل البحر ، وعاد أبو عبيدة ولم يلق كيدا ..

وكان الهدف من هاتين السريتين تأمين المدينة حتى لا يفاجئها عدوان غادر فى أثناء الفتح ..

كان فتح مكة فى رمضان من السنة الثامنـة للهجرة ، وقد تهيـأت الأسباب لذلك ، فقد نقضت قريش عهدها الذى أبرمته مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديبية ، وبذلك أصبح المسلمون فى حل من فتح مكة .

وقصة هذا النقض أن بنى بكر الذين دخلوا فى عهد قريش فى صلح الحديبية ، استعانوا بأشراف قريش ليعينوهم على حرب خزاعة التى حالفها النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديبية أيضـا ، فأجابت قريش بكرا ، وبيتوا خزاعة بليل وهم مطمئنون آمنون فقتلوا منهم عشرين رجلا .

عند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا من خزاعة الى النبى صلى الله عليـه وسلم يخبرونه بما حـدث ويستنصرونه على عدوهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا نصرت ان لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى ، وقال : ان هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب ..

وأحست قريش بتورطها وخطئها الشديد . فأرسلت أبا سفيان الى المدينة ليعتذر ويجدد العهد ، ولكنه لم يجد أحدا يستجيب له ، وعاد خائبا الى مكة .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح سرا ، وأراد حاطب ابن أبى بلتعة أن يخبر قريشا بما يعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لهـا ، فكتب كتابا وبعثه مع امرأة متجهة الى مكة ، وأخفته فى شعرها ، وكشف الله لنبيه هذا الأمر ، فندب على بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ، وأمرهم باللحاق بالمرأة ، فلقوها بالروضة وهددوها فأخرجت الكتاب من عقاص شعرها . واستجوب النبى صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال : يا رسول الله لا تعجل على ، فانى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتى ، وعلمت أن الله ناصر نبيه وأن خطابى لن يغنيهم شيئا ، ولم أفعل ذلك ارتدادا عن الاسلام ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم عذره ، وقد هم عمر بن الخطاب بقتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وقد أنزل الله تعالى فى ذلك : ((**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ...**)) الممتحنة ١ .

الى مكة :

وانطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف رجل من خيرة أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقد خلف على المدينة كلثوم بن حسين لعشر خلون من رمضان فى العام الثامن من الهجرة .

وفى الطريق قابله عمه العباس بعياله مهاجرا ، فأمر بالعيال أن يوجهوا الى المدينة وأن يعود معه العباس الى مكة ، حتى اذا كان الجيش بمر الظهران حط رحاله .

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم كل رجل أن يشعل نارا ، فأوقدت عشرة آلاف نار أضاءت الآفاق ، وكانت قريش حتى هذه اللحظة لا تعلم شيئا عن قدوم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الله ان يعمى عليهم ، الا أنهم كانوا يحسون بشىء مرتقب بعد فشل أبى سفيان فى سفارته الآنفة الى المدينة . فعادوا وأرسلوا أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء لالتماس الأخبار عما يضمره المسلمون .

وفى مر الظهران فوجىء هؤلاء الثلاثة بتلك النيران المشتعلة فتعجبوا من كثرتها ، ورآهم المسلمون فقبضوا عليهم وساقوهم الى النبى صلى الله عليه وسلم .

اسلام أبى سفيان :

قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان حين مثل بين يديه : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى شيئا بعد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا . فقال العباس : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فشهد أبو سفيان شهادة الحق فأسلم .

وقال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم : ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

ووقف أبو سفيان ينظر الى الجيش الاسلامى وهو يمر كتيبة كتيبة فيملؤه العجب ، حتى اذا مرت كتيبة الأنصار والمهاجرين بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد الذى يلبسونه .. قال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، فقال له العباس : مه انها النبوة .

وعاد أبو سفيان الى مكة يقول لقومه : لقد جاءكم محمد فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ؛ فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام .

الرسول فى مكة :

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم جنوده الا يقاتلوا الا اذا قوتلوا .

ودخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا من أعلاها من كداء ، وامر خالد بن الوليد أن يدخلها من أسفلها من كدى ، ولم يجد المسلمون مقاومة فلم يحدث قتال ، ما خلا خالد بن الوليد الذى لقى جمعا من المشركين تجمعوا له واجمعوا على قتال المسلمين ، فيهم عكرمة بن ابى جهل وصفوان بن أمية ، فقاتلهم خالد وقتل منهم عددا يقارب ثلاثين رجلا من قريش وهزيل ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم بارقة السيوف فأنكر ذلك ، فقالوا له : يا رسول الله ، انه خالد قوتل فقاتل ، فقال : قضاء الله خير .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء دخوله مكة منتصرا ، مثالا كريما للتواضع ، لم يأخذه الزهو كما يأخذ القادة المنتصرين ، كان — فوق راحلته — يضع راسه تواضعا حتى ان عثنونه يكاد يمس وسط الرحل ، وهو يتلو فى صوت خاشع سورة الفتح .

واتجه الى البيت الحرام طائفا ، ثم حطم الأصنام حولها وعدتها ثلاثمائة وستون صنما ، يشير اليها بقضيب فى يده فتنكفىء وانها لمشدودة بالرصاص ، وهو يتلو قوله تعالى : ((**جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا**)) ثم أمر باخراج الصور والتماثيل من جوف الكعبة . ودخلها بعد ذلك مكبرا وبصحبته بلال فصلى بداخلها .

ثم أمر بلالا أن يصعد فوق ظهر الكعبة ليؤذن للصلاة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قام على باب الكعبة فقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، الا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين الا سدانة

البيت وسقاية الحاج .. يا معشر قريش ، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب : ((**يأيهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعـارفوا ان أكرمكم عنـد الله أتقـاكم**)) ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وقال : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدعى له — وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه مفتاح الكعبـة حين أراد دخولها — فقال له : هاك مفتاحـك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

وتوافد الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، يبايعون النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، بايعه أولا الرجال ثم النساء .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل دخوله مكة قد نهى عن القتال الا بضعة نفر أحل دمهم ودعا الى قتلهم أينما كانوا لشدة ما كانوا يفعلونه بالمسلمين ، من بينهم عكرمة بن أبى جهل ، وهبار بن الأسود ، وعبد الله ابن هلال ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وهند بنت عتبة زوجـة أبى سفيان ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتنى وقرنية وهما جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد عصم بعض هؤلاء نفوسهم بالاسلام وبعضهم قتل . فقد أسلم عكرمة وحسن اسلامه وأصبح فيما بعد من كبار قواد المسلمين ، وأسلم هبار ، وأسلمت هند بنت عتبة واحدى الجاريتين المغنيتين وأسلم كذلك سعد بن أبى السرح .

وكان قد أسلم فى الطريق بين مكة والمدينة رجلان كانا من أشد أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ، هما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وصهره عبد الله بن أمية شقيق أم سلمة ، لقياه مهاجرين الى المدينة ليعلنا اسلامهما وهو فى طريقه الى مكة ، ففرح باسلامهما فرحا شديدا ، وقال لهما ما قاله يوسف عليه السلام لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ..

وبذلك دانت مكة كلها بالاسلام ، وامتلأ قلب النبى صلى الله عليه وسلم سرورا بما أفاء الله عليه من نعمته وأقر عينه باسلام أهله الذين ناصبوه العداء طويلا .

وقد خشى الأنصار — وقد فتحت مكة وأسلم أهلها — أن يبقى النبى صلى الله عليه وسلم بها ، فطمأن خاطرهم وهدأ بالهم وقال لهم : المحيا محياكم والممات مماتكم . فسرى عنهم وملأت الغبطة نفوسهم .

آثار الفتح :

لقد كان فتح مكة يوما مشهودا فى التاريخ ، يظل يفيض بالعبرة والعظة ويشهد الدنيا على أن الباطل مهما طال أمده وكثر عدده وطغت قوته فانه فى النهاية مهزوم أمام الحق ، وشتان بين خروج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة من مكة طريدا وبين دخوله اليوم اليها منتصرا يحيط به ألوف المسلمين من كل جانب يحيطونه بأرواحهم ويفتدونه بأنفسهم من كل سوء ، يلبون دعوته ويجيبون اشارته .

لقد أعلن فتح مكة مبادىء الاسلام قوية صارخة ، تلك المبادىء التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم يوم بعث ، ولكنه أوذى فى سبيلها وطورد من أجلها ، وكذب من آمن بها ، ولقى هو وأصحابه الأهوال والمشقات وهم يريدون أن يرفعوا الحق وينشروا العدل ويقضوا على الباطل .

فالآن استعلنت كلمة لا اله الا الله من فوق الكعبة ، ونكست الأصنام وطهر بيت الله الحرام وأصبح الناس اخوانا لا فرق بين سيد ومسود ولا أبيض وأسود ، وهذا بلال يدخل جوف الكعبة بصحبة سيد الخلق ، ولم يكن يجرؤ عبد من قبل ذلك على ذلك ، ولكنه الاسلام الذى رفع قيمة الانسان وأوضح مفهوم الانسانية فى الأذهان .

اليوم حطت قريش من كبريائها ، وعرفت فى النهاية أن سعيها الحثيث كان فى باطل وأن الحق أحق أن يتبع .

انظر ، لقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة فى العفو عند المقدرة وفى الصفح والتسامح وفى التواضع والرحمة وفى الوفاء والبر ، وكل تصرفاته التى حدثت تدل على تلك المثل الشماء التى تطالب المسلمين بالاقتداء بها والتزود منها ، وهل هنــاك مثال فى العفو والتسامح أروع من أن يقابل رجل أوذى وطورد وحورب وكذب ، يقابل من فعل به ذلك بقوله : **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لـــكم** ، ثم يقول لهم : **اذهبوا فأنتم الطلقــــاء !.**

لقد ظهر واضحا تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم للبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، فنهى الناس عن القتال فيه الا عند الاضطرار ، وحين سمع سعد بن عبادة يقول فى أثناء دخول مكة : اليوم يوم الملحمة ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل اليوم يوم المرحمة .

وهل هناك بر ووفاء أعظم من اعطاء المفتـــاح ــ مفتاح الكعبة ــ لعثمان بن طلحة وهو يقول له : اليوم يوم وفاء وبر ، ويتلو قوله تعـــالى من سورة النساء : ((**ان الله يامركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها**)) .

ولقد رأينا ما فعل حاطب بن أبى بلتعة ، وقد هــدأ النبى صلى الله عليه وسلم من روعه على الرغم من جسامة ما فعل ، وكف عنه بطش عمر ، وقال فى رفق : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم ــ لقد وكله الى تأديب القرآن وهـــو أبلغ وأوعظ ، فقـــد كانت الآية التى نزلت كافية فى الزجر والتأنيب والكف عن موالاة الكفار : ((**يأيها الذين آمنوا لا تتخـــذوا عدوى وعدوكم أولياء**)) والخطاب موجه الى المؤمنين ، فلا ينبغى للمؤمن أن يفعل ما يناقض ايمانه ، فتولى الكافر كفر يقضى بذلك قوله تعالى : ((**ومن يتولهم منكم فانه منهم**)) المائدة ٥١ .

وندرك لمســـة البر والوفاء أيضا فى ادخال الاطمئنـــان الى نفوس الأنصـــار الذين آووا المســـلمين ونصروهم وآثروهم على أنفســــــهم ، وقد توجسوا خيفة من أن يبقى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة بين أظهر أهله فقال لهم فى حب وتقدير : المحيا محياكم والممات مماتكم ..

ثم ان علينا أن نتدبر خطاب النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة لنرى فيه معالم الاسلام الكريمة ، من دعوة الى نبذ العصبية الجاهلية والتباهى بالباطل والتفاخر بالآباء والأجداد ، وعلى المسلمين الآن أن يتدبروا هذه المعانى فيخلعوا ما رث من ثياب بالية من تفاخر بالعصبيات والجاه والنفوذ والثروة ، ويتركوا التباهى بما خلفته الاقليميات من مآثر يدعو التباهى بها الى تفكك عرى الوحدة بين المسلمين واثارة العداوات بينهم .. والاسلام دين الوحدة والأخوة الصادقة والتراحم والتواضع وتناسى الأحقاد والخلافات ...

غزوة حنين :

لم تسترح ثقيف وهوازن للنصر الذى آتاه الله المؤمنين ، فقد تنزت قلوبهم حقدا فجمعوا جموعهم ، وولوا أمرهم عوف بن مالك سيد هوازن ، وكان شابا فتيا مفتونا بنفسه مزهوا بقوته ، فأمر بحشد النساء والأطفال والأموال خلف الجيش ، ليثير بذلك النخوة فى نفوس المقاتلين حتى يقاتل كل واحد منهم عن عرضه وماله ،ونسى كلمة مجرب قديم من قومه قالها له وهى : وهل يرد المهزوم شىء اذا هزم ؟

ونزل هذا الجيش الكثيف فى « أوطاس » — مكان بين مكة والطائف، فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السادس من شوال ، وقد أضيف الى جنود الفتح ألفان آخران ممن أسلموا يوم الفتح .

وتجهز عوف بن مالك للقاء المسلمين فى وادى حنين ، وقد انتشرت جنوده فى أحناء الوادى يكمنون للمسلمين ، وتقدم المسلمون نحو الوادى فى غبش الصباح لا يتبينون ، فاذا بكتائب المشركين تلقاهم من المنحنيات وتفاجئهم فى حملة واحدة ، فاضطربت صفوف المسلمين ، وولى الطلقاء الادبار ، فولى معهم جمع غفير من المسلمين .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم انحاز الى اليمين ، ونادى فى الناس قائلا : أنا النبى لا كذب ، الى يا عباد الله ، ولزمه جمع من الصادقين من أصحابه ، وأبلى يومئذ ابن عمه الحديث العهد بالاسلام أبو سفيان

ابن الحارث بن عبد المطلب بلاء حسنا ، فلم يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ممسكا بزمام بغلته البيضاء ، ولزمه أيضا عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ينادى فى الناس والعباس يردد وراءه وكان جهوري الصوت .

كان العباس يردد وراء النبى صلى الله عليه وسلم: يا أصحاب السرة، يا أصحاب سورة البقرة ، فتعاطفوا حين سمعوا الصوت تعاطف الابل على أولادها قائلين : لبيك لبيك ، وأقبلوا فى شوق الى الشهادة ، وكأن النداء الذى سمعوه قد نبه منهم غافلا ، فتسابقوا الى أعدائهم فى حماس شديد ، والتقط النبى صلى الله عليه وسلم حصيات من الأرض وقذفها فى وجوه الكفار وقال : انهزموا ورب محمد ..

والقى الله الرعب فى قلوبهم فولوا هاربين ، ووراءهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون ، ونادى النبى صلى الله عليه وسلم فى الناس قائلا : من قتل قتيلا فله سلبه ، حتى لقد استلب أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلا قتلهم وحده .

وفر قائد الجموع الى الطائف يمتنع بحصونها ، فحاصرها النبى صلى الله عليه وسلم ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد نفث فى روعه أنها ستأتيه مسلمة ، فأقلع عن حصارها بعد بضعة عشر يوما ، وهو يهتف من أعماقه داعيا : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم ، وقد استجاب الله دعوته فأتت هذه القبيلة التى كانت قد استقبلته ذات يوم أسوأ استقبال — جاءت اليه مسلمة مذعنة ..

عطف كريم :

وفى « الجعرانة » — وهى مكان بين مكة والطائف جمعت فيه غنائم هوازن — جلس النبى صلى الله عليه وسلم يوزع هذه الغنائم الوفيرة ، وكان قد أخر تقسيمها حتى يعود من الطائف أملا فى اسلام هوازن ، وبعد أن انتهى من تقسيم الغنائم والسبى جاءه وفد من هوازن وقد أسلموا وسألوه أن يرد عليهم مالهم وسبيهم وأنشدوا بين يديه :

أمنن علينا رسول الله فى كرم
فانك المرء نرجوه وننتظر

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها
اذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

وهم يشيرون بذلك الى أن رضاعته كانت فى قبيلة سعد بن بكر وهى بطن من هوازن .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن أحب الحديث الى أصدقه ، فاختاروا احدى الطائفتين السبى أو المال ، قد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، فقالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا .

فقال صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم ذلك وإسال لكم .

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا بما أمرهم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت الأنصار كذلك ، ومن أبى وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بست فرائض من أول سبى يصيبه ، فرد الناس ما بأيديهم من سبى هوازن .

وسأل النبى صلى الله عليه وسلم وفد هوازن عن زعيمهم مالك بن عوف ، فقالوا له : هو فى ثقيف بالطائف ، فقال : أخبروه ان أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل ، فلما بلغ مالكا ذلك أتى النبى صلى الله عليه وسلم خفية حتى لا تشعر بذلك ثقيف فتمنعه ، فأسلم ووفى له النبى صلى الله عليه وسلم بما وعد فقال مالك فى ذلك :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله
فى الناس كلهم بمثل محمد

أوفى واعطى للجـــزيل اذا اجتــدى
ومتى تشــــأ يخبــــرك عما فى غـــد

وقد استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على قومه .

حسن تصرف :

وقسم النبى صلى الله عليه وسلم المال بين الناس فأعطاهم وأفاض فى العطاء ، وخص حديثى العهد بالاسلام بالكثير منه ليتألف قلوبهم ، فكان ذلك سببا فى اقبالهم على الدين وتعمقهم فيه .

وقال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضـب النبى صلى الله عليه وسلم حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل اذا لم اعدل ؟

وقد هم عمر وخالد كلاهما بقتله ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم الذى يغلب حلمه غضبه دائما حال بينهما وبين ذلك ، وقال لهما : لعله أن يكون يصلى ، فقال خالد : كم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال صلى الله عليه وسلم : انى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس .

وحين أكثر النبى صلى الله عليه وســـلم العطاء فى قريش وقبائل العرب وترك الأنصار غضب بعض هؤلاء قائلين : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

فجمعهم النبى صلى الله عليه وسلم وحدهم وقال : يا معشر الأنصار، ماقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفســـكم ؟ الم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصــــار ؟ قالوا : بماذا نجيبـك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال صلى الله عليه وســـلم : أما والله لو شـــئتم لقلتم فلصدقتم

ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وابناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله قسما وحظا .

لقد كان لهذه الكلمات الرائعة فعل السحر فى نفوس الأنصار ، مسح بها ما علق فى أذهانهم منوساوس راودتهم كما تراود غيرهم فى مثل هذه الظروف حيث يشعرون بأنهم هم الكادحون وغيرهم هم الغانمون .

قل انها الحكمة وحسن التصرف ، أو قل انها السياسة ومعرفة أغوارها ، سياسة النفوس والقلوب والممالك ، أو قل انها البلاغة الوافية التى تصيب المحز بأقل لفظ واقوى حجة ، أو قل غير ذلك فقد جمع المصطفى صلى الله عليه وسلم من سوابق الفضل ما عز ذراه ومن جوامع الحكمة ما صعب مرتقاه ، حتى تربع على عرش القلوب وتمكن من نواصى الأرواح والنفوس .

ومن الجعرانة عاد النبى صلى الله عليه وسلم الى مكة معتمرا ، ثم انطلق عائدا الى المدينة المنورة ..

حكمة حنين :

لقد فصلت هذه المعركة فى حنين بين الاسلام والشرك ، وأدالت دولة الكفر فى الجزيرة العربية نهائيا والى الأبد ، ولم تبق بعدها الا فلول سرعان ما جاءت وافدة مذعنة بعد قليل ، فقد بدأت الوفود تتوافد على النبى صلى الله عليه وسلم معلنة اسلامها .

واخذ النبى صلى الله عليه وسلم يبث سراياه لتحطيم الأصنام فى ربوع الجزيرة أو فى اخضاع ما تبقى من جيوب الشرك والوثنية .

وأول ما يطالعنا من دروس العبرة والعظة فى غزوة حنين هو وجوب عدم الاغترار بالكثرة والعدة فما النصر الا من عند الله يؤتيه من يشاء بغض النظر عن العدد والقوة . وقد انتصر المسلمون فى بدر على الرغم من قلتهم، ولكنهم انهزموا فى الجولة الأولى فى حنين على الرغم من كثرتهم .

لقد أحسنوا التوكل فى بدر واستمسكوا بقوة الايمان والثقة فى الله حتى قال الله لهم : « **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** » آل عمران ١٢٣ .

ولكنهم اغتروا فى حنين حتى قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة .

ولولا ثبات النبى صلى الله عليه وسلم فى المعركة وانعطاف الصادقين نحوه حين سمعوا دعاءه لهم لكانت العاقبة وخيمة ، وقد أنزل الله فى ذلك قوله تعالى « **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** » التوبة ٢٥ و ٢٦ .

ونتعلم من هذه الغزوة أن العقيده هى التى تمكن من النصر ، ولذلك تحرص الجندية الناجحة على بث العقيدة الصحيحة فى نفوس جنودها حتى يثبتوا فى مواقعهم ، ولقد انضم الى صفوف المجاهدين ألفان من الطلقاء الذين لم يسلموا الا يوم الفتح ، فلم تكن لديهم تلك العقيدة الايمانية التى يقابل بهـا المؤمنون أعداءهم ، وكان هؤلاء أول المنهزمين الذين أربكوا الصفوف ، ولذلك ينبغى تربية هذه العقيدة فى النفوس قبل التقدم لأى معركة مع الأعداء .

واننا لنرى فى موقف النبى صلى الله عليه وسلم موقف القائد البصير الثابت الذى لا تزلزله الأحداث ، فلا يفقد رباطة جأشه فى ادارة المعركة ، وقد كان لتصرفه صلى الله عليه وسلم الأثر الكبير فى كسب النصر بعد أن كاد يضيع بسبب التشتت والارتباك ، وفى انعطاف المسلمين نحوه دليل على الحب العميق الذى يربط بين الصحابة وبين رسولهم الكريم ، فما أن سمعوا نداءه حتى لبوه سراعا دون تردد واجتمعوا بعد تفرق وثبتوا بعد اضطراب .

وفى غزوة حنين دليل على أن قتال المسلمين لم يكن بهدف جمـــع الغنائم ، وانما كان اعلانا لكلمة الله وقضاء على الباطل ، فقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم الأعراب لتأليف قلوبهم ، ولكنه لم يعط الأنصار الذين رسخت عقيدتهم واطمأنت قلوبهم بنور الايمان ، كما انه استرد السـبى وأعطاه لأصحابه بعد أن أسلموا ، ولقد علم النبى صلى الله عليه وسـلم المسلمين دروسا فى الحب وعدم الحقد حين طلبوا اليه أن يدعو بهـلاك ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين .

كما أننا نتعلم من هذه الغزوة كيف أحب النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار حبا شديدا وآثرهم على أهله ، وقال : لو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار ، ثم دعا لهم ولأولادهم وأولاد أولادهم بالرحمة . وقد ظهر أثر هذه الدعوة المباركة فيهم وفى سـلالاتهم الطيبة .

غـزوة تبـوك :

تمثل هذه الغزوة لونا جديدا من الصراع بين الحق والباطل ، فهى على غرار غزوة مؤتة ليست صراعا بين عرب وعرب ، ولكنها صراع بين العرب المسلمين والروم ، الذين بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أنهم جمعوا جموعهم يريدون الاغارة على المسـلمين ، منتهزين فرصة الجدب الذى أصاب الجزيرة العربية ، فالعرب — اذن — منهكون لا يسـتطيعون الرد ولا يتمكنوا من المقاومة ، ومن هنـا جاء اسم الجيش الذى أطلق عليـه جيش العسرة .

وأذن مؤذن النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد ، وعلى غير المعتـاد صرح عليه الصلاة والسلام بالجهة التى يقصدها فى جهاده ، وكان من عادته التورية والكتمان حتى يأخذ عدوه على غرة .

صرح لبعد الشقة وليذكى روح المنافسـة والجهاد وليعد كل من المسلمين نفسه لرحلة طويلة شاقة متجهزا لها بكل ما يملكه من ظهر ومتاع وسـلاح .

وبدأت الأموال تنثال على النبى صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء . وأتى ابو بكر رضى الله عنه بكل ما يملك ، وأتى عمر بنصف ما يملك ، وأتى عثمان بعشرة آلاف دينار فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن الى يوم القيامة ، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتى أوقية من الفضة ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من التمر ، وزاد عثمان على ما أعطى فقدم أربعمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن .

وتشوق الناس الى مشاركة النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ، فأقبلوا عليه من كل مكان على الرغم من حرج الظروف ، ولكن بعضهم رجعوا الى مواطنهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون وألا يجدوا ما يحملهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

موقف المنافقين :

أما المنافقون فهم كعادتهم تنزت قلوبهم حقدا وتمنوا أن لو عاد المسلمون من غزوتهم هذه مهزومين ، بل لقد صرح بعضهم بذلك قائلا : اتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بهم — أى المسلمين — غدا مقرنين فى الحبال .

وحين أرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى هؤلاء المرجفين ليسألهم عما يشيعونه بين المسلمين أنكروا قائلين : انما كنا نخوض ونلعب ، ثم لم ينثنوا عن تثبيطهم للمسلمين بعد أن علم النبى صلى الله عليه وسلم بدخائل نفوسهم ، ولكنهم حاولوا ارجاع بعض المسلمين عن الاشتراك فى الغزوة قائلين لهم : لا تنفروا فى الحر ، وتعللوا هم بذلك العذر فلم يشتركوا ، كما تعلل بعضهم بعلل واهية أخرى ، وقد فضحهم القرآن الكريم بما أنزل فى حقهم من بيان دامغ .

متخلفون صادقون :

ولكن ثلاثة من المسلمين الصادقين تخلفوا من غير عذر ، وهم كعب

ابن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وقد اعترفوا بخطئهم حين عاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بمقاطعتهم حتى يقضى الله فى شأنهم ، فنزل قوله تعالى بعد خمسين يوما من مقاطعة قاسية يستشعر مرارتها من ذاق لذة الاخلاص ، ويعرف ضراوتها من أكرمه الله بحبه وحب رسوله ونور قلبه بالايمان والمعرفة ((**لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم — وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم — يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**)) التوبة ١١٧ — ١١٩ .

خروج الجيش :

وانطلقت كتائب المسلمين وعددها ثلاثون ألفا فى جو قائظ شديد الحرارة فى صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا ماء الى هدف يبعد عن المدينة زهاء سبعمائة كيلومترا ، الى تبوك ، فى رجب من العام التاسع للهجرة .. بعد أن ترك بالمدينة على بن أبى طالب يتولى الشئون ، وحين أرجف به المنافقون فقالوا انما خلفه عنه استثقالا له ، رغب على فى الخروج مع الجيش ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ الا أنه لا نبى بعدى ..

وجد المسلمون فى السير ، واللواء فى يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، حتى مروا بديار ثمود ، فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ، وأمر بالاسراع وقال لأصحابه : لا تدخلوا ديار الذين ظلموا الا وأنتم باكون .

وحين وصل الجيش الى تبوك لم يجدوا جموع الروم التى أخبر عنها المسلمون ، والتى قد أبلغوا بأنها وعدتها أربعون ألفا من الروم ونصارى العرب وصلت طلائعها الى البلقاء .

لم يجد المسلمون أحدا ، وربما بلغ الروم قدوم المسلمين فى تجهزهم الكثيف فتفرقوا قبل وصولهم . وأقام المسلمون هناك أياما ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يصحب معه أربعمائة فارس الى دومة الجندل ، التى يحكمها أكيدر بن عبد الملك من قبل هرقل ، واستطاع خالد أن يفتح الحصن الذى يقيم فيه أكيدر ويحمله أسيرا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فصالحه على الجزية وخلى سبيله .

وقدم اليه صلى الله عليه وسلم يوحنا صاحب أيلة وبصحبته أهل جرباء ، وأهل أذرح ، وأهل ميناء ، وقد صالح هؤلاء على الجزية وكتب لهم عهدا .

عودة مظفرة :

ثم استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى الرجوع الى المدينة أو مجاوزة الحدود بعد تبوك ، فأشاروا عليه بالرجوع ، فأخذ برأيهم ، وعاد منتصرا فى رمضان ، وقد أخزى الله المنافقين فجاءوا يعتذرون ، ولكن ما يغنى اعتذارهم أمام ما أنزل الله فى شأنهم ؟ حتى أصبحت هذه الغزوة تسمى الفاضحة لأنها فضحت موقفهم .

لقد أظهرت هذه الغزوة كوامن النفوس وخفايا القلوب ، فبقدر ما كشفت عن الايمان العميق للمسلمين الصادقين كشفت كذلك عن الحقد الدفين فى نفوس المنافقين ، فهم لم يألوا جهدا فى تثبيط المسلمين واعاقتهم عن الغزوة سالكين فى ذلك كافة السبل ومختلف الحيل ، وبقدر تنافس المسلمين فى تقديم العون المادى والمعنوى فى انجاح الغزوة كان المنافقون يتنافسون أيضا فى التخذيل والتعويق ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد فخذلهم ونصر دينه وأيد جنوده ، ومضى التاريخ يرفع من قدر المؤمنين ويحط من شأن الكافرين والمنافقين .

لقد أوجبت هذه الغزوة على المسلمين جميعا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، فلا حجة لمتقاعد بعد الآن ، حتى ولو كان قعوده بسبب جنى الثمار وحصد المحصول الذى آن أوانه ، والا دخل فى نطاق

الاستفهام التوبيخى الذى تتضمنه هذه الآية الكريمة ((**يأيها الذين آمنـوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحيـاة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل**)) التوبة ٣٨ .

واذا كان من الواجب على المؤمنين الا يتخلفوا عن الجهـاد فان من واجب الامام والقائد أن يطهر صـفوف جنوده من المنافقين حتى لا يكونوا وسيلة خذلان وأداة هزيمة ، وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى ((**لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ـــ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون**)) التوبة ٤٧ ، ٤٨ .

أجل فقد ظهر مصداق ذلك واضحا فى غزوة بنى المصطلق الآنفـة الذكر .

رأينا عقب هذه الغزوة كيف عامل النبى صـلى الله عليه وسـلم المخلفين ، فقد تشدد مع الصادقين ولكنه تساهل مع الكاذبين ، ولم يتشدد مع الصادقين الا تكريما لهم من جهة ، والا ليبين للمسـلمين جميعا أن الاسلام لا يقبل من المسـلم انصاف الحلول ، انه لا يريد منه الا صدق العزيمة ويكره منه التردد ، ولقد كان اعراض النبى صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الصادقين درسا قاسيا وعوه تماما وانتفعوا به ، وجاء القـرآن بعد ذلك بلسما شافيا يثنى عليهم فيما سبق من آيات .

وكان تساهله مع المنافقين عقابا رادعا لأنهم لا يستحقون عناء العتاب وقبول الاعتذار ، ونزل القرآن فاضحا نواياهم وليست فضيحة القرآن لهم أمرا سهلا هينا ، انها فضيحة دامغة لهم ما بقى القرآن يتلى على ظهـر الأرض .

وان الاعراض وسيلة من وسائل التربية العالية التى تتربى بهـا النفوس ، كما رأينا فى اعراض النبى عن هؤلاء الثلاثة ، ولقد ظهر صدقهم فى الصـمود لهذه التجربة الصـادقة ، وقد كان فرحهم بتوبة الله عليهم شديدا ، جعلت كعب بن مالك يخرج عن كل ما يملك لله ، فما أصدقها من توبة وما أجله من وفاء .

لقد كانت نتيجة هذه الغزوة ايجابية ، أرهبت العدو فتفرق قبل وصول النبى صلى الله عليه وسلم اليهم مقاتلا ، وصالح من صالح من أهل الديار المقيمين على الحدود على الجزية ليضمن عدم موالاتهم للعدو ، وكانت الغزوة تدريبا عمليا للمسلمين على تحمل المخاطر واقتحام الصعاب وتحدى العقبات . ورأى المسلمون مصائر الأمم السابقة رأى العين ، مروا على ديار ثمود ، فحذروا عاقبتهم ..

مسجد الضرار:

ومن الأمور المضحكة من تصرفات المنافقين أن يعود النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ليجد المنافقين أقاموا مسجدا فى قباء يتظاهرون فيه بالصلاة ، ولكنه فى حقيقة الأمر أقيم ليعقدوا فيه المؤامرات للاضرار بالمسلمين . وقد طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيه ، ولكن الله كشف له زيفهم ، وأبان له أنه مسجد لم يقصد به وجه الله ورسوله وأنزل فى ذلك قوله تعالى ((**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون — لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين — أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه خير ام من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين — لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم**)) التوبة ١٠٧ — ١١٠ .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه بأن يهدموا المسجد الذى أقيم للتضليل ففعلوا . وفى ذلك تعليم لنا نقصد وجه الله ورسوله بأعمالنا ولو كانت صالحة فى ظاهر الأمر . فهناك أعمال يظنها الكثيرون منا طيبة ولكنها فى الواقع مبعثها الرياء والسمعة .

الوفود :

يعد العام التاسع الهجرى عام الوفود ، وان كانت هناك بعض الوفود وفدت على النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، مثل وفد صداء

اليمنى ، وكان عدده خمسة عشر رجلا نزل ضيفا على سعد بن عبادة ، وبايعوا النبى صلى الله عليه وسلم على الاسلام ، وقالوا : نحن لك على من وراءنا ، وحين رجعوا الى قومهم دعوهم الى الاسلام فأسلموا ، وعاد منهم وفد آخر ادى مع النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع .

وجاء بعد هذا الوفد وفد تميم ، بقيادة عطارد بن حاجب والزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهتم وهذا الوفد هو الذى نزل فى حقه قوله تعالى فى سورة الحجرات « **ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم** » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل سرية لهم أسرت بعضا منهم ، فحين أسلم بنو تميم رد النبى صلى الله عليه وسلم عليهم اسراهم وأحسن جائزتهم ، وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون فى الدين .

وفى العام التاسع قبل غزوة تبوك وفد عدى بن حاتم الطائى على النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن من على أخته باطلاق سراحها ، وكانت قد أسرت فى سرية بقيادة على بن أبى طالب لهدم صنم طيىء ، وقد رأى عدى من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وتواضعه وحلمه واكرامه ضيفه ما حببه فى الاسلام حينما عرضه عليه . وكان مما قاله له النبى صلى الله عليه وسلم : والله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ، وأسلم عدى وحسن اسلامه وعاش حتى رأى ذلك كله .

ولكن ما ان عاد النبى صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وتسامعت العرب برجوعه حتى أقبلت وفودهم تترى من كل مكان سامعة مطيعة مجيبة دعوة الاسلام .

وكان فى مقدمة هذه الوفود وفد ثقيف وكان عروة بن مسعود الثقفى سيدهم بعد انتهاء الحصار الذى ضربه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم قد دعاهم الى الاسلام ، ولكنهم قتلوه ، ثم انهم ثابوا الى رشدهم وأرسلوا

وفدهم واسلموا ، وارسل النبى صلى الله عليه وسلم معهم من يهد صنمهم « اللات » فهدم .

وباسلام ثقيف ترامت الوفود من كل صوب تحقيقا لقوله تعـــالى **« اذا جـــاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجـــا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »** .

وجاء وفد اهل الكتاب ، من نصارى نجران ، وجادلوا النبى صلى الله عليه وسلم قائلين له : أتريد منا أن نعبدك كما يعبد عيسى ابن مريم ؟ قال : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو آمر أحدا بعبادة غيره ، وما بذلك بعثنى ولا أمرنى .

وحين دعاهم الى الاسلام قالوا : أسلمنا قبلك ، فقال لهم : كذبتم ، يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله ولدا ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير .

فجادلوه فى عيسى قائلين : من ابوه ؟ قال : ألســتم تعلمون أن الله حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألســتم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى . قال : وهل يعلم عيسى من ذلك شيئا الا ما علم ؟ قالوا : بلى . قال : ألســتم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم .

واصر القوم على الجدل واعتبارهم عيسى الها أو ندا للاله ، فأنظرهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الغد حيث نزل قوله تعالى **« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقــه من تراب ثم قال له كن فيكون — الحق من ربك فلا تكن من الممترين — فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا**

ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » آل عمران ٥٩ — ٦١ ، فدعاهم الى المباهلة كما أشارت الآيات .

وخشى النصارى نتيجة هذه الملاعنة فكفوا عن الجدل ، وارتضوا الجزية يؤدونها للنبى صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده على أن يظلوا على دينهم .

وتوالت الوفود غير هذه من مختلف القبائل تعلن ولاءها للاسلام ..

أبو بكر أمير للحج :

وفى آخر ذى القعدة من العام التاسع أرسل النبى صلى الله عليه وسلم ابا بكر اميرا على بعثة الحج ، فخرج رضى الله عنه من المدينة ومعه ثلاثمائة رجل ، وأمامه من الهدى عشرون بدنة ، وقد نزلت فى اثناء سفره اوائل سورة التوبة ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم خلفه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ليقرأها على الناس ، وقد تضمنت الآيات التى نزلت نبذ عهود المشركين الذين لم يفوا بها وتطهير البيت من المشركين ولا يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

حجة الوداع :

وفى العام التالى حج النبى صلى الله عليه وسلم بالناس حجة الوداع ، ولم يحج غيرها ، وقد صحبه فى حجته هذه عدد غفير من المسلمين يقدر بتسعين الفا .

وأحرم النبى صلى الله عليه وسلم للحج ملبيا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » وحين رأى البيت قال : اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا .

وطاف بالبيت سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا راكبا على راحلته .

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة توجه الى عرفة والقى خطبته الجامعة التى تضمنت خلاصة وافية لتعاليم الاسلام المشرقة وجب علينا

انباتها لنتعلم منها صفاء المبادىء ، ووجوب العودة الى منابعنا النقية الخالصة ، فنستعيد بذلك عزنا ومجدنا وكرامتنا .

خطبة الوداع :

قال النبى صلى الله عليه وسلم — بعد أن حمد الله وأثنى عليه — :
أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله لا ربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وان كل دم فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أما بعد ، أيها الناس ، ان النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن الا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن الا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن ذلك فان الله قد أذن لكم أن تهجرونهن وتضربونهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما أخذتموهن

بأمة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله وسنة نبيه .

ايها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال صلى الله عليه وسلم : اللهم فاشهد ...

لقد حفلت هذه الخطبة بالكثير الطيب الذى يفيد المسلمين فى حاضرهم ومستقبلهم كما استفاد الأولون السابقون منها .

ولقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بتحديد العلاقة بين المسلمين على أساس عدم الاعتداء على الأموال والحرمات ، فلو التزمت هذه الحدود ساد الأمن والود ، ثم أرسى قواعد الحب والمرحمة بالقضاء على الاستغلال والتعدى ، وفى تحريم الربا قضاء على أدواء الجشع والطمع واشاعة للمروءة والأخذ بيد المحتاج ، وفى تحريم الاعتداء على الدماء قضاء على ما يسمى بعادة الأخذ بالثأر التى تقاسى منها المجتمعات الاسلامية والعربية أمر المقاساة .

لقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء حقا ، وبين لهن حقوقهن وواجباتهن ، وفى مراعاة ذلك ارساء لدعائم المجتمع السليم الذى لا استقلال له الا بجناحيه معا .

وأوضح للمسلمين أن سعادتهم كلها وعزهم كله وتقدمهم كله انما أساسه التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ..

ان هذه الخطبة الجامعة تتضمن المبادىء العليا لشريعة الاسلام ، عسى المسلمون يتدبرونها الآن لينهضوا بأنفسهم وأمتهم ..

وكانت حجة الوداع درسا عمليا للمسلمين كيف يؤدون مناسكهم كما أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامهم ، وكما قال عليه الصلاة

والسلام عن الصلاة : صلوا كما رأيتمونى أصلى ، فقد قال عن الحج : خذوا عنى مناسككم .

وقد سميت هذه الحجة حجة البلاغ أيضا ، فقد شهد المسلمون جميعا على تبليغ النبى صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وأشهد ربه على شهادتهم .

وفى هذه الحجة الكريمة نزل قوله تعالى ((**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**)) المائدة ٣ .

وأقام النبى صلى الله عليه وسلم بمكة عشرة أيام ، ثم قفل راجعا الى المدينة ، وحين رآها كبرثلاثا ، وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ..

ولا يجهلن احد قيمة هذه الحجة بالنسبة لتثبيت دعائم الدعوة الاسلامية ، والحج هو الركن الخامس للاسلام ، وقد فرض فى السنة الخامسة للهجرة ، وقد شاء الله أن يؤديه نبيه صلى الله عليه وسلم فى العام العاشر الهجرى ، لحيلولة الكفار بينه وبين ذلك ، فلم تكن الاستطاعة وهى شرط الحج مكفولة قبل ذلك ، وقد قال تعالى ((**ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا**)) آل عمران ٩٧ .

والدليل على أنه فرض فى العام الخامس ما يرويه السيوطى فى أسباب النزول عن سعيد بن منصور عن عكرمة قال : لما نزل ((**ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين**)) ، قالت اليهود : فنحن مسلمون ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ان الله فرض على المسلمين حج البيت ، فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، فأنزل الله : ((**ومن كفر فان الله غنى عن العالمين**)) .

وقد عرفنا من تتابع الأحداث أن اليهود قد دالت دولتهم بفتح خيبر ، وأن المجاورين للنبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة من اليهود قد أجلوا عنها قبل ذلك بسنين .

لقد كانت هذه الحجة فرصة كبرى للمسلمين يودعون فيهـا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ويتعلمون منه مناسكهم ، وقد أخذ يلقى نظرته القريرة على هـذه الحشود الهائلة التى أصبحت تدين بالاسلام وتشـهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، بعـد أن كان الذى ينطق بهـذه الكلمة يؤذى ويطارد ويحارب .

لقد آمنت الأرض وطهر البيت من الأصنام ، ولن يطوف به بعد اليوم الا المؤمنون الموحدون ، وقد كان المشركون يطوفون به قبـل اليوم عرايا يصفقون ويصفرون .

وما زالت هذه الشعيرة تجتمع عليها القلوب ويحتشد اليها الملايين من كافة الأقطـار فى المشرق والمغرب ، يجمعهم هـذا المؤتمر الاسـلامى الواسع ، فتتآلف القلوب وتتصافح الأرواح وتتصافى النفوس ، ويضمهم صعيد عرفات على التلبية الخالصة المخلصة ، هاتفين من الأعماق بما هتف به نبيهم الكريم فى حجة الوداع : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ..

ان ألف مليون مسلم اليوم تهفو قلوبهم الى هذا البيت فمنهم من يكتب الله لهم زيارته ، ومنهم من يضمهم الشوق والأمل لهـذه الزيارة المأمولة المرتقبـة .

وليت المسلمين فى هذا اللقاء الكبير والمؤتمر الضخم يلتمسونه فرصة يتدارسون فيه قضاياهم ويتدبرون أمورهم ويبحثون الوسائل التى تكفل لهم عزهم ومجدهم وأمنهم وفى مقدمة ذلك كله ما ألحت عليـه خطبـة الوداع من ضرورة التمسـك بكتاب الله وسـنة رسـوله .. فكلاهما يهيب بهم أن يقيماهما روحا ونصـا وعقيـدة وحبا لا مظهرا أو شـكلا فقط ففيهما كل الحياة والعز والنصر والتأييد ..

وفود وبعـوث :

ولم تكف الوفود بعد عودة النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينـة من الاقبال عليه ، وأصبحت المدينـة المنورة به قبلة المسلمين جميعـا ، يفدون اليها من كل صوب ، فهى الآن عاصمة الدولة الاسلامية التى أقامها

النبى صلى الله عليه وسلم على أساس متين هو شهادة أن لا اله الا الله وأن محمــدا رسول الله ، وشــعار هو الحب والايثار والأخلاق الفاضلة والتآخى بين الناس ، ومبادىء هى ما يستوحى من القرآن الكريم والسنة المطهــرة ..

لقــد اصبحت الأخوة بين المسلمين جميعــا منهجا فى تلك المدرسة المحمدية التى نخرج فيها أبطال وأبطال ، وكان المسجد هو الجامعة الكبرى التى يتلقن فيها المسلمون معالم الحق والفضيلة والسياسة وفنون التدبير وأصول الحكم ، ومن القدوة النبوية المشرفة اســتفاد المسلمون محاسن الأخلاق التى كان لها أثر كبير فى فتح القلوب والأمصار بعد ذلك ..

ومن هذه المدرسة الجامعة التى أنشأها الرسول صلى الله عليــه وسلم فى مسجده انطلقت البعوث الى مختلف الجهات لتعلم الناس الدين وتتلو عليهم القرآن ، وكمثال لهذه البعوث أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى الى اليمن ، وقد ظل معاذ بن جبل باليمن حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبا موسى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

بعث أســامة ، ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يلقن الروم درسا قاســيا ، ويبدو أنهم كانت تساورهم رغبة ملحة فى القضــاء على الدعوة الاسلامية فى دارها قبل أن يفكر أهلها فى الخروج بها الى مختلف الديار .

وقد كان اختيــار أسامة على الرغم من صــغر سنه قائدا لجيش فيه صفوة الصحابة وكبارهم لفتة بارعة من النبى صلى الله عليه وسلم ، أراد أن يعلم بها المسلمين بأن الأمر ليس بالسن ولكن بالكفاءة والمقــدرة ، وبأن المسلمين يجب عليهم طاعة أميرهم وان صــغر سنه ، مادام يأمرهم بما فيه صلاحهم وصلاح الاســلام .

ولكن هذا الجيش لم يقدر له أن يمضى الى وجهته الا فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، فقــد بدأ النبى صلى الله عليــه وسلم يشتكى من مرضه الذي لزمه حتى لحق بالرفيق الأعلى ..

وحين مرض النبى صلى الله عليــه وســلم أدرك أنه لاحق بربه فى مرضه هذا ، فصعد المنبر وقال : ان عبدا من عبــاد الله قد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده .

وفهم أبو بكر بفطنته هذه الاشارة فقال وهو يبكى : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فأثنى عليه النبى صلى الله عليــه وسلم وقال : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن اخاء وصحبة .

وكان لهذه الكلمة الطيبة التى أطرت أبا بكر وأثنت عليه ، بالاضافة الى ما كان يختص به من صدق وايثار وجهاد كريم ، وتكليفه من قبل النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة بالناس فى أثناء مرضه . كل ذلك قد رشحه للخلافة بعــد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقــد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه مترجما عن لسان حال الناس : ارتضينا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا .

وما زال المرض يشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لحق بربه راضيا مرضيا وقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، وهدى الأمة وكشف الغمة ، وترك الناس على محجة بيضاء لا عوج فيها ، لقد بلغهم مأمنهم ، وأوصاهم بكتاب الله وسنة رسوله خيرا ، وأبان لهم أن النجاة فى اتباعهما والشقاء فى تركهما ، فهو قد أوفى ذمته ، ولم يترك ثغرة يمكن أن يدخل بها الشيطان بينهم الا سدها عليه ، اللهم الا اذا فتحوها بأنفسهم .

الى الرفيق الأعلى :

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحا يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشره للهجرة ، فى يوم بدأت فيه العافية تدب فى جسمه صلى الله عليــه وسلم ، حتى استبشر الناس بشفائه ، فقد طلع عليهم فى صبيحة هــذا اليوم ، وهم يصلون صلاة الصبح بامامة أبى بكر ، فانفرج الناس له ، وتأخر أبو بكر ليتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه دفعه الى الأمام بيده ، وصلى وراءه جالسا ، ولما فرغت الصلاة توجه الى أصحابه يحدثهم رافعا صوته ، وكان حديثه يدور حول

تحذيرهم من الفتن ، ويشهدهم على أنه ما أحل الا ما أحل القرآن وما حرم الا ما حرم القرآن .

وقد استأذنه أبو بكر فى المضى الى السنح — ضاحية قريبة من المدينة — حين استبشر بعافيته فأذن له . فما بلغها حتى اشتد فى أثره من ينعى اليه حبيبه صلى الله عليه وسلم ، فعاد مسرعا وجلا .

ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فى بيت عائشة أم المؤمنين ، فكشف عن وجهه الشريف وقبله ، وقال له : طبت حيا وميتا يا رسول الله ..

ثم خرج أبو بكر الى الناس وقد أصابهم الجزع واستولى عليهم الاضطراب ، ولم ينج من ذلك أشد الناس قوة وأثبتهم قلبا ، وحق لهم أن يجزعوا ويضطربوا ؛ فقد غاب عنهم رسولهم وطبيبهم وقائدهم وولى أمرهم وحبيبهم وواصلهم بالوحى وشفيعهم فى الملمات ، حتى قال عمر ابن الخطاب : من زعم أن محمدا مات علوته بسيفى هذا .

خرج أبو بكر الى الناس وحالهم تلك بين شارد اللب ووجل القلب ودامع العين ، والتفت الى عمر فقال له : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى عمر أن ينصت ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت تركه وأقبل على الناس ، فالتفتوا اليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ((**وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**)) آل عمران ١٤٤ .

لقد قيض الله للناس أبا بكر فى هذه اللحظة الحاسمة ليرد اليهم صوابهم ، ويفرغ الرضا بقضاء الله فى قلوبهم ، فقد كانت تلاوة هذه الآية التى تلاها أبو بكر بردا وسلاما على قلوبهم وكأن الناس لم يسمعوها قبل هذه الآونة ، وصدق الله اذ يقول : ((**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**)) الاسراء ٨٢ .

ووفق الله المؤمنين اذ ذاك ليختاروا خليفتهم ، فكان هو الذى اختاره النبى صلى الله عليه وسلم رفيقا فى هجرته ، واميرا لأول بعثة حج ، وحامل اللواء فى آخر غزوة غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ، واماما يصلى بالناس فى أثناء مرضه ..

وكان هو الذى ظهر فى الموقف العصيب يهدىء الناس من روعهم ويثيب اليهم رشدهم ..

وحمل أبو بكر الراية ليقود المسلمين الى بر الأمان ، وينفذ جيش أسامة الذى عقد النبى صلى الله عليه وسلم لواءه بيده ، ويقضى على ما اشتعل من فتنة الارتداد ، ويسير البعوث تفتح الشام والعراق وتبشر بدين الله الذى بعث النبى صلى الله عليه وسلم به رحمة للعالمين ، وينادى منادى الايمان فى تلك الربوع التى طالما دقت فيها نواقيس الشرك واشتعلت فيها نيران المجوسية والضلال ، وظهرت كلمة الله مصداقا لقوله الحق : **« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »** التوبة ٣٣ .

الانسانيـــة العليـــا

الصـــورة المثالية للأخــلاق :

رأينا فى هـــذه الرحلة المباركة ، التى اصطحبنا فيهـــا سيرة سيدنا رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم كيف كانت تلك الشخصية الفريدة ، التى رباها الله تعالى على عينه واصطنعها لنفسه ، واجتباها منذ القدم ، فاختار لها المعدن الطيب الذى انتقلت فيه عبر الأجيال ، حتى أراد الله ان تظهر الى الوجود فى يومها الموعود ، فتقدم للانسانية أملها المنشود .

ولقد استطاع النبى صلى الله عليـــه وسلم أن يستولى على مجامع القلوب بما رزقه الله من أخلاق فاضلة وقيم شماء ، امتدحه فيه أصدق كلام حيث قال : ((**وانك لعـــلى خلق عظيم**)) القلم ٤ ، فما رآه انســـان الا أحبـــه ، وما عاداه شخص الا أنحى فيما بينه وبين نفسه على نفسه باللائمة ، لأنه عادى أصدق مخلوق وأصلح صالح وأشرف شريف ، ولقد كان غاية ما يتمناه الانسان أن يظفر برضـــاه ، وكم جهر بعدائه قوم ، ولكن ما ان يطالعوا وجهـــه الا تبددت تلك القســـوة التى غلفت قلوبهم وذهبت تلك الغلظة التى بينوا عليها أمرهم . أرأيت أبا جهل على الرغم من شدته وشراسته لم يجرؤ أن يرمى النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب ، فقد قال له ذات يوم — فيما أخرجه الترمذى — انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله قوله تعالى : ((**فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**)) الأنعـــام ٣٣ .

وهذا النضر بن الحارث يقول لقريش — وهو مشرك — : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم امانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيـــه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ســـاحرا ؟ لا والله ما هو بســـاحر .

وهذا أبو جهل أيضا ، ابتاع أجمالا من رجل من اراش ومطله الثمن ، فأقبل الاراشى على نوادى قريش يستعين بهم على ابى جهل ، فدلوه على النبى صلى الله عليه وسلم استهزاء به قائلين له : اذهب الى هذا الرجل

الجالس فانه يؤديك حقك ، فأقبل الاراشى على الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله ان يعينه على أبى جهل ، فانطلق معه النبى صلى الله عليه وسلم الى أبى جهل — وواحد من المشركين يتبعهما ليرى ماذا يحدث — وما أن طرق النبى صلى الله عليه وسلم باب أبى جهل ، حتى خرج أبو جهل وقد انتقع لونه ، فقال له : اد هذا الرجل حقه ، فقال أبو جهل : نعم ، لا تبرح يا أبا القاسم حتى أعطيه حقه ، ووفاه حقه ..

وهذا أبو سفيان — وقد كان العدو الألد للنبى صلى الله عليه وسلم — لا يملك الا أن يقول عنه : ذلك الجدع الذى لا يقدع أنفه . تلك شهادة الخصوم فما بالك بشهادة الأصحاب ؟

عظمة أصحابه :

ولقد أحاط بالنبى صلى الله عليه وسلم من أصحابه من يغبطه ذوو الفضل من السادة والأمراء والقادة عليهم ؛ ذلك أن أصحابه أوفوا على الغاية فى الحكمة وحسن التصرف والوفاء والمروءة والصدق والاخلاص والقيادة وسائر الصفات الحميدة التى يطمح اليها الطامحون ، وأجدنى عالة على المرحوم العقاد فى هذا المعنى حيث يقول فى كتابه عبقرية محمد : « أحدقت به نخبة من ذوى الأقدار ، تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين ... تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها ، حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع اليها البأس والحلم والحيلة والصراحة والألمعية والاجتهاد وحنكة السن وحمية الشباب ، تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ومعجزة الاعجاز فى باب الصداقات ، وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب وخلصت له ، حتى أعطت كل محب كفاء ما يعطيها مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت والأقدار » .

يضع القواعد للصداقة الحقة :

وجدير بمن يضع القواعد العامة للصداقة الحقـــة وحسن العلاقة بين الناس أن يكون قدوة طيبة لذلك ، حتى يقدم الصورة المثلى للتشريع ، وتصدق عند ذلك كلمة الله : **((لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة))** .

وما أروع ما قدمه النبى صلى الله عليه وسلم للصداقة من مثل وللوفاء من صور ، استمع اليه يقول : ان الله يسأل عن صحبة ساعة .

ويدعو الى الرفق فيقول : ان الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه . وكأنه بهذا يعنى مع ما يعنى الى الرفق بالأصحاب وعدم التعنيف عليهم .

ويقول فى مراعاة الصحبة مع الأهل : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهــلى .

ويوصى بحسن اختيار الصديق فيقول : المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل .

ويكره الغيبة ، ويحترم أصحابه فيقول : لا تبلغونى عن أصـــحابى شيئا فانى أحب أن أخرج اليكم منشرح الصدر .

وما أجمل قبول العذر بين الأصحاب وتناسى الأحقاد بينهم ومراعاة جانب الله فى الصداقة ، فخير الصديقين المتجافيين من يبدأ صديقه بالسلام ، وشر الناس من لا يقبـــل عثرة ولا يقبل عذرا ، وفى ظـــل الله يوم القيامة المتحابان فى الله ، والمؤمن مرآة المؤمن .

تخبر بهذه المعانى أحاديث كثيرة وردت عن المثل الأعلى صلى الله عليه وسلم ، ويمكن الرجوع اليها فى مختلف المراجع التى تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) من أمثلة ذلك اقرأ خالد محمد خالد : كما تحدث الرسول .

لقد كان عليه الصلاة والسلام الصورة المثالية للأخلاق لا فى الصداقة فحسب ، بل فى كل شىء يتعلق بدنيا الناس وحاجاتهم ومعيشتهم وسلوكهم وأخذهم وعطائهم وبيعهم وشرائهم .

وكيف لا يكون كذلك وهو مصدر التشريع فيما يوحى اليه وفيما يصدر عنه من قول وفعل وتقرير ؟.

لقد كانت آخر كلمة قالها النبى صلى الله عليه وسلم للناس حين خرج اليهم فى صبيحة اليوم الذى لقى فيه ربه ، بعد أن صلى الصبح : أيها الناس ، سعرت الفتن ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وانى والله ما تمسكون على بشىء ، انى لم أحل الا ما أحل القرآن ، ولم أحرم الا ما حرم القرآن . .

ولعل هذه الكلمات هى تفسير ما قالته السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم . قالت : كان خلقه القرآن . .

والقرآن لم يترك شيئا للناس الا وضع لهم فيه تشريعا وما أبهم فصلته السنة . فبحق كان النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والنموذج الحق للكمال البشرى . .

مربى الرجال :

وتربية الرجال ليست أمرا سهلا ، ولكنها مرتقى صعب ، وغنى عن الكلام ما استطاعه النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا المرتقى ، وما أداه من جهد فى تخريج جماعات تخرج على أيديها جماعات وجماعات ، وكل من هؤلاء وأولئك كانوا مبرزين فى مختلف فنون الزعامة والقيادة والتأسيس والبناء .

لقد نجح الى أقصى حدود النجاح حين حول أمة من الرعاء الى أمة من الرعاة ، وصنع من شعب حائر ضائع القصد تعود أن يسوسه غيره فى كثير من أطرافه ، تسيطر عليه عنجهية كاذبة وتقوده جاهلية عمياء ، صنع منه أرقى شعب يبشر بأعظم رسالة لا يدين الا لله ولا يفكر الا فى الله ،

وتحل فى سياسته الأخلاق محل القانون ، واليك بعض الأمثلة من تصرفاته السديدة وتربيته الحكيمة المسددة التى نجحت فى اقامة هذا الجيل الرائد وتلك الأمة المختارة .

— سأله سائل ذات يوم — وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه من زهره الدنيا — فقال له : يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ؟.

فقال عليه الصلاة والسلام : انه لا يأتى الخير بالشر ، وان مما ينبت الربيع ما يقتــل حبطا ، الا آكلة الخضراء أكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وان هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم هو ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن الســبيل ، وان من يأخذه بغير حقــه كالذى يأكل ولا يشبع ويكون شــهيدا عليــه يوم القيــامة .

لقد سأل السائل وهو يعجب كيف يكون المال الذى يفيئه الله على عبــاده سببا فى الشر ، فأبان له النبى الحــكيم فى أسلوب تربوى عملى محسوس أن النعمة ليست شرا فى حد ذاتها ولكن سوء استغلالها هو الذى يجلب الشر على صاحبها . وهكذا يجب أن يحــذر الناس فتنة الدنيــا حين تقبل عليهم ، فان من نهم فيها هلك كالبعير الذى يأكل من غير وعى فينتفخ ويموت ، ومن أخذها بقصد سلم كالشاة التى تقنع فتسلم .

ثم رسم الطريق للسلامة من زهرة الدنيا بأن يأخذ الانسان المال بحقه ، وبأن يعطى منه الفقير والمسكين وابن السبيل .

ولقد استجاب أصحابه لهــذا التوجيه الحكيم ، فكانوا على الرغم مما أفاء الله عليهم من نعيم أمثلة صادقة فى الزهد والمواســاة والايثار ، ولقد رأينا فيما مر بنا كيف أن حكيم بن حزام عرض عليه أبو بكر ثم عمر حقه فى الفىء فأبى أن يأخذه حتى أشهد عليه عمر المسلمين فى ذلك .

هذا مثل نحتاج اليه فى حياتنا الراهنة ، وقد فتحت الدنيــا خزائنها على كثير من المسلمين ، حتى فاضت بالمال خزائنهم فأقبلوا على اللذات بنهم شديد ، وغفلوا فى ذلك عن واهب هــذه النعمة ولم يكتفوا فى النعم

بضرورات العيش بل تجاوزوها الى الكماليات اللاهيــة العابثة ، فأصبح شأنهم كالبعير الذى قتله البعير حبطا .

— وهــذا مثل آخر : كان صلى الله عليه وسلم يحب من أصحابه أن يعملوا وأن يعمروا وان يكونوا أمثلة حيــة للجهــاد فى سبيل الحيــاة الى جانب الجهــاد فى ســبيل الآخــرة . ومن أقواله الرائدة فى ذلك : « ما من مسلم يغرس أو يزرع زرعا فيأكل منه طــير أو انســان أو بهيمة الا كان له به صدقة » « اذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » .

ففى هذين الأثرين الكريمين وغيرهما من أقوال المربى الحكيم صلى الله عليه وسلم دعوة الى تعمير الأرض لتصبح فياضة بالعطاء للانسان .

وقد استجاب أصحابه رضــوان الله عليهم لهــذه الدعوة الخيرة ، فقد روى الثقات ان رجــلا مر بأبى الدرداء رضى الله عنه — وهو يغرس جوزة — فقال له : أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير ، وهى لا تعطى ثمرها الا بعد أمد طويل ؟ فأجابه أبو الدرداء : ما على أن يكون لى أجرها ويأكل منها غيرى ؟.

ما أروع هذا المنطق وأجمله ! وما أحوجنا اليه فى هــذا العصر الذى ينادى فيه الدول بتحديد النسل خوفا من الفقر ، وهم فى حسبانهم الخاطىء يستكثرون الخلق على الله مــع أن رزقه مكفول للجميــع ، وخــير لهم أن يستبدلوا بهذه الدعوة الجاحدة دعوة أخرى الى تعمير الأرض الجرداء ، واستنبات الصحراء التى يمكن استنباتها بوسائل وأسباب أصبحت مهيأة بمعطيات العــلم الحديث .

— وهــذا مثل يدلنا على أدب التقاضى :

أخرج ابن ماجه عن أبى سعيد قال : جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه دينا كان عليه ، فاشتد عليه حتى قال : أحرج عليك الا قضيتنى . فانتهره أصحابه ، فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : انى أطلب حقى . فقال النبى الحليم : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟.

ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك تمر فأقرضينا

حتى يأتينا تمر فنقضيك . فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسـول الله ، فاقترضه ، فقضى الأعرابى وأطعمه . فقال : أوفيت أوفى الله لك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أولئك خيار الناس ، انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع .

فانظر كيف كان حلم النبى صلى الله عليه وسلم على متقاضيه على رغم فظاظته ، وأداؤه حقه له ، وتوجيهـه النصح لأصـحابه أن يكونوا مع صاحب الحق لا معه هو .

ان فى ذلك تعليما لنا ألا نكون مع صاحب الجاه والنفوذ ضد الضعيف ، وألا يسلك أحدنا السبل المتعرجة للتضليل وتضييع الحقوق على أصحابها . ما أحوجنا الآن الى هـذا المثل الطيب ليستريح الناس من تعتعة المحاكم والتواء المتقاضين وميل أصحاب الهوى من القضاة .

ـ وهذا مثل يهدينا الى التواضع الكريم والزهد الجميل ...

قال عدى بن حاتم : دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم ، فقام وانطلق بى الى بيتـه ، فوالله انه لعامد بى اليه اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها .

قال : فقلت والله ما هذا بملك . ثم مضى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفـا ، فقذفها الى فقال : اجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله على الأرض . قال : فقلت فى نفسى : والله ما هـذا بأمر ملك .

قال : ثم عرض على الاسلام ، فقلت : انى على دين ، فقال : أنا أعلم بدينك منك ، ثم قال : أنا أعلم الذى يمنعك من الاسلام ، تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هـذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحـيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحـد ،

وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز . قال : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد .

ويعيش عدى بن حاتم حتى يرى تحقق الأولى والثانيـــة ، ويقسم قائلا : والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالهـــا .

ولقد تمت فعلا ، ففى عهد عمر بن عبد العزيز لم يجد احدا يقبـــل أن يأخذ الصدقة ، فجعل يشترى بها أعبدا ويحررها .

افرأيت الى هذا التواضع الجم والزهد الجميل ؟ ولكنه من مقومات هذه الشخصية الجليلة الكريمة ، والتى كان فى امكانها أن تستمتع بكل شىء ولكنها تأباه . انها لا تهتم بكبرياء المظهر ولا بأبهة السلطان ولا بالرياش والأثاث . لقـــد كان يهمها فى المقـــام الأول رضـــا الله وارضـــاء الناس برضـــا الله .

ما احوجنا نحن الى هذا الخلق العظيم حتى يتحطم التعالى بالباطل والتفاخر الكاذب ، والغرور الذى يســـد منافذ التنبه للعيوب ، فيتمادى صاحبه فى بهتانه وضلاله .

ما أحوجنا الى الزهد الجميل ولا سيما من طوائف المتصدرين للناس المتولين شئونهم ليكونوا قدوة لهم ومثلا طيبة أمامهم . فنقضى بذلك على ادواء كثيرة وأمراض خطيرة .

توجيهـــات تنير القـــلوب :

هذه أمثلة قليلة جدا ، وسيرته الزكية حافلة بمختلف المثل والتوجيهات الكريمة التى استنار بها أصحابه ، فعزوا ، وســـار على نهجها من جاء بعدهم فســـادوا وما أحوجنا الآن الى متابعتها لنعز كما عزوا ونســـود كما ســـادوا .

لقد كان أصحابه رضـــوان الله عليهم يتصرفون بوحى من اشعاعاته التي استنارت بها قلوبهم بعد أن امتلأت حبا له وتوجها اليه ، حتى ملك

أقطار نفوسهم وشغاف أفئدتهم ، فمسهم من الوحى الذى يوحى اليه جانب جعلهم ينطقون بما يوافقه قبل أن يوحى ويتصرفون بواقعه دون أن يتنزل به جبريل ، وكم رأينا القرآن يوافق آراء عمر رضى الله عنه ، وقد رأينا سعد ابن معـــاذ رضى الله عنـــه يحكم فى يهود بنى قريظة فيحكم بما يريده الله ورسوله ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت . ا حكم الله به من فوق سبع سموات .

وما هـــذه الفتوحات الرائعـــة لأمم الشرق والغرب فى تلك الآونة الوجيزة من الزمن الا من فيض هذا الالهام الذى ألهمه الله لهؤلاء الأصحاب الأجلاء فى حسن القيادة وتعلمها فى مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبدافع هـــذا الايمان العميق الذى تغلغـــل فى أعماق الجنود الذين وثقوا بوعد الله وتبشير الرسول لهم بالنصر والفتح . وقد رأينـــا فى قصة عدى ابن حاتم بماذا وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تحقق هـــذا الوعـــد .

وان نظرة الى تاريخ رجال من أمثـــال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تمـــلأ النفوس اكبارا واجلالا لهؤلاء الرجال ، الذين صنعوا أكبر معجزة فى التاريخ وشادوا دولة الاســـلام الكبرى ، التى ما زالت العظمـــة الانسانية تحلم بعودتها لتنقذ العالم مما يتردى فيه من صراع وضياع .

مقـــارنة مفجعـــة :

ان الزمن ليأسى لحال المســـلمين اليوم ، وحين يقارن بين ماضيهم وحاضرهم يشعر بغصة تتبعها حسرة . ولكن ماذا يجدى ذلك ؟ والحسرة لا تخلق دولة الا اذا تحولت الى عبرة تبعث الندم فتوقظ الهمم .

اننا فى حاجة الى الانتفـــاع بكل ما فى الســـيرة العطرة من دروس ففيها الحياة والغناء ، فلم يترك النبى صلى الله عليه وسلم سببا من أسباب الخير لأمته فى دينهم ودنياهم الا دلهم عليه وأرعى أنظارهم اليه ، ولم يكن جهاده فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال الا اقامة لبنيانهم الشامخ الذى حثهم

على المحافظة عليه بواسطة التمسك بكتاب الله وسنته صلى الله عليه وسلم .

النبى لم يفصل بين الدنيا والدين :

ولم يفصل النبى صلى الله عليه وسلم فى اقامة المجتمع الاسلامى بين الدنيا والدين ، بل راعى أن يكون البنيان معقودا بهما ، حتى لا يأخذ المسلم شئون دنياه بغير دين يزعه وتقوى تعصمه وضمير يقظ حى يرشده ، وحتى لا يغالى فى شئون دينه حتى يعطل من جراء ذلك المجتمع الذى يحتاج الى جهد كل فرد ؛ ذلك أن المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى ، ولقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم بعض اصحابه يرغبون فى الترهب والاعتزال ومداومة العبادة فقال : من يرغب عن سنتى فليس منى .

ولقد حرص الاسلام منذ أن بدأ يقيم مجتمعه فى المدينة على أن تكون التقوى هى شعار هذا البناء الجديد ، نجدها تحرس الأسرة وهى اللبنة الأولى فى المجتمع وتحرس الفرد فى علاقته بربه وغيره من الأفراد ، وتحرسه وهو منطلق فى عمله ولو ذهبنا نعدد كلمة التقوى والحث عليها فى أول سورة نزلت فى المدينة وهى سورة البقرة لوجدناها كثيرة جدا ، فالمجتمع الناشىء لم يعتن بالمظهر الدنيوى فقط بل راعى أن يكون الدين من وراء ذلك وأمامه ومن حوله حتى يضمن بقاءه واستمراره .

الأسرة الصالحة أساس المجتمع الصالح :

والنبى صلى الله عليه وسلم وهو القدوة العليا فى الأخلاق يحرص على أن يكون المجتمع الناشىء مشيدا على قواعد الأخلاق الفاضلة ، ولضمان ذلك دعا أن يحسن الرجل اختيار زوجته ، وأن تحسن الأسرة اختيار الزوج لابنتها ، حتى يضمن للزواج استقراره ونقاؤه . ولقد جاء فى القرآن الكريم ما يوضح أثر الانتقاء فقال تعالى : ((**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون الى النار**

والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » البقرة ٢٢١ .

ويوضح النبى صلى الله عليه وسلم مرغبات المرء فى الزوجة فيقول : تنكح المرأة لأربع : لمالهـــا وجمالهـــا وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك .

ويحذر من سوء الاختيار قائلا : اياكم وخضراء الدمن ، فسئل عنها فقال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء .

كل ذلك لحرصه على دوام العشرة وتأكيد اقامة المجتمع على أسس سليمة متينة ، وقد جرت العـــادة على أن النفوس تتآلف مع ما يشاكلها والأرواح تنجاذب الى ما يوافقها مصداقا للأثر القائل : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وصدق الله العظيم اذ يقول : **« الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبـــات للطيبين والطيبون للطيبـــات ... »** النور ٢٦ .

فاذا ذهبنا الى ما وراء ذلك نجده يضع ضوابط لهذا المجتمع السليم تتناول الأفراد والجماعات والأحكام والقـــوانين بما لا يدع ثغـــرة لنقض هـــذا المجتمع .

فالفرد محكوم بحسن الأخلاق مع اهله وجاره ومن يتعامل معهم ، ومفروض عليه طاعة الوالدين والبر بهما ، كما أوجب الاســـلام عليه انكار المنكر ودعاه الى تغييره بيده أو بلسانه أو بقلبه ، كما أوجب على المسلمين جميعا التآمر بالمعروف والتناهى عن المنـــكر **« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنـــكر »** آل عمران ١٠٤ ، وفى ذلك يقول صاحب الأســـوة الحسنة صلى الله عليـــه وسلم فيما يرويه صاحب رياض الصالحين : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

وأوجب عليهم التواصى بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى ، وليس أدل على ذلك من سنة التآخى بينهم حين انتقل بهم النبى صلى الله

عليه وسلم الى دار الهجرة ، ضمانا لمداومة التناصر بينهم واستمرار البر والوفاء والايثار .

وحـذر المجتمع — والمسلمون افراده — من الفسـاد الذى ينخر فى جسمه فيؤدى الى انهياره ، وربما بدأ الفساد بأشياء يظنها الانسـان يسيرة ولكن عواقبها وخيمـة كالسخرية واللمز والتنابز بالألقـاب والظن السيىء والتجسس والاغتياب والنميمة بالباطل ، وغـير ذلك من الأدواء التى نراها الآن قد تفشت بين الناس ، ففرقت شملهم وجعلتهم شـيعا وأحزابا ووزعتهم نهبا مقسما بين أعدائهم ذات اليمين وذات الشـمال . وامحت شخصيتهم الفريدة التى ميزهم الله بها بين سائر الأمم حيث قال لهم : ((**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس**)) البقرة ١٤٣ ، وحيث قال لهم : ((**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**)) آل عمران ١١٠ .

السنة مفصلة للقـرآن :

لقد حفلت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم بالكثير الطيب الذى يضمن بناء الأمة الاسلامية بنـاء سليما قوية ، مصونة بالحـدود والتشريعـات والشعائر ، ومحصنة بالجهاد فى سبيل اعزازها وترقيتها .

وكانت سنته صلى الله عليه وسلم الممثلة فى أقواله وأفعاله وتقريراته مفصلة لكتاب الله تعالى وموضحة له ، ولذلك فانه من الخطر الشديد على الأمة الاسلامية أن تفصـل بينهما ، أو تأخذ بالكتاب تاركة السـنة بحجة واهية ، هى أن بعض الأحاديث تناولها الوضع ؛ فان أئمة الحديث وعلماء المسلمين — رضوان الله عليهم — قد آتاهم الله القدرة على بيان الصحيح والموضوع ونقدوا ذلك فى كتبهم الوافية بما لا يدع مجالا للشك امام المتثبت من معرفة الحق من الباطل .

ولقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من زمان يدعو فيـه قوم الى كتاب الله فقط ، غير ملتفتين الى السنة ، وفى ذلك المعنى أخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم : أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم

شيئا الا ما فى القرآن ، الا انى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء انها لمثل القرآن أو أكثر ..

ويكفى فى هذا قوله تعالى ((**وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى**)) النجم ٣ ، ٤ وقوله تعالى ((**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**)) الحشر ٧ .

جوانب القدوة فى حياة الرسول :

ولو ذهبنا نعدد مواطن القدوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لطال علينا الأمر ، فانا واجدون بغير شك فى كل منعطف من الحياة التى نحياها مثلا كريما يحتذى به من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . ولعلنا نستطيع — بصفة خاصة — أن نلفت الى هذه السيرة الطيبة نظر المربى والطبيب والقائد والزوج والأب والصديق والتاجر والواعظ والصانع والحاكم وكل متطلع الى الصورة المثالية فى دنيا الناس .

النبى المعلم :

فالمعلم هو الذى يستطيع أن يغير حالة تلاميذه من السيىء الى الأحسن ويخرج منهم علماء أجلاء بالأسلوب التربوى السليم ، ولسنا نتعثر فى الحصول على الدليل الذى يثبت نجاح النبى صلى الله عليه وسلم نجاحا منقطع النظير ، فانه لم يغير حالة فرد أو أفراد ، بل غير حالة شعب من النقيض الى النقيض ، وليس أدل على مقدرته من أن رجلا ينطلق نحوه وقد امتلأ قلبه حقدا ونقمه عليه فاذا به يرتد عنه بعد مناقشة وجيزة الى صديق حميم ، ان رجلا يحول حالة عدوه بهذه السرعة والقدرة لهو أنجح انسان فى البلوغ الى قلوب الناس واستيلائه عليها وتحويلها من اتجاهات الشر الى اتجاهات الخير والحب والسلام .. وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم . لقد قال عن نفسه بأسلوب القصر . انما بعثت معلما . وتعنى هذه الكلمة بهذا الأسلوب الكثير .

وليس هناك معلم ناجح بدون منهج ، وكان منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى تعليمه أصحابه حافلا بكل احتياجات الفرد والجماعة فى

دنياهم وأخراهم وبكل ما يكفل لهم الأمن والسعادة فى معاشهم ومعادهم .
هذا المنهج يجده المسلمون لو أرادوا السعادة فى القرآن الكريم وفى سنة النبى الكريم .

النبى الطبيب :

وكما كان النبى صلى الله عليه وسلم معلما كان كذلك طبيبا ، طبيب أرواح وقلوب وطبيب أجساد أيضا . يرعى الحالة النفسية لمريضه ، ويرفع من معنوياته ، ويقوى من شخصيته ، كما يدعوه الى مراعاة صحته العامة ويضمن له سلامتها بما يضعه لها من ارشادات وتوجيهات ، قال عنه الطبيب الذى أرسله له المقوقس : لقد جمع الحكمة فى كلمتين : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع .

وما أروع هذه الكلمة القصيرة التى تعد من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم : ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه .

ويضع القواعد فى الصحة العامة فى الطعام فيقول : ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ، وكان دأبه الاقلال من الطعام والشراب ما أمكن ، ويتجافى عن الجمع بين ألوان متعددة ، ومن أدبه أنه لم يعب طعاما قط وكان يأكل مما يليه .

وكان ينهى عن تلويث الماء والتخلى فى طرقات الناس ، ويحذر من التعرض للعدوى ويحث على النظافة ويعتبرها من الايمان ، الى غير ذلك مما يجده المستزيد مفصلا فى السنة الشريفة .

النبى القائد :

وكان مثلا أعلى للقائد الناجح ، فعلى الرغم من الجانب الالهامى الذى أمده الله به لم يكن يغفل عن استشارة أصحابه فيما يعن له من أمور ، أو عن وضع الخطط الناجحة الموفقة ، وخلاصة ما يمكن أن يقال فى ذلك ما قاله العقاد رحمه الله « .. كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه

اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة ، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة ، تقترن بآية الابتكار والانشاد ؛ لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجساد » .

وامامك حروبه التى خاضها تشهد بذلك ، غزوة بدر التى انتصرت فيها القلة على الكثرة ، وغزوة أحد التى كانت الهزيمة فيها لأن الرماة خالفوا عن أمره ، وغزوة حنين التى ثبت فيها ثبات الشجاع المعجز بثباته حتى حول الهزيمة الأكيدة الى نصر مؤزر .

فى كل غزوة من غزواته تجد جانبا معجزا يظل يمد القادة العسكريين أبد الدهر بدروس التصرف الحسن والتخطيط السليم .

الزوج المثالى :

ولا ينكر منكر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان الزوج المثالى ، سواء فى أثناء اقتصاره على زوجة واحدة أو فى أثناء تعدد زوجاته ، ويستطيع المضطر الى جمع اكثر من واحدة بشروط الجمع التى حددها الاسلام أن يجد فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة المثلى فى العدل وحسن العشرة ، ولعل الله جلت حكمته اختار له التعدد فى الزوجات ليلزم أمته الحجة فى أن التعدد ليس بابا ميسورا يستطيع أن يلجه من يشاء ، ولكنه محدود بقيم وآداب لا يقدر عليها الا المثاليون .

ولا مناص من الاشارة الى عدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهن فى جملتهن احدى عشرة زوجة ، توفى منهن اثنتان قبله ، وهما السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجاته رضى الله عنها ولم يتزوج عليها فى حياتها وكانت نعمة الصاحبة له . والسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها وكانت تلقب بأم المساكين لحدبها عليهم وعطفها على البائسين والفقراء .

وبقيت بعده صلى الله عليه وسلم تسع نساء هن : عائشة بنت أبى بكر ولم يتزوج بكرا غيرها ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى

أمية بن المغيرة المخزومية ، وزينب بنت جحش بن رئاب الأسدية ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بن حرب ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث — رضى الله عنهن جميعا — .

وقد خاض الكثيرون وبخاصة المستشرقون ومن لف لفهم وسار على نهجهم فى الحديث حول كثره زوجات النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يليق بجلال النبوة والعصمة التى كفلها الله لها ، فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم شهوانيا فى زواجه ولا طالب منعة ، فانه ليس لديه الوقت الكافى — لو أراد المتعة — لذلك ، فقد شغلته أحداث الدعوة والجهاد فى سبيلها عن كل تفكير فى متعة أو شهوة ، فضلا عن أن استعداده الشخصى لم يكن كذلك ، فقد تعهده الله منذ نعومة أظفاره ورباه على عينه واصطنعه لنفسه وشغله به ، ولم يجعل فى قلبه أدنى التفاتة الى غير ما هيىء له من جلائل الأعمال ، وليس معنى ذلك — حاشاه — أن هناك نقصا فى التكوين ، وليس معناه أيضا أن الزواج يتنافى مع المثل العليا . كلا ، فقد فطره الله فطرة سوية وأفاض عليه كل كمال خلقى وخلقى . وانما الذى يتنافى مع المثل العليا الاستغراق فى المراه والنظر الى الزواج منها على أنه نهمه يفرغ المرء لها حتى تستولى على حسه وشعوره وتفكيره . وعلى الرغم من كثره زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينشغل عما تهيأ له من عظائم الأمور ونشر الدعوة والجهاد فى سبيلها .

لقد تزوج النبى صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة بنت خويلد وهى تكبره بخمسة عشر عاما ولم يتزوج عليها وهو فى أتم مرحلة الشباب — سن الخامسة والعشرين — ولو كان المتعة يطلب لتزوج غيرها وبخاصة حين تجاوزت مرحلة الشباب .

لقد كان فى زواجه صلى الله عليه وسلم يسير وفق حكمة عليا يتأبى فهمها على هؤلاء المكابرين فما من زواج الا وفيه مصلحة من مصالح المسلمين ، ألمح الى ذلك افاضل الباحثين المخلصين ، ويكفى اتماما للفائدة أن نذكر بايجاز ما كتبه الأستاذ سعيد حوا فى كتابه « الرسول » : — لقد

تزوج النبى صلى الله عليه وسلم الكبيرة والصغيرة والوسط ، والمرأة فى كل طور من أطوارها لها مشاكلها ، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وأجوبته الدائرة بما يتفق مع كل طور ونقـــل هذا كله الى الأمة الاسلامية من مقتضيات الرسالة .

— ينبغى أن لا نغفل عن أن المرأة فى الاسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذى تختلف فيه عن الرجـــل ، ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة بالمرأة الى الأمة الاسلامية ، بحيث تكون أمهات المؤمنين اســوة النســـاء فى العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن .

— تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم القرشية وغير القرشـــية ، وتزوج ذات الأصل اليهودى ، ومن كان أبواها مهاجرين ، ومن كان أبواها كافرين ، ومنهن الصغيرة جدا والكبيرة جدا ، وفى ذلك قدوة للمســـلمين حتى لا يرى أحدهم حرجا فى الزواج من أى امرأة أحلها الله له ، ما دامت متوفرة فيها شروط الحل .

— وقد استل النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة .

— كانت الزوجات همزة الوصل فيما يتعلق بالنســـاء من أحكام ، فكثرتهن جعلت دائرة اتصال المســـلمات به أكثر وايصال الأحكام اليهن أيسر ، ولا تستطيع امرأة واحدة استيعاب كل شئون النساء ، وقد رويت آلاف الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مختلف الأمور عن طريق زوجاته ، ولولاهن لبقيت هذه الأمور غامضة .

— وقد أتى الاسلام بمفاهيم جديدة ومثل كاملة بالنسبة للمرأة ، ولابد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النســـاء لضمان بقائها واستمرارها وتأكيدها .

— كان هذا الزواج حــلا لابد منه فى بعض الحالات ، فقــد تزوج

أم سلمة المخزومية المهاجرة وهى بنت سيد مخزوم ، بعد أن استشـــهد زوجها ولا عائل لها بعده فتزوجها ليجبر كسرها ويبرها .

وتزوج رملة بنت أبى سفيان بعد أن تنصر زوجهـــا فى أثناء هجرتهما معا الى الحبشة ومات هناك فأصبحت بدون راع ، وأبوها سيد قريش ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ليخطبها له ، فخطبها له وأدى صداقها عنه .

وتزوج زينب بنت جحش ، بعد أن طلقها زيد بن حارثة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبناه ، وكان العرب لا يتزوجون امرأة المتبنى بعـــد وفاته أو بعد طلاقها ، فأراد الله أن يهدم بالاسلام هذه القاعدة وأن يحلها حلا جذريا . فكان هذا الزواج .

وتزوج جويرية بنت الحارث وأبوها سيد قومه ، بعد أن هزم بنـــو المصطلق وأسرت نساؤهم وغنمت أموالهم ، فكان زواجه منها بركة علـــى قومها ، فقد أطلق المسلمون الأسرى اكراما لمصاهرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتزوج من صفية بنت حيى بن أخطب ملك اليهود ، بعـــد أن هلك أبوها وأخوها وزوجها ، وقد اســـــتل بهذا الزواج ما بقلبها من حقد كان يعذبها عملا بالحكمة : ارحموا عزيز قوم ذل .

وتزوج من عائشة وحفصة ليوثق صلته بصديقين عزيزين وصاحبين جليلين هما أبو بكر وعمر ، كما زوج ابنته فاطمة من على ، وابنته رقيـــة وأم كلثوم لعثمان الواحدة تلو الأخرى لنفس السبب .

ـــ فتح بهذا الزواج لزعماء أمته أفقا جديدا لا ينبغى أن يغيب عنهم فى أثناء العمل المتواصل وهو تقوية الصلات مع الآخرين عن طريق الزواج وتوهين حقد المغلوبين .

وقد لجأ الى ذلك عبد الرحمن بن عوف حين قاد سرية لغزو بنى كلب فى دومة الجندل ، وقد انتصر عبد الرحمن عليهم ، وأسلم بعضهم ورضى

بعضهم بدفع الجزية ، كما أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو النصرانى وتزوج عبد الرحمن ابنته لتمكين صلات الود بين المسلمين وبين هذه القبيلة . كما لجأ اليه خالد بن الوليد فى حرب اليمامة حين تزوج من ابنة « مجاعة » ساعد مسيلمة الأيمن فاستل بذلك حقده على الاسلام والمسلمين ، ونصح لخالد .

— وبهذا الزواج المتعدد الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم فيه مثلا أعلى فى العدل بين زوجاته على الرغم من اختلافهن فى السن والمشرب بين الطريق الصحيح للسلوك الذى ينبغى أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، كما عرفت النساء حقوقهن وحدود هذه الحقوق .

لا ريب اذن فى أن تعدد الزوجات للرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة من ضرورات الرسالة وتشريعاتها السامية ، وكان هذا العدد خصيصة للنبى صلى الله عليه وسلم فحسب ، أما بالنسبة لبقية المسلمين فليس التعدد مباحا الا فى حالات راعاها الاسلام بشرط العدالة ، وهو مقصور على أربع لا غير « وأوجز ما يقال فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها ، أو مباحا يختاره وله مندوحة ، وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير الضرورات ، ولن ينكر هذا الا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان » (١) .

الأب المثالى :

فاذا ما رأينا أبوة محمد صلى الله عليه وسلم وجدناها خير أبوة ، تمثل الرحمة الحانية مع التوجيه السديد ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أبا لجميع المسلمين رءوفا بهم ، يصفه بذلك ربه جل وعلا فيقول : **« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »** التوبة ١٢٨ .

---

(١) العقاد — عبقرية محمد .

ولم تشغله أعباء النبوة عن أن يعطى البنوة حقها من الحفاوة والترحيب والحب والحنو ، ولقد رآه مرة الأقرع بن حابس يقبل سبطه الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقال : لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من لا يرحم لا يرحم — أو قال : لا يرحم ابنه من لا يرحم الناس . وأخرج الطبرانى عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعينا الى طعام ، فاذا الحسين رضى الله عنه يلعب فى الطريق مع صبيان فأسرع النبى صلى الله عليه وسلم أمام القوم ، ثم بسط يده فجعل الحسين يفر هاهنا وهاهنا ، فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه ، فجعل احدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ، ثم اعتنقه وقبله ، ثم قال : حسين منى وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط .

ولم يكن حنوه قاصرا على أولاده فقط ، بل شمل كل الأولاد ، فعن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يضاحك أخاه الصغير عمرا قائلا له : يا عمير ما فعل النغير ؟ وكان يداعب أبناء العباس وأبناء جعفر بن أبى طالب وغيرهم من أطفال المسلمين وهو يمتلىء رحمة بهم وحدبا عليهم ، حتى أخرج مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يقدح هذا فى جلال النبوة ، ولا ينافى التفرغ لجلائل الأعمال ، بل هو فى حد ذاته هدف من أهداف التشريع ، يعطى للآباء دروسا فى رعاية الأبناء وحسن توجيههم ، حتى لا يضلوا الطريق ويفتقدوا المثل الأعلى فى الأبوين حين يرونهما أو أحدهما فقد عاطفة الأبوة واستبدل بها الغلظة والقسوة والجفاء .

وعلى الرغم من حبه الشديد لابنته فاطمة الا أنه رفض أن يهيىء لها من العيش ما ليس لغيرها من النساء ، فكانت تخدم فى بيتها بنفسها ، تدير الرحى حتى أثرت فى يدها وتحمل القربة على ظهرها حتى أثرت فى نحرها ، وحين شكت اليه ذلك قال لها : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك .

النبى الصـــديق :

أما صداقته فهى خير صداقة عرفها التاريخ ، وهى المثل الأعلى فى الود والوفاء والمروءة والايثار والاخلاص ، كان يبادل المسلمين جميعا الحب والوفاء ، وبخاصة الأنصار الذين آووه ونصروه ، فكان يوصى بهم خيرا ، وفى آخر وصاياه فى مرضه الذى لحق فيه بربه قال عليه الصلاة والسلام : يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصــــار خيرا ، فان الناس يزيدون وان الأنصـــار على هيئتها لا تزيد ، وأنهم كانوا عيبتى — مكمن سرى — التى أويت اليها ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

لم ينس أحدا قدم اليه معروفا أو صنع معه جميلا ، وكان المعروف يأسره — فى الوقت الذى كان فضـــله على الجميع واضـــحا ، ولم لا وقد أنقذهم من الظلمات الى النور ومن الكفر الى الايمان ؟ وما من أحـــد من أصحابه الا وله مزية عنده تظل ترفعه أبد الدهـــر ، حتى حاطب بن أبى بلتعة الذى أخطأ ذات يوم فأرسل الى مشركى مكة خطابا يعرفهم فيـــه بعزم النبى صلى الله عليه وســـلم على فتح مكة ، تجاوز عن هفوته ولم يوافق على ايذائه ، بل قال كلمته المأثورة : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . وكان حاطب بدريا . لقد تذكر فى حال اساءته حسناته المتقدمة وتلك عبقرية النبوة التى ترتفـــع عـــلى مستوى البشر فلا تغفل عن الحسنة فى وقت الاساءة ..

ولقد تعدت محافظة النبى صلى الله عليه وسلم أصدقاءه المخلصين الى كافة المنتسبين الى الاسلام فلم يشأ أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، حين هم عمر أن يبطش بعبد الله بن أبى بن سلول لما أحدث من فتنة بين المسلمين ولما تفوه به من كلام يجافى الذوق والدين

وكان الى جانب مودته لأصحابه يراعى مودة محبيهم والمتصلين بهم فقد كان يكرم صديقات خديجة رضى الله عنها .

وليس أدل على الحب للأصدقاء من تمســـك الأصدقاء به وحرصهم عليه وايثارهم اياه ، وهذا زيد بن حارثة غلام خديجـــــة وقد أهدته الى زوجها قبل النبوة ، يتعرف عليه أبوه فيجىء ليســـترده ، ولكن زيدا يأبى

الرجوع مع أبيه ، ويفضل البقاء مع محمد ، ويجزيه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الايثار ايثارا مثله ، فيخرج الى الحرم منـاديا : يا معشر قريش اشهدوا على أن زيدا هذا ابنى أرثه ويرثنى ، ويظل حريصا علـى زيد حفيا به وبابنه من بعده حتى يشيع بين المسلمين أن أسامة بن زيد هو حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبون منه الشفاعة عنده فيما يهم من أمور ، والنبى صلى الله عليه وسلم يستجيب له ما لم تكن شفاعته فى حد من حدود الله .

لم ينس لأحد فضله ، ظل يذكر خديجة بالخير بعـد وفاتها أبدا ، واحتفى بمرضعته حليمة ، وبأختـه من الرضاعة الشـيماء ، وبعمه من الرضاعة بل وبكل قبيلة سعد بن بكر التى كانت رضاعته فيها ، وبحاضنته أم أيمن وبكل من كانت تربطه به صلة قريبة أو بعيدة ، ما دامت هذه الصلة لم تضطره الى قطعها الغيرة على جناب الله ونشر الدعوة الصادقة ، فهنا تكون رعاية جناب الله أولى وأحق .

وما كان أشد فرحه باقبال عمه العباس ، وابن عمه أبى سـفيان ابن الحارث ، وشقيق زوجته أم سلمة عبد الله بن أمية على الاسلام وهو متوجه الى مكة .

لقد اتســع صدره للحب والرحمة ، ولم يوجـد به مكان للحقد والكراهية ، ولقد قابل أهل مكة الذين آذوه وحاربوه وطاردوه بالصـفح والعفو والمغفرة قائلا لهم : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبـوا فأنتم الطلقاء .

التاجر الصدوق :

ولقد تاجر النبى صلى الله عليه وسـلم ، فكان مثال التاجر الأمين الذى يؤدى للتجارة حقها ، فيصدق فى عرضه وطلبه ، ولا يغل من صاحب رأس المال شيئا ، لا يغش ولا يخدع ولا يمارى ولا يجادل . بل عاد الى خديجة رضى الله عنها بأضعاف ما كان يعود به غيره ممن كان يتاجر لهـا قبله ، وليس ذلك لتحسن فى السوق يقع فى الحسبان ، ولكن للأمانة التى كانت تصاحبه فى عمله ، وقد شهد بذلك رفيقه فى سـفره ميسرة الذى

أرسلته خديجة معه ليعينه فى طريقه ، وليخبرها أيضا بما رآه من خلــق محمد وطريقته فى المعاملة ، ولقد أطرى النبى صلى الله عليه وسلم شريكا له فى التجـــارة قبل النبوة ، اسمه السائب بن أبى السائب ، فقال عنه : نعم الشريك السائب بن أبى السائب لا يشـــارى ولا يمارى ، وصفه بالصدق فى القول وأنه لا يكثر المساومة والجدال فعل الذى يســتكثر من الربح ما استطاع طمعا وجشعا ، وقد اختلف الرواة فى مصير الســائب فقال بعضهم : قتل يوم بدر مشركا ، وقال بعضهم : انه أســلم فحســن اسلامه وأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم من غنائم حنين يوم الجعرانة .

كان يكره الغش لأنه ينافى المروءة فما بالك بالنبوة ؟ ومن صــفات النبوة اللازمة كما يقول علماء السيرة : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة. وكان يحذر من الغش أيا كان موقعه فى البيع والشراء والعمل والــكلام . رأى صبرة طعام فى السوق فأدخل يده فيها فأصابت بللا ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته الســماء يا رســول الله ، قال : هــلا عرضته ليراه الناس ؟ من غشنا فليس منا ، وكان يكره النفاق وهو خيانة ويصف النفاق بقوله : علامة المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان ، وليس أدل على أمانته صلى الله عليه وسلم من تسميته بالصادق الأمين من ألد خصومه ، ومن ائتمانهم له على ودائعهم على رغم ما بينه وبينهم من شقاق ، حتى انه فى أثناء هجرته أبقى بعده ابن عمــه على بن أبى طالب ليرد للناس ودائعهم . ومن نصائحه الرائدة للتجـــار ما يخبر به عن ربه جل وعلا : أنا ثالث الشريكين ما لم يخونا .

الواعظ المثــالى :

أما وعظه فكان يأخذ بمجامع القلوب ، لأنه صــادر من قلب ملىء خشية لله واقبالا عليه ورجاء فيه ، فهو أقرب الناس الى الله وأخشــاهم له ، ولم يأمر بشىء ويخالفه ، ولكنه يصدق قوله عمله ، وهذا هو الوعظ العمـــلى الذى يؤثر فى الناس ، والذى يتحتم على الوعاظ الذين تندبهم الدولة والهيئات أو يندبون أنفسهم لاصلاح القلوب أن يتأسوا به .

فأساس الوعظ أن يعظ الانسان نفسه قبل أن يعظ غيره ، ومن كانت هذه سمته فقد نجح فى عمله .

وكان لأسلوب النبى صلى الله عليه وسلم سحر عجيب ، وقد أعطاه الله جوامع الكلم ، وبلاغته فى الذروة بعد القرآن الكريم ، يعجب أصحابه من منطقه فيقول لهم : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ولا غرو فى أن تأخذ فصاحته بمجامع القلوب لأنه ينهل من منهل ربانى فما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ..

وقد يقال : وانى للواعظين ذلك ؟ فيجاب بأن المتأدب بأدب النبى صلى الله عليه وسلم المهتدى بهديه يناله من فيضه نصيب ، ومن أدب الرسول صلى الله عليه وسلم فى وعظه أنه كان لا يطيل على السامعين فيملوا ، ولكنه يوجز عليهم فى غير اخلال بالمعنى ، كانت خطبته لا تتجاوز الجمل المعدودات ، فليس الهدف كثرة الكلام ولكن الهدف حسن العمل .

كان يقول لأصحابه : من أم بالناس فليخفف ، والامامة تعنى الى جانب الصلاة خطبة الجمعة والعيدين ، والمتتبع لخطب النبي صلى الله عليه وسلم لا يجد خطب أئمتنا فى هذه الأيام تشبهها فى شىء . فالخطبة الآن قد تطول وتحبس الناس معها فتشرد أذهانهم وتمل أسماعهم ، أو تتلى من ديوان طال عمره وانتهى أمده .

كانت خطب النبى صلى الله عليه وسلم تتناول أهم أمور الناس فى عبارات جامعة مانعة كأن يقول : أيها الناس ، ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، فان العبد بين مخافتين أجل قد مضى ، لا يدرى ماالله صانع به ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت ، والذى نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار .

انظر كيف امتازت هذه الخطبة بالقصد فى الفكرة والاقناع بها ، جمعت بين التوضيح والتعليل والتصوير والتأكيد بما يؤثر فى النفس غاية التأثير .

هى نموذج للايجاز البليغ الذى يفى بالمعنى أتم الوفاء ولا يخل به ، تجمع بين القوة والسلاسة والعذوبة فى الأسلوب ..

أرأيت فى هذا الأسلوب تكلفا ؟ أرأيت فيه شططا ؟ أرأيت فيه مجاوزة لما تتطلبه الرسالة ولما يتطلبه المسلمون فى كل زمان ومكان ؟ أرأيت فيه تكرارا مملا أو حشوا فاسدا ؟ كلا لا تجد فى كلام أبلغ البلغاء الا كل سحر مأثور وكل معنى رائع وكل لفظ جميل وكل تأثير قوى فى النفوس ، يصيب الحكمة فى أقل لفظ وأيسره ، وتذيع خطبه حتى يحفظها الزمن ولا ينساها التاريخ .

ومن نماذج وعظه المقنع ما يرويه عمران بن حصين عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فانه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : وسعوا للشيخ — وعمران وأصحابه متوافرون — .

فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا حصين ، كم تعبد من اله ؟ قال : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء .

فقال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء .

قال : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ أأرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين .

قال حصين : وعلمت أنى لم أكلم مثله .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : يا حصين أسلم تسلم : . قال : ان لى قوما وعشيرة فماذاأقول ؟ قال : قل : اللهم أستهديك لأرشد أمرى ، وزدنى علما ينفعنى .

فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم .

فقام اليه عمران فقبل راسه ويديه ورجليه . فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بكى . وقال : بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقة .

فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيعوه الى منزله، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ وتفرقوا عنه ..

فهل هناك وعظ أبلغ من هذا ؟ وهل هناك حجة يقنع بها متطلع الى الهدى أقوى من هذه الحجة التى ساقها النبى صلى الله عليه وسلم لحصين ؟ وهل هناك دعاء يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة أو جزء من هذا الدعاء الذي لقنه النبى صلى الله عليه وسلم لحصين ؟ ..

وفيما أخرجه أحمد عن أبى تميمة الهجيمى عن رجل من قومه ، أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنت رسول الله ؟ فقال : نعم . قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده ، من اذا كان لك ضر فدعوته كشف عنك ، ومن اذا أصابك عام فدعوته أنبت لك ، ومن اذا كنت فى أرض قفر فأضللت فدعوته رد عليك .

فأسلم الرجل ثم قال : أوصنى يا رسول الله فقال : لا تسب شيئا أو قال أحدا .

قال : فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان صلى الله عليه وسلم يوجز فى وعظه ، ويصيب بالكلمة الواحدة المحز . قال له أحد أصحابه : أوصنى يا رسول الله ، فقال له : لا تغضب .

وقال له أحدهم : قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . فقال له : قل آمنت بالله ثم استقم .

وقال أحدهم : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال : أبوك .

هى كلمة واحدة ، ولكن ما أغناها من كلمة .

نقول ذلك لوعاظنا اليوم الذين يكثرون فيطيلون ورحم الله من قال : خير الكلام ما قل ودل .

هديه للصانع :

والصانع يجد فى هدى النبى صلى الله عليه وسلم له خير مثل يحمله على اتقان عمله ، ويجد فى فعله صلى الله عليه وسلم القدوة الطيبة له فى أنه لم يقصر فيما وكل اليه من أمور .

« ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » كلمة رائدة قالها النبى صلى الله عليه وسلم تدعو كل انسان الى أن يفرغ باله وهمه فيما يقوم به من أعمال ، حتى تأتى النتائج طيبة بما أعد لها من أسباب جيدة ، كما تدعو الانسان أيضا الى التعلم ليتقن عمله ، وتدعوه الى عدم اقحام نفسه فيما لا يعلمه حتى لا يفسده .

وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم نفسه المثل فى ذلك ، حين ذهب الى المدينة فوجدهم يؤبرون — يلقحون — النخل ، فقال لهم : لماذا تفعلون ذلك ؟ فقالوا : حتى تثمر ، فقال لهم : لو تركتموها لأثمرت ، فتركوها فلم تثمر ثمرا صالحا ، فقالوا له فى ذلك ، فقال : أنتم أعلم بدنياكم .

ولم يكن قوله أولا ملزما لهم ، بل هو من منطق الايمان بتقدير الله ومشيئته ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وكان قوله الثانى تشريعا لهم حتى يعلمهم وجوب الأخذ بالأسباب .

وما قام النبى صلى الله عليه وسلم بعمل من أعمال الدنيا أو الدعوة الا كان متقنا له ، يجتهد له ، ويستشير فيه ، ويحتاط للأمور ، مما يحدو بكل صاحب عمل الى أن يقتفى أثره ويحذو حذوه .

هديه للحاكم :

وللحاكم أن يأخذ من النبى صلى الله عليه وسلم مثله الأعلى . فعليه أن يتدبر جيدا قوله صلى الله عليه وسلم — فيما أخرجه البخارى — : ما بعث الله من نبى أو استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله .

ولعل هذا الحديث هو أساس الحكم ، فحسن اختيار المصاحبين للحاكم ، المعينين له على مسئوليته يترتب عليه أحسن العواقب وأفضل النتائج وقيادة الرعية قيادة حسنة حكيمة ، وسوء الاختيار يأتى بعكس ما تقدم . وقد جاء فى الأمثال : الناس على دين ملوكهم ، واذا صلح الراعى صلحت الرعية ، واذا فسد الراعى فسدت الرعية .

كان يحيط بالنبى صلى الله عليه وسلم نخبة ممتازة من ذوى الأقدار والملكات النادرة ، وكان يحسن اختيار من يكل اليهم الأمور من مبعوثين وقادة وعمال ، فخطأ واحد من هؤلاء محسوب على من اختاره ، ولا ينسى أن يثيب من يحسن ويحاسب من يفرط ، وقد يكون الثواب كلمة تقدير ولكنها من النبى صلى الله عليه وسلم تعد أعظم وسام . قال عن أبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة ، ولقب خالدا بسيف الله ، وسارت الأوصاف والألقاب عبر الزمن تشهد لأصحابها بما يفوق الأعطيات الزاخرة والنياشين الفاخرة .

وقد يكون الحساب توجيها عاما ولكنه له وقع السهام على قلب صاحبه . بعث ابن اللبيتية ليجمع الصدقات ، فعاد يقول : هذا لكم وهذا لى . فصعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر غاضبا وقال : ما بال الرجل نوليه عملا مما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدى الى ؟ أفلا جلس

فى بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى اليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده ، ما يغل أحدكم شيئا مما ولى عليه الا يأتى يوم القيامة يحمله على عاتقه ان كان بعيرا له رغاء ، أو شاة لها تغاء ، أو بقرة لها خوار ، اللهم هل بلغت ؟

فهل هناك تقريع أشعل من هذا ؟ وهل هناك زجر أبلغ من ذلك ؟

وحسن الاختيار للمسئول واجب الحاكم ومسئولية عظمى يحاسب عليها غدا أمام الله ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى دلك : أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس على أن فى العشيرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين .

لا يغفل الحاكم اليقظ عن أن حسن اختياره لمعاونيه وممثليه يعينه أتم المعاونة على أداء مهمه والبلوغ بأمته وشعبه الى أقصى ما يطمح اليه من تقدم ونهوض ، ولأن الحكم مسئولية كبرى وضعه النبى صلى الله عليه وسلم فى رأس القائمة حين أراد أن يرعى نظر المسلمين الى أبعاد المسئولية وجوانبها فقال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالامام راع ومسئول عن رعيته .. ثم مضى يحدد لكل فرد مسئوليته بعد ذلك ..

ولأن الحكم مسئولية كانت الشورى قوامه وأساس اختيار الحاكم الصالح له ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عمه العباس عن التطلع للحكم فقال له : لا تطلب الامارة فانك ان طلبتها لم تعن عليها وان أعطيتها أعانك الله عليها .

كان أساس ما يحرص عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى تزويده القادة والأمراء هو التقوى ، لأن التقوى هى أساس الحكم الصالح ، والتقوى هى التى تهدى الى اتقان العمل واحكام الخطة وحسن التدبير وحسن المعاملة للمرءوسين وملاحظتهم وتفقد أمورهم وشئونهم وسياستهم بما يتفق ومصالحهم ومصالح الأمة الاسلامية .

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ملهما فى سياسته وحكمه ، ولكنه مع ذلك الالهام الذى يستعصى على كثير من الحكام كان يجتهد ليشرع لمن جاء بعده سنة الاجتهاد فى الأمور وفى الوسائل التى تستتب بها الأمور .

والعدل والنزاهة والمساواة والصراحة والصدق من أسباب نجاح الحاكم فى حكمه ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى تلك الصفات وفى غيرها من الفضائل التى بعث لتحقيقها وتأكيدها .. وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق ولا خير فى دولة لا تحرسها الفضيلة ولا تبنى قواعدها على الدين والأخلاق . وسيرته صلى الله عليه وسلم زاكية بالمثل التى لا يعسر على الحاكم الناجح أن يتأسى بها لو أراد أن يبلغ بأمته مبلغ الكمال . وقصارى ما يقال فى هذا المجال قوله عليه الصلاة والسلام فى ختام خطبته فى حجة الوداع : تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة رسوله .

وبعد ، فهذه قبسات من سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ما أحوجنا الى تدبرها وتفهمها حتى نصل إلى بر الأمان والسلام الحقيقى ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

ان فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروسا نافعات ، ما أحرانا أن ننتفع بها ، وهذا ما أمرنا به ربنا جل جلاله فى قوله تعالى : **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »** الأحزاب ٢١ .

وانى لأرجو الله أن يغفر لى ما عسى أن أكون قد وقعت فيه من غفلة أو سهو أو جهل ، وأن يتجاوز عن تقصيرى فى تناول هذه السيرة العطرة، وأن ينفعنى بما سطرته فى هذه الصفحات وينفع المسلمين ، وأن يرزقنى معية المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعية أهل بيته الطاهرين والمهتدين بهديه وسنته .

وصلى الله وسلم وبارك على الرءوف الرحيم المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

عبدالحفيظ فرغلى على القرنى

الحديدة فى ٢٤ من ربيع الأول ١٤٠٢ هـ

١٩ من يناير ١٩٨٢ م

من مصادر هث

١ — سيرة ابن هشام
لابن هشام

٢ — فقه السيرة
د. محمد سعيد ر سان البوطى

٣ — فقه السيرة
الشيخ محمد الغز

٤ — نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين
الشيخ محمد الخضرى

٥ — أسد الغابة فى معرف لصحابة
لابن الأثير

٦ — قصص الأنبياء
للشيخ عبد الوهاب النجار

٧ — المقدمة
لابن خلدون

٨ — شرح حكم ابن عطاء الله
للرندى

٩ — الرسالة القشيرية
للقشيرى

١٠ — عبقرية محمد
العقاد

١١ — أسباب النزول
للسيوطى

١٢ — غزوات الرسول
ابراهيم محمد القطب

١٣ — سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
محمود شلبى

١٤ — عمر بن الخطاب
محمود شلبى

الفهـــــــرس

والحمــــد لله أولا وأخـــيرا حمـــدا يوافى نعمـــة ويكافىء مزيده

دار عطـــــوة للطبــــاعة